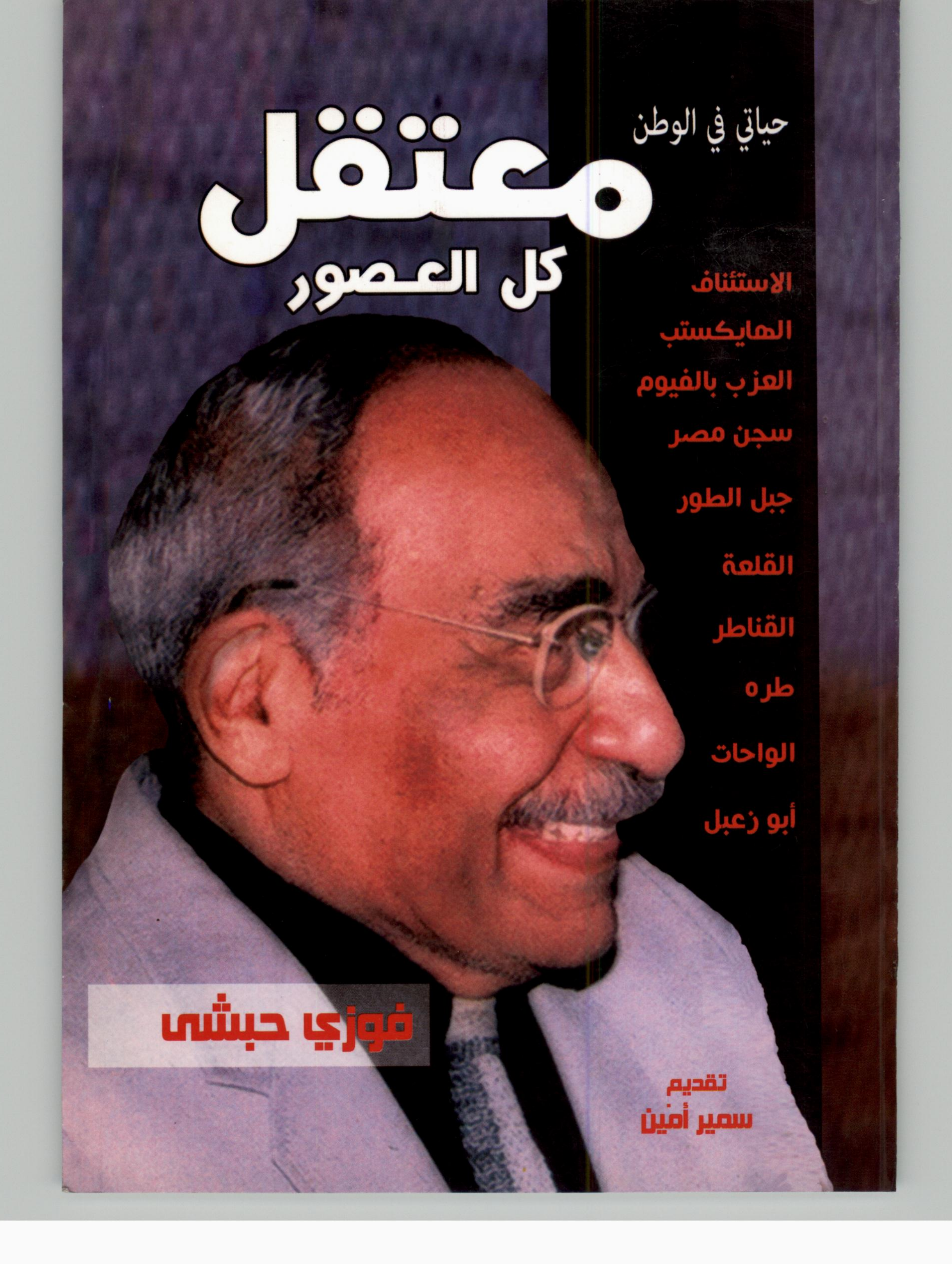
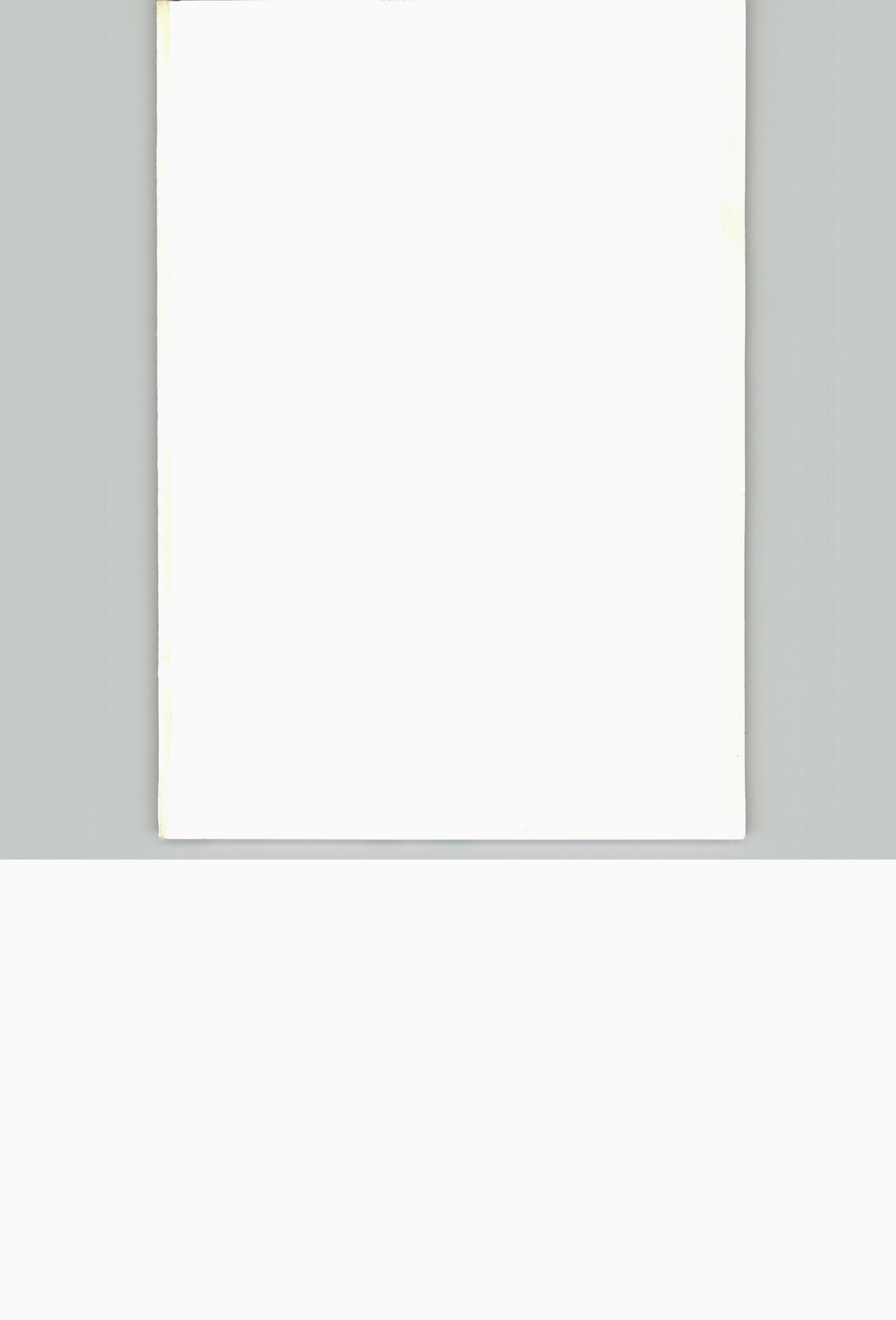

حياتي في الوطن
معتقل
كل العصور
الاستئناف
الهايكستب
العزب بالفيوم
سجن مصر
جبل الطور
القلعة
القناطر
طره
الواحات
أبو زعبل
فوزي حبشى
تقديم
سمير أمين



معتقل كل العصور
حياتى فى الوطن



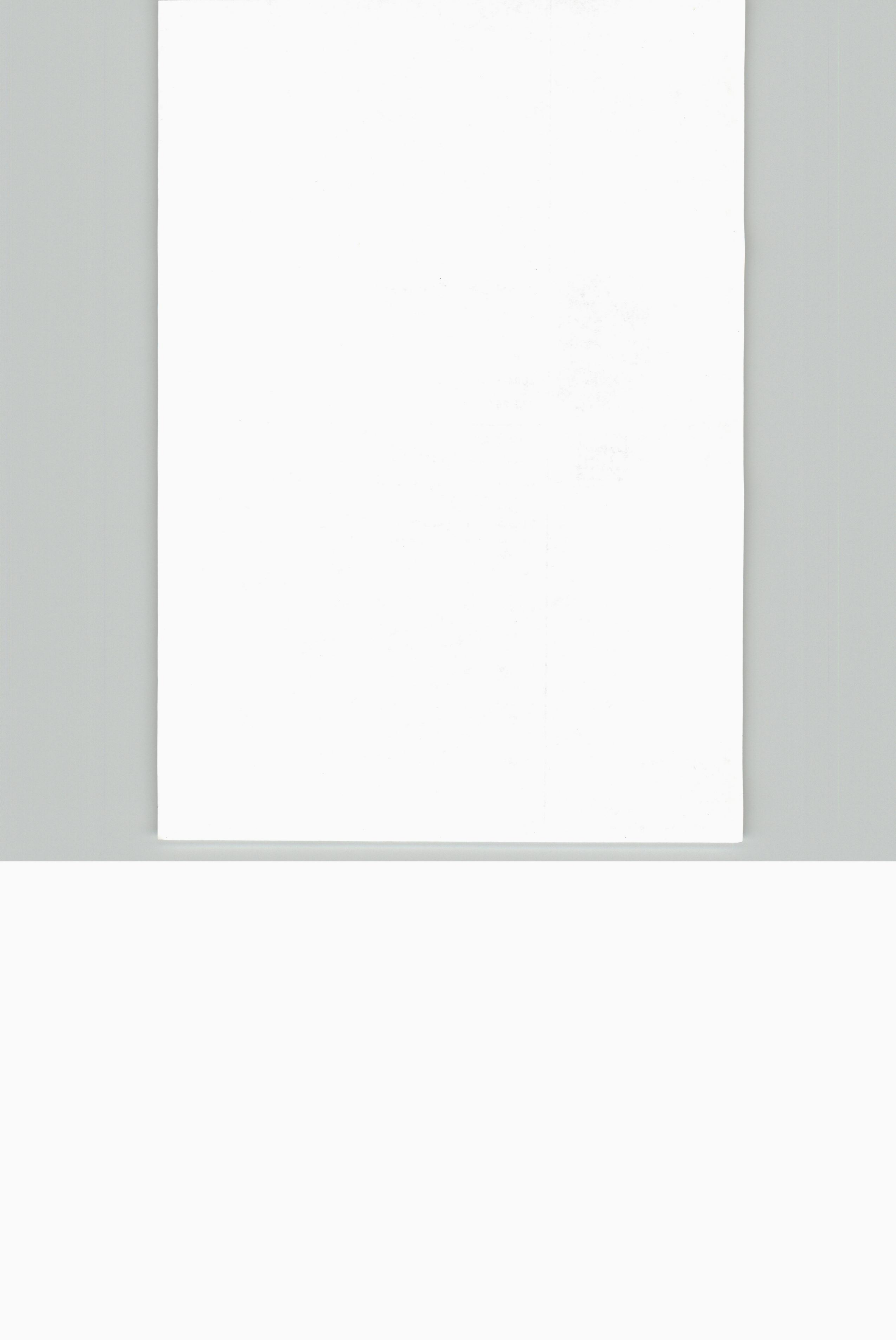


الكتاب: معتقل لكل العصور
المؤلف: مهندس فوزي حبشي
تقديم: سمير أمين
الطبعة الثانية
رقم الإيداع: 2004/13090
الرقم الدولي: 9-197-351-977

التجهيز الفني:
وكالة [11/15] للدعاية والإعلان



باب اللوق - 20 شارع عبد العزيز جاويش متفرع من شارع التحرير - برج الأطباء - المدخل الثانى- الدور الخامس- شقة 514
تليفون: 27957033 (202) فاكس: 27957033 (202)
البريد الالكترونى: info@15-11.net
الموقع على الانترنت: www.15-11.net



مقدمة

طوال قراءتي ذكريات فوزي حبشي، وجدت نفسي أحب هذا الرفيق وزوجته ثريا مثل أخ وأخت حقيقيين. وعندما أتيحت لي الفرصة السارّة أن أقابلهما فيما بعد، تأكد لدى هذا الشعور، كما تأكد لدى زوجتى إيزابيل. تنتمى هاتان الشخصيتان إلى التاريخ الحقيقي للشعب المصري، إلى تاريخ أبنائه الأكثر دراية بالأمور والأكثر شجاعة، أقصد الشيوعيين. إن الزمن الذي نعيشه هو زمن إنكار الشيوعيين، فى مصر وفى العالم كله. إن الظلاميين الذين يحتلون الساحة يلقون عليهم أسخف الشتائم الكاذبة، من بينها أنهم "غريبون، غرباء عن الشعب وعن الوطن"! هناك عدد من القدماء الذين خاضوا المعارك الشيوعية خضعوا للضغوط ويمارسون جلد الذات!

إن حياة وعمل فوزي وثريا هى أبلغ دليل على العكس. فلا أحد في طيف الحياة السياسية والاجتماعية المصرية نجح مثلما نجحا في الربط بين المعركة من أجل الدفاع عن المضطهدين والمعركة من أجل الاستقلال الوطنى. ولا أحد نجح مثلما نجحا في ربط المعارك ضد الإمبريالية وضد الصهيونية بالتقدم الاجتماعى والديمقراطية. لقد فعلا هذا بشجاعة لم تتزعزع قط. لقد فعلا هذا بقوة بصيرة كاملة على المستويين السياسي والثقافي. لقد فعلا هذا دون أن يضطرا إلى تجاوز المشاكل الزائفة التي يستند إليها أنصار "الماضوية" الذين يتصدرون الصحف اليوم. إنهم فعلا هذا كأبناء حقيقيين لشعب له تاريخ يمتدّ إلى آلاف السنين، فخورين بهذا التاريخ، دون أن يتخلا عن انتقاداتهم له. لقد فعلا هذا دامجين هذا الإرث المجيد برؤية إلى الأمام، إلى مستقبل قادر على إثمار الماضي وقادر على إدخال الشعب المصري

في اشتراكية الغد العالمية. لقد عرفا كيف يورثا أولادهم ذكاءهم وكرمهم.معهم.

أتمنى لهم حياة طويلة من السعادة المشتركة.

د. سمير أمين

تقديم الطبعة الثانية

كتبت أقول في تقديم الطبعة الأولى تحت عنوان «قبل البداية» ما يلى:-

«...أتوقف قليلا لألقى نظرة على حياتى... أتأمل ما عندي -أبنائي من حولى «ممدوح وحسام ونجوى» بل وأحفادي. مازالت معي ثريا شاكر زوجتي ورفيقة رحلة عمرى والتي لا أتخيل سنواتى الماضية والقادمة من دون محبتها؟.. إن ما يدفعني إلى أن أكتب هذه الأوراق؟ وهل ستبدل أوراق عمرى هذه ملامح العالم؟ وما جدواها؟.».

وأتصور أن نفس السؤال قد راود السيد الناشر للكتاب؟ إذ من هو «فوزي حبشي «هذا؟.. اسم غير معروف في مجال الكتابة؟.. وقد يعود عليه النشر بالخسارة؟...

ولكن وبعد النشر تلقيت الكثير من الثناء وعلى سبيل المثال لا الحصر:-

كتبت الأستاذة: ماجدة الجندى بجريدة الآهرام بتاريخ 10 أغسطس تحت عنوان «في حب الوطن» نقدا لتلك المذكرات تقول:

كتاب «معتقل لكل العصور» هو الكتاب الذي حمل تجارب اعتقال المهندس: فوزى حبشى في سجون توزعت على أنحاء مصر من ثلاثة أرباع عمره الثمانين. التفاصيل فى تجارب الاعتقال قد تكون نفس التفاصيل التي حملتها عشرات الشهادات المماثلة . تفاصيل الألم والإهانة والتعذيب والشتات والفرار ومحاولات الإنسان أن يظل محتفظا ومتعلقا بالحياة حتى آخر رمق. سنوات وسنوات بين مطاردة إلى اعتقال ومع ذلك يستمر «العود بالحلم يجود» على رأي ناس بلدنا والعود هو صاحب التجربة الذي يظل محملا بهموم هذا الوطن غير قادر على إستئصال أحلامه بغد فيه مزيد من الحرية ومزيد من العدالة الاجتماعية...

وكتبت الأستاذة: فريدة النقاش بجريدة الأهالى:

«ربما كان المناضل الوحيد الذى ذاق مرارة السجن والاعتقال في عصر

الملك فاروق وجمال عبد الناصر، والسادات، وحتى حسني مبارك جميعا... وتخللتها عمليات تعذيب وحشية كادت تقتله وشارك «حبشي» في كل مراحل النضال الوطنى الرئيسية عبر هذا التاريخ الممتد لستين عاما دونما انقطاع من أجل وطن ترفرف عليه رايات الاستقلال والحرية والعدالة الاجتماعية وصولا إلى الاشتراكية ولم يبخل بشىء

وكتب الأستاذ: مدحت الزاهد بجريدة التجمع

«إنه لا يكتب مذكراته من أجل إثبات وجهة نظره فيما مضى وانقضى، بل أنه يكتب من أجل المستقبل، فهو شأن المناضلين الحقيقيين يأبى الاعتراف بنهاية التاريخ وانتصار الرأسمالية وهو الذى دفع من حياته الكثير بحثا عن تحقيق العدالة الاجتماعية والتحرر الوطنى والديمقراطية السياسية ، باختصار إنه يكتب لمصر التي في خاطره

وكتب الأستاذ: أحمد إسماعيل في الأهالي:

خمسون عاما من الإصرار والكفاح والتمسك بالمعتقدات، عشنا مع فوزي حبشي رحلته دمعة بدمعة وكرباجا بكرباج... توجعنا وتألمنا، ابتسمنا، وضحكنا، وارتعدنا، وفرحنا وبكينا؟...

إن كل هذا التقدير يدفعنى أن اطالب كل من ساهم ولو بقدر ضئيل في العمل الوطنى أن يسارع بكتابة مثل هذه الأوراق ويسجل تجربة حياته الخاصة والعامة لكى يضيف قطرة ولو صغيرة إلى نهر أحلام الوطن الكبيرة.

فوزي حبشي

أكتوبر 2007

هـذه الذكريــات..

وأنا أقرأ هذه الذكريات توقفت أكثر من مرة إعجاباً بمسيرة النضال والصمود والتحدي، التي خاضها المناضل فوزي حبشي دفاعا عن المبدأ على مدى خمسين عاما مناضلا، مع رفاق آخرين من أجل حق الإنسان في التحرر من القهر الاجتماعي والسياسي. وتذكرت الحكمة القائلة: إن الحياة مبادئ.. فابحث عن مبادئك تجد حياتك. وتذكرت بيتا من الشعر يقول: قف دون رأيك في الحياة مجاهدا.

"إن الحياة مبادئ وجهاد"

وفي مرات كثيرة شعرت بالأسى وتحركت الدموع في عيني، وأنا أتابع ألوان العذاب التي تعرض لها داخل المعتقلات، وخاصة واقعة ضرب جسده النحيل بالكرابيج في معتقل العزب بالفيوم وترحيله إلى معتقل الواحات وهو ينزف دما، وصنوف الإذلال التي تفنن في ابتكارها ضباط السجون، الذين خلعوا رداء الإنسانية خارج سور السجن وتحولوا إلى وحوش آدمية، تنهش كرامة هؤلاء الذين نذروا أنفسهم فداء المظلومين والمقهورين اجتماعيا وسياسيا.

هذا هو فوزي حبشي الذي نشأ في أسرة عصامية، تعلم فيها التحدي ومواجهة الظروف القاسية منذ نعومة أظفاره.. فقد رأى والده الذي لم يكن له حظ من التعليم مزارعا يفلح الأرض، ثم رآه وهو يصر على تجاوز هذا الوضع وينخرط في سلك التعليم حتى يتخرج في كلية الحقوق ويصبح محاميا فكان نموذجا مشرفا لأبنائه. وهكذا يقبل فوزي حبشي على التعليم ويلتحق بكلية الهندسة جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن)، ويلحق بابن عمه لويس عوض الذي كان قد سبقه إلى القاهرة، وأصبح معيدا بقسم اللغة الإنجليزية، ويشاركه سكنه بالدقي بجوار الجامعة.

ثم ينتقل إلى شبرا وتنتقل إليه أسرته من المنيا لتكون معه، ويكون

تحت رعايتها. وفي شبرا بدأت علاقته بالشيوعيين بقراءة الماركسية، بتشجيع من المهندس خضر محمود خضر. وعرف طريقه إلى مراكز الفكر الشيوعي في القاهرة: لجنة نشر الثقافة الحديثة قرب دار الحكمة بشارع قصر العيني، ودار الأبحاث العلمية بالمبتديان، فضلا عن الاستماع لمحاضرات سلامة موسى بجمعية الشبان المسيحيين حول الصناعة المستقلة والديمقراطية والجلاء.

ووجد نفسه مندمجا في العمل السري يقوم بتوزيع المنشورات ضد الإنجليز ويكتب على الجدران شعارات الحرية والتحرير. وآنذاك كانت مصر بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تفور حماسا ونضالا، إذ تتجمع قوى سياسية متعددة تطالب بالجلاء والاستقلال، وتهتف ضد نظام الحكم الذي يخضع لسيطرة كبار ملاك الأراضي الزراعية وأصحاب رأس المال.

ثم يقبض عليه متلبسا بتوزيع المنشورات، ويحجز بقسم روض الفرج صيف 1947، ويدرج اسمه ضمن قوائم الشيوعيين «أصحاب الأفكار الهدامة» في عرف النظام الحاكم، ويظل على القوائم مرشحا للاعتقال بين لحظة وأخرى فور حدوث مظاهرة سياسية. ومنذ ذلك التاريخ البعيد أصبح «ضيفا» على كل معتقلات مصر. لا يخرج إلا ليعود مرة أخرى أكثر صلابة وأكثر تحديا وقد ازداد خبرة بحياة السجون والمعتقلات والتأمل في حياة السجانين وسجنائهم من كافة الاتجاهات. وينغمس في العمل السري أكثر وأكثر، ويتقن فن المناورة والتخفي والتخلص من أدلة الإدانة. مع أن السلطات كانت تعتقد أن تجربة السجن لا بد وأن تجبر المعتقل على التوبة عن معتقداته، والرجوع عن نشاطه، والعيش مسالما يبحث عن قوت يومه. لكن هيهات أن يؤدي السجن إلى ما كانت ترمي إليه السلطات ذلك أن المناضل السياسي الحقيقي يخرج من المعتقل أكثر نضالا وأكثر إيمانا بمبادئه.

ومن حظه العجيب أن رفيقة حياته ثريا شاكر التي أحبها كانت منتمية بدورها للحركة الشيوعية في منظمة م.ش.م (المنظمة الشيوعية المصرية) وكان هو في «العمالية الثورية» انتقل منها إلى

«النجم الأحمر». وكانت لحظة مكاشفة كل منهما للآخر سببا في تمتين أواصر الحب بل وتجاوزه إلى الصداقة العميقة التي ظلت متوهجة طول العمر. وكثيرا ما كان الاثنان «ضيوفا» على المعتقلات في وقت واحد، يتركان أولادهما للجيران أو لأحد الأقرباء. ومن هنا كان طبيعيا أن تنتقل جينات النضال في حب مصر إلى أولادهما وإلى أحفادهما، الذين ساروا على نفس الطريق لا يبغون شيئا إلا العدل الاجتماعي والتحرر الوطني.

وفي المعتقلات.. لا ينسى فوزي حبشي تخصصه في الهندسة المعمارية، فنراه يصف كل المعتقلات التي دخلها وصفا معماريا دقيقا وكأنه يكتب سيناريو لمسرحية ما تتضمن المناظر.. الزنازين بالداخل، والمطعم، والأكل الرديء. ويرسم بورتريه لمن زاملهم في السجن من السياسيين، ومن الضباط خربي الذمة، الذين يتفاهمون مع المقاولين موردي الطعام لقاء عمولات على حساب تغذية المعتقلين، وإخفاء محاضر إثبات التعذيب، حتى لا تستخدم في التحقيق. كما يعطينا صورة «إيجابية» إن صح التعبير لحياة المعتقلات حيث يعتاد الجميع على الحياة الجماعية والتعاون «الطبقي»، وطوابير التمام، وتوزيع المسئوليات، والتعايش مع تيارات سياسية مغايرة في مقدمتهم الإخوان المسلمين، وكيفية استهلاك وقت الفراغ في الثقافة والتثقيف دون يأس.. بل أملا في حياة مزدهرة قادمة.

وبعد خمسين سنة قضاها فوزي حبشي مناضلا في صفوف الحركة الشيوعية، يكتب مذكراته وهو في الثمانين، لكنه يؤكد أنه لا يكتبها من أجل إثبات وجهة نظره فيما مضى وانقضى، بل إنه يكتب من أجل المستقبل.. فهو شأن المناضلين الحقيقيين يأبى الاعتراف بنهاية التاريخ وانتصار الرأسمالية، وهو الذي دفع من حياته الكثير بحثا عن تحقيق العدالة الاجتماعية والتحرر الوطني والديموقراطية السياسية. باختصار إنه يكتب لمصر التي في خاطره.. مصر الديمقراطية التي تحتاج إلى تعديل دستوري، وإلى النص صراحة على حرية العقيدة والفكر

والرأي والتعبير، وإلى إقرار المواطنة الحقيقية التي لا تفرق بين المواطنين على أساس الدين وإنما تجمعهم من أجل الوطن الواحد..

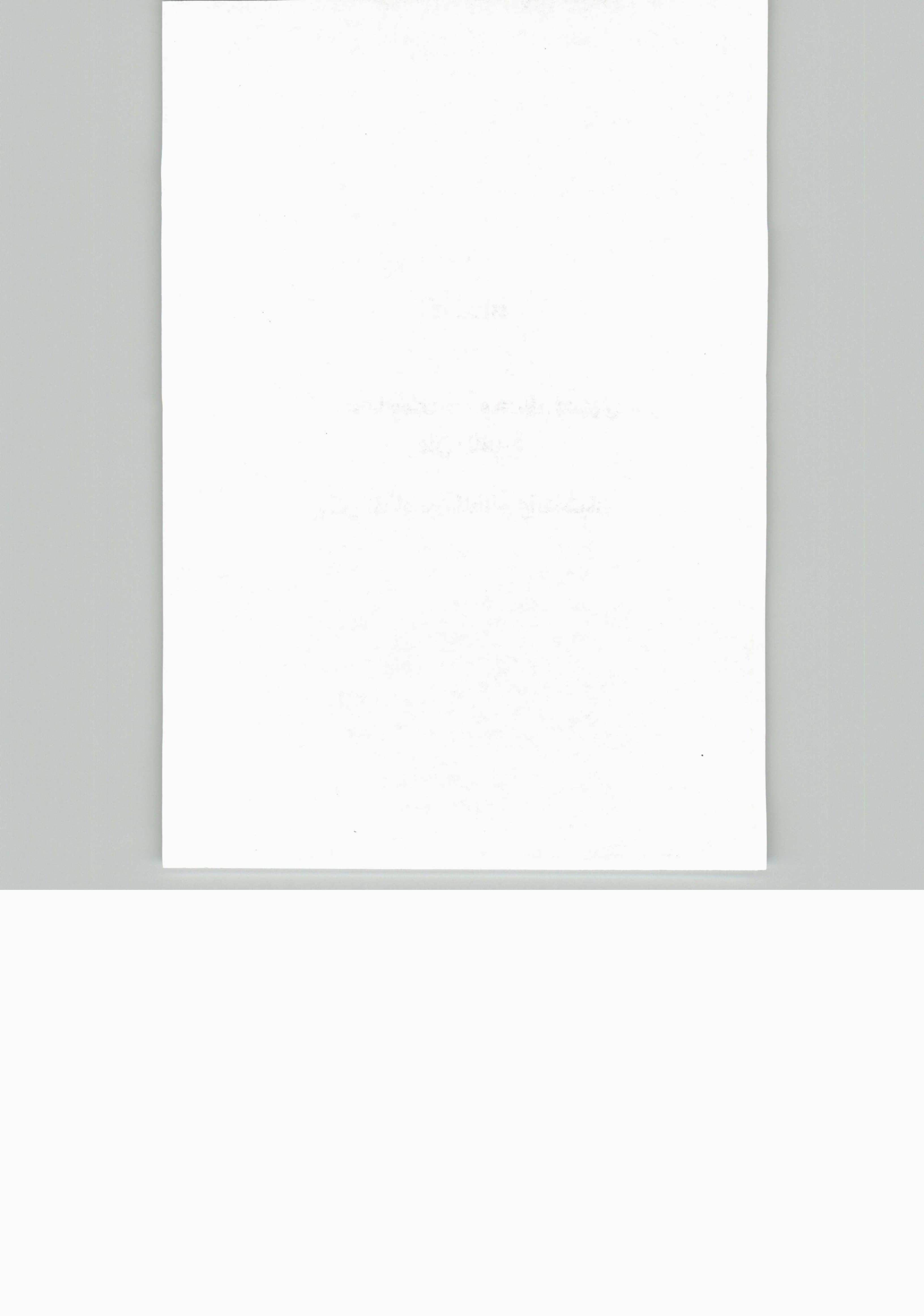
تلك هي كلماته في ختام ذكرياته.. فما أجملها كلمات.. وما أعمق معانيها.. وما أخلصها طلبا لوطن حر مستقل قوي تتحقق فيه إرادة الإنسان الحر.

د.عاصم الدسوقي

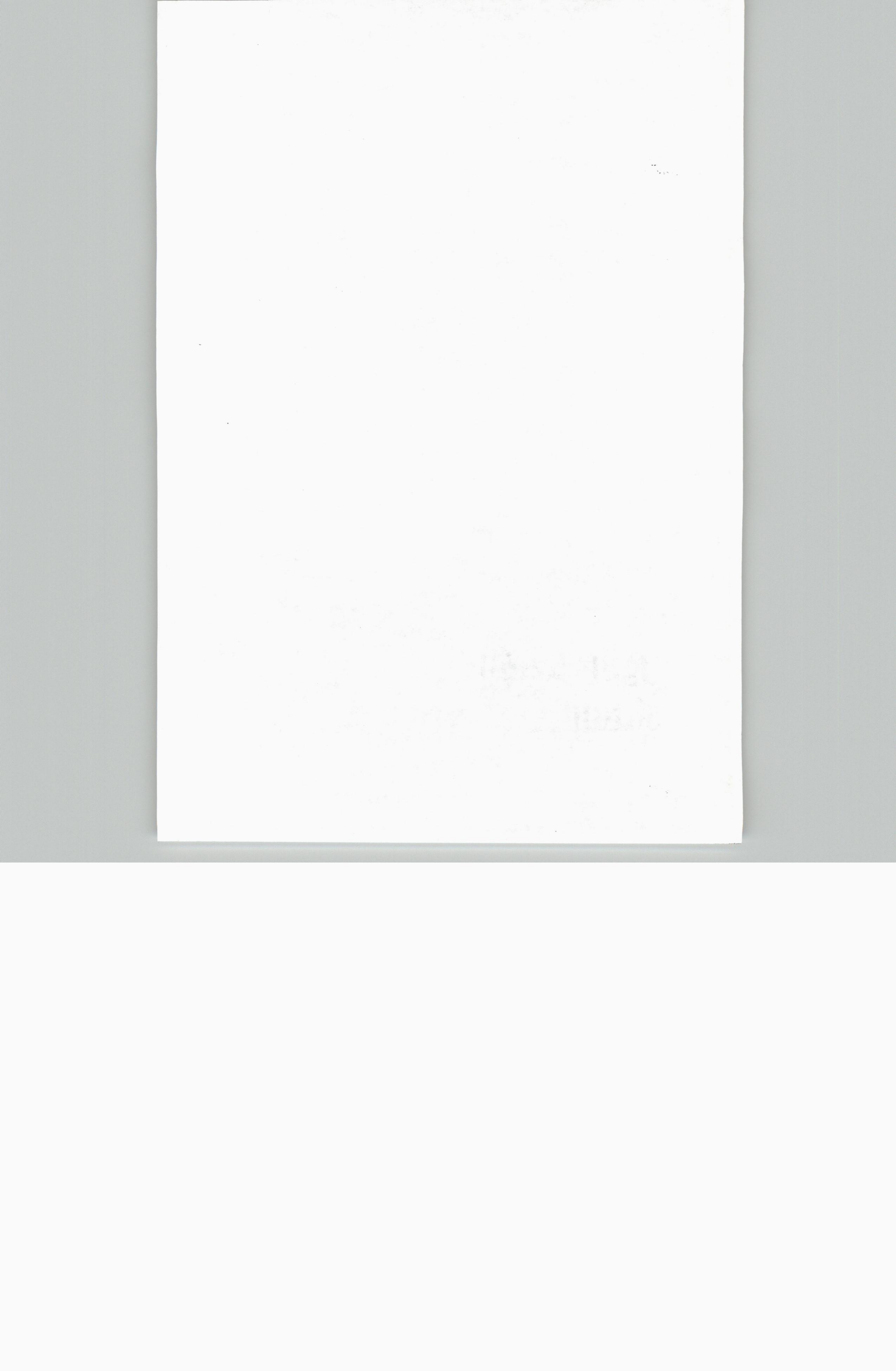
إهــداء

إلى ثريا وممدوح وحسام ونجوى
رفاق المسيرة

وكل المقاومين للظلم والطغيان



الفصل الأول
النشأة



ولدت أول عام 1924 بمدينة المنيا وسط الصعيد أما الوالد فمسقط رأسه «شارونة» تلك القرية الصغيرة الفقيرة من قرى الصعيد التي تقع شرق النيل، بأرضها الصخرية تقريبا التي تستعصي على الزراعة، المالحة إلى درجة أن رفات الموتى تبقى طويلا كما هي. حواريها ضيقة، لدرجة أنني أذكر بوضوح أنني مشيت يوما في حارة يقل عرضها عن متر واحد. بيوتها مبنية بالطوب اللبن، وقليل منها ما ارتفع إلى طابقين. في إحدى تلك الحواري التقيت بجدتي لوالدي الست دميانة، وكانت ضريرة، قابعة في مكانها لا تتحرك، لا يزيد وزنها على وزن طفل في العاشرة. تحسست وجهي وهي تقول بصوت نحيف يكاد لا يسمع: «مين؟ابن حبشي؟». لحظة واحدة لا أدري لماذا ظلت في ذاكرتي. ربما لأنني دهشت من كبر سنها، ويقظة عقلها التي تركزت في يديها وهما تتحسسان وجهي وأنا واقف أمامها في صمت. أما أبي حبشي خليل عوض فكان فلاحا بسيطا أميا نشأ في تلك الظروف القاسية، وظل إلى أن بلغ الثامنة عشرة في قرية شارونة يفلح مثل كل الفلاحين الكادحين، وقد حكى لنا مرة أنه في تلك الأيام، ألقى بشوال الغلة من فوق ظهر البهيمة وصاح راجيا تلقي العلم: «ربنا مش هيتوب علينا بقى من الشقى ده؟!. ونتعلم؟!

وأرسل يستنجد بأخيه الأكبر إسحاق خليل الذي كان يقيم في مصر الجديدة بالقاهرة في ذلك الوقت ويعمل مدرسا في المدرسة الإكليريكية. هكذا تلقف إسحاق نداء أخيه الأصغر، فاستدعاه ليقيم معه. وهكذا غادر والدي القرية في مطلع القرن العشرين مودعا إياها لفترة طويلة. وكان أول ما قام به إسحاق أنه دفع لأخيه «البدلية» أي بدل الخدمة العسكرية وقدره عشرون جنيها. وكان ذلك شائعا

حينذاك لمن لا يريد أداء الخدمة. هكذا تحرر والدي أولا من العسكرية التي كانت نوعا من العبودية المقنعة. وفي القاهرة ألحق إسحاق أخاه بمدرسة ابتدائية تابعة للإكليريكية. وهناك بدأ أبي يتعلم القراءة والكتابة. إلى أن حصل على الشهادة الابتدائية. وعلى الفور التحق بوظيفة كتابية بعنابر السكك الحديدية بالسبتية. واعتمادا على دخله المحدود وبمجهوده الذاتي واصل ذلك الفلاح الصعيدي العنيد تعليمه. فأخذ يدرس المرحلة الثانوية ثم دخل إلى مدرسة الحقانية إلى أن تخرج منها عام 1910.

أسأل نفسي: ما السر الذي يدفع فلاحا من أقصى الصعيد إلى طلب العلم بهذا الإصرار والدأب؟ ما القوة التي حركته نحو تغيير حياته؟ وهل هي نفس القوة التي تحركنا نحو تغيير المجتمع؟ هل ورثت عن أبي ذلك الإصرار والقدرة على التحمل؟ القدرة التي جعلتني فيما بعد في معتقل العزب بالفيوم في سبتمبر 1959 أقف تحت ضربات الجلادين وبدني كله مغطى بالدم -أفقد كل شيء. حتى الوعي- دون أن أفقد للحظة واحدة إيماني بنفسي وبعدالة مطلبي. كان الضرب بالكرابيج السوداني يأتيني من كل ناحية. وقد جردوني من ملابسي تماما في حوش المعتقل. والصاغ أحمد منير يطلب مني أن أعترف. وأنا أرفض. وأشعر أن لحظات تفصلني عن الموت. فأخلع خاتم زواجي أعطيه لأحد الجلادين الواقفين حولي ليعطيه لزوجتي بعد وفاتي. وأنا أرفض أن أعترف بشيء. إلى أن حاولوا سحبي على الأرض إلى الزنزانة.. وهنا تنبهت لخطورة ملامسة الجروح الكثيرة للتراب فرفضت أن يجرني أحد وقمت متكئا على كتف الجندي حتى ارتميت بجسدي المتهالك على أسفلت الزنزانة وأنا أغالب سكرات الموت. من أين تحتشد في الإنسان كل هذه القوة؟ شيء غريب في عائلتنا هذا الإصرار. أراه أحيانا في عيني ولديّ ممدوح. أو حسام. لكن نشأة أبناء المدينة تغلفه بستار من الهدوء. كما يخفي سطح البحر الناعم تحته الموجة الهادرة.

في مطلع القرن العشرين، وقبل ثورة 19

كان الشباب يطمحون إلى التخرج من مدرسة الحقانية لسبب من اثنين: إما الحصول على وظيفة قد ترفعه إلى الوزارة، أو للدفاع عن الغلابة في المحاكم. كان والدي من النوع الأخير، حتى أنه رفض منصبا عرض عليه في القضاء مفضلا أن يتفرغ للعمل الحر. وقد بدأ حبشي خليل حياته العملية في مدينة الفيوم، وهناك تعرف إلى أمي السيدة مارتا بولس، وأنجب منها خمسة ذكور، كنتُ أنا أوسطهم، وأختي الوحيدة فيكتوريا.

عام 1913 اشتد حنين والدي إلى الصعيد وشمسه الحارقة فقرر أن يترك الفيوم ويشد رحاله إلى المنيا، أقرب المدن إلى شارونة مسقط رأسه.هناك سارت حياة والدي بهدوء، وكان لنا في المنيا منزل مكون من طابقين اثنين، وعلى السطح فرن، نأكل منه العيش مخبوزا ساخنا. وأذكر أن العشرة بيضات كانت تباع بقرش صاغ واحد. وكانت العلاقة بين المسلمين والمسيحيين طيبة، خاصة أن والدي لم يكن يثق كثيرا في رجال الدين وأذكر ونحن أطفال كثيرا ما كان يزورونا بالمنزل بعض رجال الدين المسيحي من أقارب والدي للصلح فيما بينهم من خلافات، إلى غرفة مغلقة فلا نسمع فيها إلا الأصوات العالية التي قد تصل إلى حد الشتائم؟! وعادة ما كان يخرج من تلك الجلسات العائلية.. صاخطا لاعنا رجال الدين أمثال هؤلاء لما يلمسه من تناقض بين ما يقولونه في العلن وما يقولونه في الواقع أمامه؟!.. وأذكر وأنا صبي كم من المرات كنت أحمل فيها بتكليف من أمي أو أبي صينية كعك أو طبق شعرية مما نعده فوق السطح إلى الجيران المسلمين، وكانوا يلقونني بالترحاب والمودة.

سارت حياة العائلة عادية إلى أن اندلعت الحرب العالمية الأولى عام1914، وأعلنت بعدها الأحكام العرفية في مصر وقل العمل في المحاكم المدنية. وكان والدي فيما بعد يصف لنا أيام الحرب بقوله كانت أيام صعبة». وأذكر أن زملاءه من المحامين كانوا يلومونه لأنه كان يضيع

نصف وقته في محاولة عقد صلح بين من يقصدونه وخصومهم، بدلا من الاستفادة بالفرصة ورفع القضايا والانتفاع بأجره عنها كمحام. وكان والدي يميل إلى حزب الوفد ويتابع صحفه ويناقش ما تأتي به من أخبار ومقالات مع أخيه حنا خليل عوض -والد الدكتور لويس عوض- في جولتهما يوميا على شاطئ النيل، أو أثناء جلسة لهما أمام رقعة الشطرنج في منزلنا. فيما بعد اضطرت الظروف الشخصية والعامة والدي -مع ضعف بصره- إلى التقاعد مبكرا وطلب المعاش، وكان من أوائل من حصلوا على المعاش من المحامين وقدره حينذاك عشرون جنيها فقط. وفي فبراير 1946 عدت من رحلة البكالوريوس في الأقصر وأسوان لأجد والدي على فراش الموت بعد عملية جراحية في مستشفى قصر العيني، علق عليها أحد الأطباء هناك بقوله» لقد ذبحوه»، كانت العملية بسيطة، لكن من قام بها لم تكن لديه الخبرة اللازمة للعمليات البسيطة، وهكذا ودعت والدي الذي عاش ومات فقيرا على حلم واحد: أن ينال أبناؤه تعليما عاليا دون تلك المشقة العجيبة التي تكبدها هو للاقتراب من نور العلم والمعرفة.

في المنيا التحقت تلميذا بمدرسة الروضة الابتدائية وهي جزء من مدرسة بنات تقع على الكورنيش. كانت تدرس معي في ذات المدرسة أختي فيكتوريا التي كانت تكبرني بحوالي ست سنوات، وكانت تمارس على رقابة الأخت الكبيرة، فما أن ترى ملابسي متسخة من اللعب حتى تنهرني وتهددني بإرسالي إلى «غرفة الفئران». وظللت طويلا أخشى تلك الغرفة متخيلا إياها عالما مرعبا فوق الخيال، إلى أن حل يوم حفرت فيه مع آخرين حفرة في حوش المدرسة ونقلنا إليها الماء فاتسخت ملابسنا بشدة، ولما انكشف أمرنا قادونا جميعا إلى»غرفة الفئران»الشهيرة وهناك اتضح لي وأنا مندهش أنها مجرد مخزن للمواد الخام! فهدأ بالي، وترسخ في ذهني من يومها ألا أعبأ بالتخويف لا في الحياة ولا في السياسة!.

وانتقلت بعد ذلك ما أن بلغت السابعة من عمري إلى مدرسة الأمير فاروق الابتدائية. والحق أني لم أعد أذكر من تلك المدرسة سوى أمرين: الأول أن مدرس الخط العربي كان بعين واحدة، وأن دروس مادته كانت تبدأ عادة بعد فترة الغداء حين يحل الوخم والكسل على التلاميذ، ونتيجة لذلك كثيرا ما كنا نتعرض لقرص الآذان بشدة حتى أنني كنت أغلب الأوقات أعود من تلك الدروس إلى البيت بأذني دامية! ثم كيف أنسى ذلك ومازال خطي السيئ إلى اليوم يذكرني بما كان؟. أذكر أيضا أنني كنت أطالع بفخر اسمي وهو مكتوب على صفحات جرائد المدرسة بين المتفوقين. وفي نحو الحادية عشرة من عمري التحقت بمدرسة المنيا الثانوية، وكانت مصاريف الدراسة فيها تبلغ عشرين جنيها في العام، أعفيت من نصفها نظرا لتفوقي. وقد لا يصدق القارئ أنني مازلت أحتفظ إلى الآن بخطاب جاء إلى منزلنا من مدرسة المنيا الثانوية، ليس فقط لأنه أول خطاب يذكر فيه اسمي، بل ولأنه تضمن إشادة بأمانتي وسلوكي الحسن.

وجاء فيه:

مدرسة المنيا الثانوية.   26 أكتوبر 1936

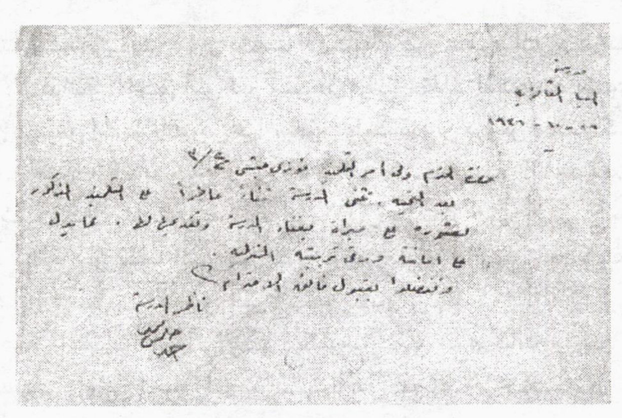
حضرة المحترم ولي أمر التلميذ فوزي حبشي فصل 2/ 3

بعد التحية.

تثنى المدرسة ثناء عاطرا على التلميذ المذكور لعثوره على مبراة بفناء المدرسة وتقديمها لها، مما يدل على أمانته ورقي تربيته المنزلية.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

ناظر المدرسة. أحمد حلمي محمد.



وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

ناظر المدرسة

صورة خطاب المدرسة

لكن تلك «المبراة» الصغيرة التي جلبت الثناء على لأمانتي، والشكر لأسرتي لرقي التربية المنزلية، لم تكن تشفع لي إذا لم أسدد قسط نصف المصروفات الذي لم يتجاوز ثلاثة جنيهات. وكم من مرة أخرجت من الفصل لأعود أدراجي مغتما إلى البيت لأنني لم أسدد القسط. وكان ناظر المدرسة يرفع شعارا سمجا لا يقبل النقاش كأنه خلاصة الحكمة: «الفصل كالأتوبيس. من لا يدفع لا يركب». وكثيرا ما كان والدي يرسلني إلى أحد أقاربه الميسورين لاستدانة تلك الجنيهات القليلة. والتحقت بمدرسة المنيا الثانوية وأنا في نحو الحادية عشرة من عمري، وتصادقت في تلك المرحلة مع بعض الشبان الأقباط، وكنا نذهب سويا أيام الأحد إلى كنيسة قريبة من المدرسة. وانضممت إلى جمعية تابعة للكنيسة تسمى «جمعية جنود المسيح». وكنت بعد مراسم العبادة أمارس الرياضة مع زملائي في حوش الكنيسة، فنلعب كرة القدم أو البينج بونج. وكنا نستمع لتوجيهات الكبار ممن نكن لهم احتراما حين ينصحوننا بالكتب الجديرة بالقراءة، أو تنظيم المسابقات الودية.

اختلف أولئك الكبار فيما بينهم ذات يوم لسبب لا أعلمه، وراحوا يتبادلون الشتائم أمامنا بشكل قبيح، فتوقفت عن التردد على تلك الكنيسة منذ ذلك اليوم، وصرنا نتندر بهم قائلين» عساكر المسيح

اتخانقوا». وعلى أية حال فقد اجتذبتني في تلك المرحلة في مدرسة المنيا اهتمامات أخرى، كان لها وقع أقوى في نفسي. أعني ذلك الاهتمام الذي تولد لدي بالقضايا العامة والشئون السياسية. وكثيرا ما كنت أجدني منجرفا للخروج في المظاهرات الطلابية الصاخبة التي تقطع شارع النيل وتنتهي عادة أمام مبنى القنصلية البريطانية هاتفة «الجلاء. الجلاء». وكنا ما أن نرى العلم الإنجليزي الكريه مرفرفا في الجو حتى نزداد غضبا ويشتعل حماسنا، ويتصاعد هتافنا» داون.. ويز.. هور.. ابن الطور»! و«هور» هذا الذي كنا نهتف بسقوطه مع العلم الإنجليزي كان وزير الخارجية البريطاني حينذاك عام 1935!



مظاهرات مدرسة المنيا الثانوية 1935

وقد عدنا ذات يوم بعد مظاهرة كتلك إلى المدرسة، فوجدنا مدرس اللغة الإنجليزية -وكان مواطنا إنجليزيا- يصف المظاهرة بأنها مظاهرة خراف، فطاردته جموع الطلبة لضربه لكنه اختبأ في غرفة المدرسين وأغلق بابها عليه. ولم تنته هذه الأزمة إلا حين أخرجه الناظر تحت حمايته وطلب منه أن يقف على أحد الكراسي ويعتذر لنا بصوت مرتفع!

وإلى جانب انخراطي في القضية الوطنية التي كانت تشغل عقل

وقلب مصر، كنت مهتما بالرياضة البدنية، كما اشتركت في جمعية علمية للكهرباء. وقمنا بإعداد جهاز لا سلكي (راديو) بدائي، وعملاق لدرجة أنه شغل حيزا في الغرفة كالذي تشغله مائدة من الحجم الكبير. وفي اليوم الأول لتجربة جهازنا العملاق، احتشدنا جميعا برهبة وصمت حول المدرس الذي أدار مفتاح الجهاز على محطة لندن، وإذا بي أسمع المذيع يقول: «يحدثكم الآن طالب البعثة لويس عوض»!. وصحت في الجميع: ابن عمي! بيتكلم من لندن! وعدت إلى البيت أبشر العائلة بأنني سمعت لويس وأن أخباره طيبة.

في خريف عام 1941 قررت، قبل أن أترك المنيا لألتحق بالجامعة في القاهرة، أن أقوم بزيارة لمسقط رأس والدي «شارونة» التي أخذ منها الأديب المعروف يوسف الشاروني لقبه. ولم تكن شارونة سوى قرية متواضعة تقع على شرق النيل أمام مركز مغاغة، حيث ولد في إحدى قرى ذلك المركز طه حسين. ودعت أهلي وقبلت الجميع خاصة أختي فيكتوريا التي كانوا يطلقون عليها «نوارة العيلة» ليس فقط لأنها الفتاة الوحيدة بين خمسة ذكور، ولكن لأنها كانت طويلة القوام، مليحة الصورة، ذات عينين واسعتين سوداوين، تحن على الجميع، وإلى جانب ذلك كانت متفوقة في مرحلة التعليم قبل الجامعي. أهانها أخي الأكبر فؤاد ذات مرة، فدخلتُ معه في عراك بالأيدي دفاعا عنها فتلقيت منه علقة ساخنة. اتجهت إلى شارونة وهناك نزلت في ضيافة إبراهيم خليل أكبر أعمامي سنا وكان تاجرا بسيطا في القرية، وقضيت أياما جميلة.

ولما أزف وقت رجوعي إلى المنيا رافقني -على غير العادة- جمع من أعمامي وعماتي أثناء تعدية النيل، ثم لازموني في القطار، واشترى أحدهم جريدة يومية ودفع بها إلي عساني أتصفحها، لكني لم أفتحها. وهبط أقربائي معي من القطار وساروا بجواري نقطع شوارع المنيا. وحين دنونا من منزلنا، فجعني منظر سرادق كبير مضاء بالكلوبات، وصوت الموسيقى الجنائزية. عدوت أسأل: من الذي اختطفه الموت؟ وداهمني النبأ: إنها أختك فيكتوريا... كيف؟ وقد تركتها منذ أسبوعين في

أفضل حال وصحة؟ منذ أسبوعين فقط؟!. وأدركت لماذا رافقني أعمامي وعماتي في رحلة العودة. ولماذا اشتروا لي صحيفة. لعلى أقرأ نعيها فلا يفاجئني الخبر. فارقتنا فيكتوريا في أوائل العشرينيات من عمرها. وهي أوفر ما تكون صحة وشبابا وجمالا. والعجيب أن والديّ كانا قد أطلقا عليها» فيكتوريا «بعد أن مات لهما من قبل أخ يسمى لبيب وأخت تسمى نرجس (وهذان لم أرهما). فقررا أن يطلقا على الأبناء كافة أسماء تبدأ بحرف الفاء فقط. تيمنا باسم الملك فؤاد. فصارت أسماؤنا نحن الخمسة: فؤاد. وفائق. وفوزي. وفهيم. وفتحي. لكن تلك الحماية الساذجة لم تجد نفعا مع فيكتوريا. لم أدر بنفسي إلا وأنا أجرى أسابق الريح ودموعي تتساقط على وجهي لألحق بالقارب الذي يحمل نعشها إلى مثواها في البر الشرقي. كيف ماتت فيكتوريا؟ ببساطة هاجمتها الدفتيريا خلال وجودي في قرية شارونة. أما الطبيب فقد شخص الحالة باعتبارها مجرد نوبة «برد». فاختنقت بالداء في أقل من أسبوع. ضاعت»النوارة» من بين أيدينا. وترك فراقها المبكر لوعة في قلبي. مازلت إلى يومنا هذا أفتقد فيكتوريا. كان الفقر والجهل وقلة الوعي وتدهور مستوى الخدمات الصحية في الصعيد أقوى من كل التعاويذ. ألم يكن كل ذلك السبب في إصابة طه حسين بالعمى في قرية بمركز مغاغة القريب؟ ألم تكن تلك صورة القرى والريف في مصر؟ ألم نكن لكل ذلك نحس بالغضب من أجل ملايين الفلاحين. فتختمر في نفوسنا فكرة الثورة؟ ويقودنا البحث عن العدل والعلم والصحة والخبز إلى عنابر السجون الجهمة في ظل حكم فاسد. مازلت أذكر كيف قام فاروق بعد اعتلائه العرش في 8مايو عام 1936 بجولة في أنحاء البلاد. وكانت المنيا إحدى المحطات التي توقف فيها. وعلقت الرايات وصدحت الموسيقى وأقيمت الاحتفالات به في النادي الرياضي. وأذكر أنني كنت في حوالي الثانية عشرة من عمري. وأخذوني مع طلبة القسم الرياضي المخصوص لنقدم عرضا أمام الملك في النادي. وبعد أن انتهى العرض قدم الملك بنفسه لكل منا هدية تذكارية. مازلت احتفظ بها حتى اليوم..؟! ولكن تصوروا ما هي الجائزة لطالب لا يتجاوز العاشرة من العمر إنها

«طقم فناجين قهوة؟!» لا أذكر الآن سوى أن احمرار وجهه كان لافتا للنظر. وحين عدت للبيت بالهدية. حكى لي والدي أن الملك فؤاد والده زار المنيا من قبل. والتقى بالمحامين فيها وكان والدي من بينهم. وألقى الملك خطابا مشبعا باللهجة التركية إلى درجة أنه خاطب الحضور بقوله» أفلادي»! (يقصد أولادي)! كان أولئك هم من يحكمون مصر! ولم أكن أدري في ذلك الحين أن نهاية الملوك قريبة. وأن آخر الملوك سيغادر مصر حتما إلى الأبد. ألم يكن قدر هذا النظام الملكي الفاسد ثمرة لنضال الشعب المصري الطويل, من أجل إلغاء معاهدة 1936 وجلاء المستعمر. والاستقلال. ومواجهة الظلم الاجتماعي؟

وفي عام 1946 كنت بالسنة النهائية بقسم العمارة في كلية الهندسة. جامعة القاهرة (فؤاد الأول حينذاك) وقامت مظاهرات الجامعة الصاخبة التي حطم فيها الطلبة صورة الملك فاروق بقاعة الاحتفالات يوم عيد جلوسه على العرش في فبراير. وأذكر يومها أنني سرت في تلك المظاهرات العارمة ولكني بعد فترة توقفت وعرجت على بعض الأصدقاء في الجيزة في زيارة سريعة. وهكذا بالمصادفة البحتة لم أكمل المسيرة مع الطلبة إلى كوبري عباس -اسمه كوبري الجيزة حاليا. وسرعان ما تناقلت مصر كلها أنباء ما جرى حيث دارت المعركة الشهيرة بين الطلبة والبوليس. وفتح البوليس الكوبري عليهم. ثم أخذ يطلق نيرانه. فتساقط الطلاب بين غريق وشهيد وجريح. وقفز منهم من استطاع إلى النهر. فغرق عدد آخر. وفى 21 فبراير من نفس العام قامت المظاهرات العارمة ضد الإستعمار وفى ميدان الإسماعيلية -التحرير حاليا- أطلق الجنود الإنجليز على المتظاهرين الرصاص من معسكرهم الذى كان وقتها مكان فندق هيلتون فقتل العديد من المتظاهرين ، ودوت أنباء هذا اليوم كالقنبلة في كافة الإذاعات والصحف العالمية. وتصادف قيام مظاهرات طلاب الهند في ذلك الوقت ضد الاستعمار البريطاني أيضا. فأصبح يوم 21فبراير يوم الطلبة العالمي يحتفل به في كل مكان.

وفي يونيو من نفس العام أنهيت دراستي في الجامعة وحصلت على عضوية نقابة المهندسين. وفي نفس الشهر قام إسماعيل صدقي رئيس الوزراء في ذلك الوقت بحملته الشهيرة التي ألقى القبض خلالها على صفوة المناضلين والمثقفين في مصر وأغلق جميع منابر الثقافة المستنيرة ومحافلها. وانعكس ذلك القمع على جميع فئات الشعب. وزاد الغليان. وأخذت الإضرابات تظهر في كل ناحية. وعم الاستياء فئة مهندسي الري. وهم بين المهندسين الأكثر عددا وتنظيما. فكنت أطوف عليهم مع آخرين حيث يتجمعون في مصالح الري والأشغال العامة ونحضهم على الإضراب لتحقيق مطلبهم بشأن إضافة «بدل تخصص» إلى رواتبهم. وفعلا نجح إضراب المهندسين عام 1947 في تحقيق مطالبهم. مما شجع الطوائف الأخرى على نفس النهج. فشهد ذات العام والعام التالي عليه مجموعة من الإضرابات التي هزت مصر. منها إضراب الممرضين في مستشفى قصر العيني ومستشفى فؤاد في أبريل 1947. ثم إضراب عمال المحلة الكبرى البالغ عددهم نحو 26 ألف عامل في يناير 1948. وإضراب رجال البوليس في أبريل 1948 الذي هز البلاد هزة عنيفة. وأظهر أن النظام الملكي في طريقه للانهيار. كانت القاهرة تغلي. وهكذا تم اعتقالي مع آخرين بعد شهر من ذلك الإضراب. وكان الشيوعيون في قلب كل تلك الأحداث منذ أن تأسست اللجنة الوطنية للعمال والطلبة في 1946.

مازلت أذكر من سنوات الدراسة أن طالبة واحدة فقط دخلت كلية الهندسة عام 1945 بقسم الكيمياء الصناعية. وأثار وجودها ضجة باعتبارها البنت الوحيدة في الكلية. وكانت هذه الفتاة هي أمينة الحفني أخت السيدة المعروفة رتيبة الحفني. ولدهشتنا من وجود فتاة معنا لأول مرة. شاعت بيننا أغنية لا أذكر كيف كتبناها. كانت أغنية ساخرة. ومرحبة في ذات الوقت باقتحام الفتيات لمجال التعليم. ولم أعد أذكر سوى بدايتها:

"ح تبقي مهندسة يا زكية.. وتنسي نوم الناموسية".

وحين أنهيت تعليمي في قسم العمارة جامعة القاهرة عام 1946، عينت في مصلحة المباني الأميرية، وكلفت بالإشراف على إنشاء مبنى ضريح أحمد ماهر باشا رئيس الوزراء الذي اغتيل في البهو الفرعوني في البرلمان. وفوجئت ذات يوم أثناء وجودي في الموقع بمرور النقراشي باشا علينا. تفحص المكان باهتمام، وقال شيئا يعني أن موقع الضريح لا يعجبه، لأنه لا يظهر في بؤرة شارع رمسيس. وبالفعل انتقلنا بموقع الضريح بعد أن كنا قد قمنا بصب الخرسانات الضخمة للأساس. وتشاء الصدف أن يكون النقراشي ذاته هو أول من يدفن بذلك الضريح. وعام 1956 راجت شائعات أن القيادة العسكرية المصرية استغلت وجود ذلك الموقع الخرساني بين ثلاث مستشفيات هي دار الشفا ومستشفى الولادة ومستشفى الدمرداش، فاستخدمته كمقر لها خلال صد العدوان الثلاثي.



مع د. لويس عوض

أتذكر كيف تعرفت إلى ثريا، أي عام؟ أي شهر؟ بل أي يوم؟. أكان يوما مشرقا صافيا أم كان يوما ممطرا غائما؟.

خريف عام 1941، تركت مدينة المنيا بالصعيد إلى القاهرة لكي ألتحق

بكلية الهندسة بعد حصولي على المجموع الذي أهلني لذلك. وجرى جدل كثير في الأسرة بشأن سفري إلى القاهرة، وأين سأعيش؟ وكيف أعيش هناك بمفردي وأنا في سن يراها أهلي حرجة قد تقودني للانحراف الأخلاقي؟ وكنت أطمئنهم إلى سلامة أخلاقي وقوتها دون جدوى. ولا أذكر كيف ظهرت فكرة أن أشاطر لويس عوض ابن عمي مسكنه في حي الدقي القريب من الجامعة، على أن يرسل لي أهلي شهريا تكاليف الإقامة معه. ولا يعرف الكثيرون للوهلة الأولى أن لويس ابن عمي.

والسبب في ذلك:

> **كما روى لويس عوض في أوراق العمر "أن أفراد أسرة عوض هذه من أشقاء وأبناء عمومة وأحفاد منقسمون في الطريقة التي يحملون بها أسماءهم. كان أبي مثلا يسمى نفسه حنا خليل عوض، وعمي حبشي خليل عوض.. وفي الوقت نفسه نجد أولاد عمي حبشي لسبب غير معروف يقنعون بأسمائهم الثلاثية الرسمية كالمهندس فوزي حبشي خليل.. ويسقطون تماما صفة العوضية من أسمائهم فيخيل لمن لا يعرفنا أنه ليست بينهم وبين أسرة عوض رابطة دم".**

والحقيقة أن علاقتي بالدكتور لويس تجاوزت رابطة الدم التي يشير إليها. فقد نشأ لويس في شارونة، وتعلم في مدارس المنيا الابتدائية التي تعلمنا فيها لاحقا، ثم في مدرسة المنيا الثانوية. وظل لويس في المنيا إلى أن حصل على البكالوريا عام 1931 فالتحق بكلية الآداب في الجامعة المصرية بالقاهرة، وعندما أنهى تعليمه فيها سافر في بعثة علمية إلى بريطانيا وعاد منها ليعمل معيدا سنة 1941. وعلى هذا الأساس سافرت إلى القاهرة. وتولى أهلي شحن أثاث لحجرة واحدة مكونا من ثلاث قطع فقط: مكتب، وكنبة بلدي للجلوس، وسرير بأربعة أعمدة، وبعض الأشياء الأخرى. شحن أهلي كل ذلك على مركب شراعي من المنيا إلى الجيزة. واتجهت مع زميل من أصدقاء المنيا كان يدرس معي بكلية الهندسة هو المهندس: شوقي بدروس مدير عام بلدية اسكندرية فيما بعد لنستلم الحجرة من مرسى «أثر النبي» جنوب الجيزة.

وضعنا الأثاث فوق عربة كارو يجرها حمار واخترقنا بهذه الصورة حي الدقي الفاخر قاصدين شارع مسعود.. وكان منظرا غريبا. خاصة أن لويس عوض كان حريصا على اقتناء الأثاث الفاخر نسبيا. وكان له في الشقة مكتب فخيم لا يقل طوله عن مترين. وكانت الشقة المكونة من ثلاث غرف خالية من الأثاث تقريبا ما عدا ذلك المكتب المهيب. وغرفتي التي كنا نستخدم مكتبها للأكل فوقه. وكانت ميزانيتنا المشتركة وقتها لا تتجاوز الثلاثة جنيهات التي ترد من المنيا علاوة على ثمانية جنيهات هي راتب لويس عوض بصفته عائدا من بعثة علمية. وأذكر أن لويس كتب ذات مرة خطابا إلى أسرته يقول لها فيه: "**كل شيء على ما يرام إذا استثنينا الجوع**". ولم يكن طعامنا يتجاوز الجبن. والزيتون الأسود. والحلاوة الطحينية. أما عن الطبيخ فلم نكن نعرف منه سوى الأرز. وأذكر مرة أنني أعددت حلة أرز. ونسيتها فتعجن الأرز تماما. واقترب مني لويس بمهارته قائلا: ماذا تنتظر؟ ضع كمية أرز جديدة فوق الأرز المعجن. هذا سيعادل ذاك. فتكون النتيجة ممتازة. لكن النتيجة كانت شيئا آخر تماما دفعتنا لأن نستغني عن الطبخة نهائيا. وكثيرا ما كان لويس يردد وهو يذرع أرض الشقة الخاوية أن راتبه وهو معيد بكلية الآداب يقل عن راتب عامل البوفيه الذي يناوله القهوة كل صباح في الجامعة. وقبل نهاية عامي الدراسي الأول فاجأني لويس بقوله إنه باع مكتبه -القطعة الأنيقة الوحيدة- لأحد الزملاء لأن لويس لم يستطع أن يواصل تسديد أقساطه!. ومازلت أذكر نظرة لويس وهو يودع مكتبه كما يودع العاشق محبوبته.

هكذا أرغمتني الظروف على مفارقة ذلك المسكن المشترك. فانتقلت إلى إحدى غرف الطلبة. وكانت مساحتها لا تزيد على مساحة زنزانة صغيرة أي مترين في مترين بحديقة أحد فيلات شارع القاضي أمام محطة الجيزة. لكن المشكلة أن سقفها كان منخفضا لا يسمح بمرور أعمدة السرير الحديدية العالية! واضطررت إلى أخذ الأعمدة إلى حداد ليقصها. فأمسك الرجل بأدواته وهو ينظر إلى الأعمدة متأسفا قائلا: «ده سرير بوصة ونصف.. حرام تقصه؟!». ورحت أشرح له أن سقف

الغرفة منخفض، ولابد من ذلك.

علمت أسرتي بانتقالي إلى مسكن جديد. فقررت أن تحل المشكلة من جذرها بأن تنتقل هي بأكملها إلى القاهرة. حيث سكنت في شبرا. وفي شبرا بدأت علاقتي ببعض الشيوعيين. وأذكر منهم المهندس خضر محمود خضر الذي تعرفت إليه في دار الثقافة. وكان يصطحبني بعد محاضراتها إلى منزله لدراسة مبادئ الماركسية. وفي تلك السنوات المبكرة من دراستي الجامعية انخرطت في حركة اليسار المصري وبدأت أوزع المنشورات وأخط الشعارات على جدران البيوت في الشوارع مطالبا بجلاء الاحتلال. وكنت أركب الترام رقم (30) من شبرا إلى الجامعة في الجيزة. فأكتم فرحتي وسروري وأنا أرى المشقة التي يكابدها رجال الحكومة وهم ينظفون بهمة ونشاط حوائط الأنفاق التي ملأناها بالشعارات ضد الحكومة والاستبداد.

نجحت في العام الأول من دراستي وأذكر أنني أرسلت للعائلة في المنيا تلغرافا حرصت فيه ألا أكتب أنني «نجحت» لكي لا أكلفهم مشقة دفع بقشيش -حلاوة نجاحي- لساعي البريد. فكتبت لهم «دخلت قسم العمارة». بعد ذلك بفترة فقد والدي بصره وتوقف مضطرا عن العمل مكتفيا بمعاش شهري من نقابة المحامين. وقرر حينذاك أن ينتقل بالأسرة إلى القاهرة. واتخذ لنا مسكنا في شبرا عبارة عن شقة بمنزل بسيط في شارع خزام المتفرع من شارع الأمير بحي طوسون.

في القاهرة بدأت علاقاتي بالحركة السياسية من خلال الجامعة. وكانت الحلقات الماركسية قد بدأت تتكون وتنتشر في القاهرة والإسكندرية وبلغ عددها حوالي عشر مجموعات. وكنت أتردد بانتظام في ذلك الوقت كل يوم خميس على إحدى الدارين: لجنة نشر الثقافة الحديثة وكان مقرها بشارع قصر العيني قرب دار الحكمة. وكانت منبرا لتنظيم طليعة العمال (الذي سمي بداية الطليعة الشعبية. ثم غير اسمه. بينما أطلق الجميع عليه خطأ أنه ديمقراطية شعبية(د. ش). لأن التنظيم أعلن أن هدفه إقامة ديمقراطية شعبية. وكان التنظيم بزعامة يوسف درويش المحامي، وريمون دويك الذي عاش أواخر أيامه مقعدا في باريس. وأحمد

صادق سعد. وكان الثلاثة من اليهود المصريين. أشهروا إسلامهم ثم انضم إليهم فيما بعد أحمد رشدي صالح، وأبو سيف يوسف، ونعمان عاشور وأذكر أنه حين كنا بمعتقل الهايكستب وكان معنا منهم الأستاذ: يوسف درويش المحامي والقيادات العمالية الثلاثة محمد يوسف ومحمود العسكري وطه سعد عثمان.. كانوا جميعا يرفضون تسميتهم «تنظيم سياسي» حتى أنهم أطلقوا على أنفسهم اسم «نحن» وبالتالي أطلق عليهم جميع المعتقلين اسم «تنظيم نحن»؟!.. والدار الثانية التي كنت أتردد عليها هي دار الأبحاث العلمية بشارع الدواوين التي وقف خلفها تنظيم «إسكرا» وكان يتردد على تلك الدار مجموعة أغلبها من أساتذة كلية العلوم مثل الدكتور عبد المعبود الجبيلي (وزير البحث العلمي لاحقا) وشهدي عطية الشافعي، وعبد الرحمن ناصر، وكيماوي يدعى رمسيس عوض. أيضا كنت أتردد في تلك السنوات على جمعية الشبان المسيحية لأستمع إلى محاضرات سلامة موسى القيمة والتي كان يدعو خلالها إلى الصناعة المستقلة، والديمقراطية، وجلاء الاستعمار.

في تلك الأعوام كانت مصر تعيش أجواء الحرب العالمية الثانية. وكنت قبل وصول والدي وأسرتي إلى القاهرة أسكن مع طلبة من الصعيد في الجيزة. وأزور جدي لوالدتي من وقت لآخر في حدائق القبة. وفي تلك الأيام كنا حين نسمع صفارات الإنذار معلنة عن غارة جوية، نهرول إلى بدروم في أسفل البيت قوي سقفه بعروق خشبية. فنظل هناك حتى تطلق صفارات الأمان معلنة انتهاء الغارة. وكنت في بعض الأحيان أغامر بالصعود بمفردي إلى بلكونة شقة جدي لأرى كشافات الضوء في السماء تلاحق طائرات الأعداء فإذا وجدتها احتشدت حولها كنجمة ساطعة من النور في الظلام.. وما ألبث أن أسمع هدير المدافع حول الطائرات.

كانت أحداث الحرب وتطوراتها تشغل حيزا كبيرا من اهتمام الناس وقتها، ومن اهتمام الندوات التي تعقد في دار الأبحاث العلمية، ودار لجنة نشر الثقافة الحديثة. وكانت المناقشات تشتعل حول واجب المصريين إزاء ما يجري من كر الإنجليز وفرهم أمام جيوش المحور النازي على حدودنا الغربية.

في تلك الأيام، كنت أصطحب الوالد أو الوالدة من بيتنا في شارع خزام بشبرا إلى بيت يقع بالقرب منا في شارع طوسون، حيث تسكن سيدة قريبتنا عجوز طيبة، لها قدرة مدهشة على الخوض في أحاديث السياسة. كنت أمضي إلى هناك، ثم أنصرف بسرعة إلى أن انتبهت ذات يوم إلى أن للعجوز حفيدة شابة جميلة ذات عينين لامعتين تشعان بالمودة تعيش معها، فأصبحت لا أفارق والدي أو والدتي أثناء الزيارة، وكلما هم أحدهما لإنهاء الزيارة أعمل على تأجيج الحديث بطرح سؤال على العجوز، أو معارضتها في فكرة، لا لشيء إلا لإطالة النظر إلى ثريا. ولاحظت في تلك الأثناء أنها وهي شابة حسناء إلا أنها كانت تنصت باهتمام لكل ما يقال، وتعمل تفكيرها فيه بالتأمل. أقول الحق: لقد سكنت قلبي منذ الأيام الأولى.

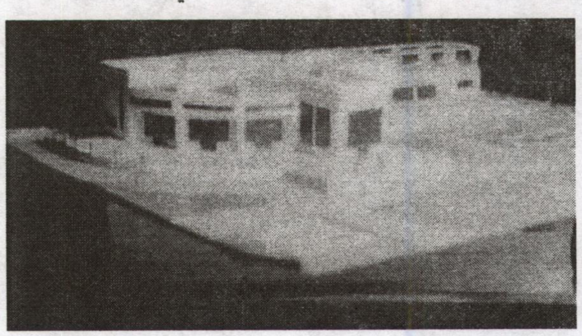
وكثيرا ما أفكر الآن، وأنا قد تجاوزت الثمانين من عمري، أن تلك المحبة لم تخمد، لكنها صارت الآن كاللهب الذي يشيع الدفء ولا يحرق. أيامها تشجعت، وقررت دعوتها حسب آداب ذلك العصر إلى محاضرة علمية، فلم يكن بوسعي أن أدعوها إلى السينما أو المسرح، أو كازينو. تلك كانت جرأة غير محمودة العواقب في أيامنا. هكذا اقترحت عليها أن نذهب لنستمع إلى محاضرة غاية في الأهمية للأستاذ سلامة موسى بجمعية الشبان المسيحية. هكذا كان الهدف: المحاضرة، وكان المكان وقورا. فيما بعد أخذت أصطحب ثريا إلى دار الأبحاث العلمية بالمبتديان، وكنا نخرج بعد كل ندوة فنتجول في شوارع القاهرة التي كانت هادئة حينذاك، أو نركب الترام عائدين من المبتديان إلى شبرا ونحن نستكمل النقاش الذي كان يدور هناك. ويوما بعد يوم، زادت صلتنا قوة، واكتشفنا أننا قريبان بالفكر والروح أكثر مما كنا نتصور. أذكر ذات يوم أنها أعطتني قصة لتوفيق الحكيم منشورة في جريدة أخبار اليوم باسم:» أريد هذا الرجل«، وشكرتها في البداية متصورا أنها مجرد قصة أعجبتها فقررت أن تشركني في الاستمتاع بها. هكذا قرأتها في بيتنا، ثم أعدت النظر في الصفحة، فانتبهت إلى العنوان «أريد هذا الرجل؟» وأخذت دقات قلبي تتسارع. أليست تلك مصارحة بالحب

الذي نحسه ونداريه طويلا؟. نعم. إنها مصارحة. ولم أنم ليلتها ربما من الفرحة، أو القلق، أو لشعوري العنيف بأهمية أن يكون الإنسان محبا ومحبوبا في هذا العالم. عند لقائنا في اليوم التالي أعدت الصحيفة لثريا وأنا أؤكد لها أنني قرأت القصة مرتين. مرة لأستمتع بها كعمل فني، والمرة الثانية لأستوعب الظروف التي أحاطت بالقصة. قالت متسائلة ببراءة: أية ظروف؟ قلت: الظروف الجميلة التي جمعتنا. وكان ذلك أقصى ما يمكن أن يقال للمحبوبة منذ ستين عاما! وأقصى ما تحلم المحبوبة بسماعه. لم تكن هناك جرأة أكثر من ذلك إلا في مسرحيات نجيب الريحاني في شارع عماد الدين، أو في أفلام ليلى مراد. وحتى في تلك الأعمال كانت ثمة عفة تحيط الحب وتجعله شعورا «طاهرا» ورفيعا. وكان معظم أبناء جيلي يعيشون في ظل قصائد شعراء الرومانسية، مثل الدكتور إبراهيم ناجي، ومحمود حسن إسماعيل، وغيرهما. لكن أولئك الذين كانوا يسعون لتغيير وجه الحياة في مصر من جيلنا كانوا يتشبثون بالجانب الثوري في تلك الرومانسية الذي جسده المطلع الشهير من قصيدة أبي القاسم الشابي:

"إذا الشعب يوما أراد الحياة..
فلابد أن يستجيب القدر،
ولابد لليل أن ينجلي..
ولابد للقيد أن ينكسر".

وفي مساء يوم 2 نوفمبر 1946، تم افتتاح مبنى سينما أوبرا. وكنت قد شاركت في تصميم المبنى وأشرفت على إنشائه خلال عملي في مكتب الدكتور سيد كريم أستاذ العمارة بكلية الهندسة، فدعوت ثريا لحضور حفل الافتتاح. وخلال العرض السينمائي، امتدت يدانا في مصافحة كانت أقرب إلى عهد بالحب. واعتبرت أنا وثريا بتلك المصافحة أننا قد ارتبطنا للأبد، حتى أنني قدمتها لصديقي وزميلي المهندس:كمال شهيب الذي كان يحضر حفل الافتتاح باعتبارها خطيبتي، فما كان منه إلا أن نقل الخبر لأسرتي مصادفة، فعاتبني أخي الأكبر فائق ولامني: «إزاي يا فوزي تروح تخطب من غير ما تقول لنا؟ ده كلام؟!».

التحقت بعد تخرجي مباشرة بالعمل في وزارة الأشغال بمصلحة «المباني الأميرية»، وكان راتبي 5 و12 جنيه فقط. ولكن كانت لي علاقة طيبة بالدكتور سيد كريم من الجامعة، وهو الذي درس في جامعة زيورخ، وعين معيدا». وكان د. سيد قد طلب منا في البكالوريوس عمل تصميم لناد للعمال، فعكفت عليه، وقمت بما ندر حدوثه حينذاك. فصنعت نموذجا خشبيا دقيقا للمشروع وأتقنت تلوينه حتى أصبح مثار إعجاب الجميع بمن فيهم د. سيد كريم. فاختارني بعد ذلك للعمل معه فترة مسائية بمرتب عشرة جنيهات شهريا وأنا في السنة الرابعة.

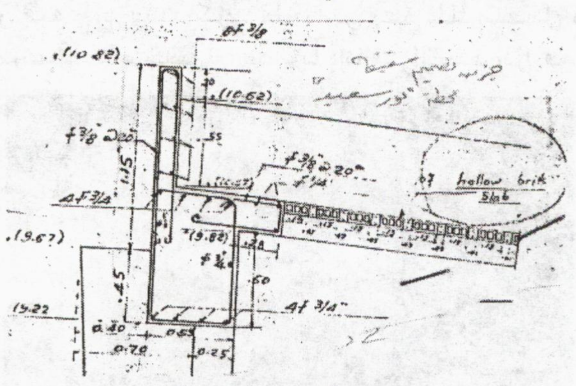


النموذج الخشبى لمبنى نادى العمال

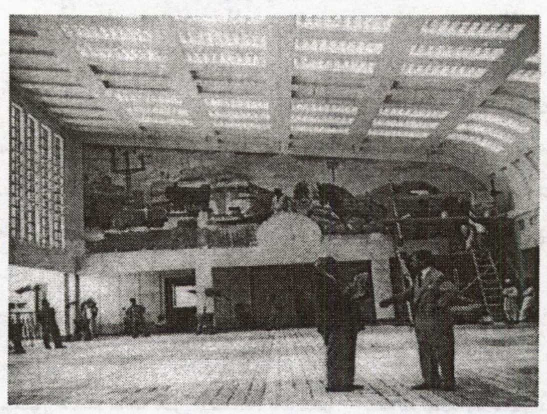
هكذا كنت أعمل في مكانين. وكنت إلى جوار عملي كمهندس أبذل وقتا وجهدا كبيرا في العمل السياسي، وفي أحد أيام صيف 1947 حضرت حفلة زفاف أحد الأصدقاء، ولما عدت منها إلى منزلي وكنت مازلت بملابس الحفل جاءني محمد هنيدي المسئول التنظيمي، وهو الأخ الأكبر للممثل الشهير أمين الهنيدي، وطلب مني النزول الآن فورا لتوزيع منشور سياسي جديد.

كانت طريقتنا حينذاك أن نصعد إلى أعلى طابق في بناية نختارها ونحن نحمل أكبر كمية من المنشورات، ثم نهبط طابقا بعد الآخر، ونلقي بالمنشور تحت باب كل شقة. وهكذا اخترنا عمارة في شارع مسرة بشبرا، ويشاء الحظ العاثر أن ألقي بمنشور تحت باب شقة فينفتح بابها فجأة عن أحد ضباط البوليس السياسي! فاجأني الضابط وأنا ألقي

بالمنشور تحت باب شقته بالضبط! ولم أكن أدري بالطبع أنها شقة الحكومة. واستغرب الضابط وضعي، فصرخ: حرامي... حرامي!. لم يكن بوسعي أن أوضح له أنني لست «حرامي» ولكني أخطر بكثير. وهكذا فضلت الجري والهرب، لكن الكثيرين من فاعلي الخير تطوعوا للإمساك بي، فقضيت ثلاثة أيام في حجز قسم روض الفرج. وكانت لزيارة ثريا لي بالقسم أجمل الأثر على نفسي..



جزء من تصميم محطة بورسعيد



فى زيارة لمحطة "بور سعيد" ومعي رئيسي المباشر المهندس ميخائيل موسى للاطمئنان على سلامة السقف بعد عدوان عام 1956 م

وفي صباح اليوم الرابع عرضت على النيابة العامة. ولم يكن المنشور يحتوي على شيء يجرمه القانون. فقد كنا نطالب بحق الشعب السوداني في تقرير مصيره. زارتني ثريا في الحجز. ثم أفرج عني بعد ذلك دون كفالة. لكن جريدة الأهرام - كتر الله خيرها - تفضلت فنشرت خبر القبض على في صفحتها الأولى بشكل لافت للنظر. وكتبت:» القبض على مهندس يوزع منشورات في شبرا». وقرأ المدير العام للمصلحة التي أعمل بها الخبر. وربط بين غيابي ثلاثة أيام دون عذر وبين الخبر. فلما عدت أمر بنقلي إلى سوهاج بالصعيد. ورفضت تنفيذ الأمر الإداري وفضلت أن أقدم استقالتي له.

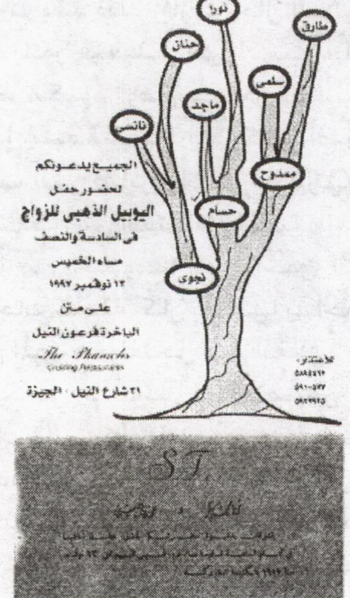
لم تكن ظروفي تسمح بالانتقال إلى سوهاج. ليس خشية الغربة فأنا أصلا صعيدي. لكني كنت المسئول أدبيا وماليا عن الأسرة بعد وفاة والدي. ولما عدت إلى د. سيد كريم بعد تلك الحادثة وعرضت عليه تفاصيل الواقعة. كان الرجل كريما معي وقال لي: لا تهتم. ستعمل معي الوقت كله. ورفع د. سيد راتبي عنده إلى خمسة وعشرين جنيها كاملة. وأشرفت في تلك الأثناء على إنشاء سينما أوبرا بميدان الأوبرا. وعمارة على كورنيش النيل بجوار فندق شبرد. سعيت مجددا للعمل في الحكومة وتمكنت بواسطة أحد أقربائي من العمل في تفتيش مباني السكك الحديدية. وتوصلت في حينه إلى طريقة حديثة لبناء المظلات على أرصفة المحطات بدمج الطوب الطفلي المفرغ خفيف الوزن مع الخرسانة المسلحة. مما يهبط بتكلفة البناء بمقدار الثلث. ونفذت ذلك في بناء محطة سكك حديد بورسعيد عام1950. مما دعا الرؤساء في العمل لترقيتي بشكل استثنائي مشيرين في خطاب الترقية إلى:»أنه قام بعمل يرقى إلى مستوى الاختراع». والغريب أنه عام 1970 زار مصر أحد الخبراء في الإنشاء من الخارج ليحدثنا عن هذا النوع من الطوب الذي توصلت إليه بنفسي منذ سنوات طوال باعتباره اكتشافا حديثا. فما كان مني إلا أن أثبت له أننا استخدمنا تلك الطريقة منذ عشرين عاما مضت فقام وحياني معترفا بسبقنا! وأعطاني بطاقته لمزيد من التعارف.

بعد حوالي العام من تعرفي إلى ثريا. أقمنا حفل زواجنا في 13 نوفمبر 1947. واخترنا هذا اليوم لأنه كان إجازة رسمية بمناسبة» عيد الجهاد»أيام الملك. وكانت ثريا قبل شهر من زواجنا قد صارحتني بأنها عضوة في تنظيم» حدتو» الشيوعي الذي أنتمي إليه.

تزوجنا ولكني كنت مازلت مقيما في شقتنا مع أسرتي: أخي فائق الذي كان يكبرني بعامين. وكان يعمل معاون محطة ويساهم رغم ضآلة راتبه (12جنيها) في مصروف البيت. وفهيم وهو يصغرني بعامين وكان مريضا بالقلب يعمل في شركة البلاستيك الأهلية. وكان في أحيان كثيرة يصعد إلى الشقة على ذراعي بواب العمارة. ثم أخي فتحي آخر العنقود وكان أصغر مني بخمس سنوات دخل كلية الهندسة حين كنت أنا على وشك الانتهاء منها وهو الآن أستاذ بجامعة «لافال» بكندا وأحد الخبراء العالميين في علوم الميتالورجيا...تزوجت من ثريا. فخصصت لي أسرتي مشكورة غرفة من غرف النوم الثلاث في الشقة. لكن من أين لي بالأثاث الجديد؟

حل الدكتور صموئيل أبادير خال ثريا هذه المشكلة حين تبرع بثمن غرفة النوم الجديدة وقيمته وقتها مائة جنيه مصري كاملة. وكان ذلك مبلغا لا يستهان به حينذاك.





واليوم زادت الشجرة نمواً فقد تزوجت نورا بالأستاذ المجري دافيد بروميثا وانجبا الطفلة آنا وتزوجت حنان بالمهندس رامي وسيم وتزوج ماجد من أيمن عادل.

وفي أول صباح لأول أيام زواجنا، سمعت طرقا على باب الشقة وحين فتحته وجدت مجموعة من رفاق ثريا في التنظيم يدخلون ليعقدوا اجتماعا حزبيا عندنا! سألت ثريا: كيف هذا؟. قالت لي: لقد أقنعوني في التنظيم بأن الاجتماع في يوم الصباحية لن يثير شبهات أو شكوك البوليس! وأن أفضل تأمين للاجتماع أن يتم في وقت كهذا تحديدا!. حاولت ثريا أن تثنيهم عن فكرتهم تلك بلا فائدة، فرضخت لهم، ورضخت بدوري وتركت البيت لأخلى المكان لاجتماع سياسي! المشكلة كانت في أمي التي حطت عليها الدهشة من ذلك الحشد الذي يجلس مع ثريا من دون حضور زوجها! وكان ذلك من أعجب الاجتماعات السياسية التي مرت في حياتي «يوم الصباحية».

نتيجة لحادثة توزيع المنشورات في شارع مسرة، واحتجازي في قسم روض الفرج، دخل اسمي قوائم الشيوعيين فلم يخرج منها إلى يومنا. وتكررت بعد ذلك زيارات رجال البوليس السياسي لمنزلي بشكل شبه دوري. يأتون فيعبثون في الكتب، ويأخذون منها ما يريدون وأنا أراقبهم بغيظ مكتوم، وهم يعبئون الكتب في جوالات أو سلال من الخوص، كأنها غنيمة الظافرين. وكنت أصر في كل مرة على تسجيل أسماء الكتب التي صادروها قبل مغادرتهم الشقة قائلا لنفسي: «من يدري ربما نتمكن من استعادتها يوما ما». لكن لم يحدث أبدا أنني استرددت كتابا من الحكومة! وفي إحدى القضايا بلغت قائمة الكتب ست صفحات كاملة، كان بعضها يهاجم الشيوعية، لكنهم أخذوه لمجرد أن رسم المطرقة والمنجل فوق الغلاف.

لكنني لا أنسى ليلة تفتيش تلاحقت فيها أنفاسي، وتسارعت ضربات قلبي: كان ذلك حين هبط الضباط على شقتنا فجأة، وكان عندي مسدس خبأته في أحد الأدراج. كان المسدس يخص ابن عمي ألفونس حنا عوض بحكم عمله في» الأورنس»التابع للجيش الإنجليزي، ولسبب ما تركه عندي خلال إحدى زياراته. وفوجئت بضابط البوليس السياسي

يفتح الدرج وهو ينظر إلي. واتسعت عيناي أرقب الكارثة. لكن الضابط لم يجد شيئا في الدرج، فأغلقه وهو يتطلع إلي مستغربا حين لاحظ ذهولي. أين اختفى المسدس؟.عندما غادر الضابط، التفت مندهشا إلى ثريا فقالت لي: كان ألفونس هنا منذ ساعات قليلة وأخذ المسدس وانصرف!

كنت أفكر في ثريا التي اقترنت بها منذ أقل من عام فقط، وأصبحت هديتي الكبيرة الأولى لها هي اعتقالي الطويل. هكذا وجدتني هي، ووجدت نفسي، محبوسا في مكان ما بالصحراء الشرقية هو «الهايكستب» على مسيرة خمسة عشر كيلومترا في طريق السويس، حيث تبعثرت منشآت حربية كثيرة يغلب عليها طابع السرعة في البناء، والركاكة في التصميم. أحاطت الأسلاك الشائكة بثلاثة مبانٍ تناثرت بينها على مسافات قريبة أبراج الحراسة المزودة بالكشافاتٍ الكهربائية التي تحيل الليل الدامس إلى نهار ساطع.. لكنه لا يثير البهجة. أحد هذه الأبنية الثلاثة تم إعداده ليكون معتقلا لنحو سبعين وطنيا، وهو مبنى إذا نظرت إليه من الخارج ستجده قائما على حوائط رقيقة لا تحجز من أشعة الشمس سوى ضوئها، ومغطى بسقف مائل من الصاج المموج مرفوع على جمالونات خشب من دون دهان لتظهر حقارة الهندسة والبناء. فإذا دخلت المبنى سترى عنبراً كبيراً طوله حوالي أربعين متراً، وعرضه ستة أمتار. وعلى جانبي العنبر تراصت أسَرة حديدية صغيرة، ضيقة، جعلت منظره أسوأ بكثير من عنابر الدرجة الثالثة في مستشفيات الحكومة.

وكانت دورة المياه والحمامات تقع في الحوش خارج العنبر، نخرج إليها لننقل منها الماء في جرادل نحملها إلى الداخل. هنا كان علينا أن نقبع وراء الأسوار ومصر تفور بالرغبة في التحرر والسعي لأجله كل يوم، بل كل لحظة. أقول لنفسي: لكن أليس وجودنا هنا جزءا من ضريبة تلك المساعي؟. لكن ما ذنب ثريا؟.

19 مايو 1948 «معتقل الهايكستب» الجمعة بعد الظهر:

عزيزتي ثريا.. انتقلنا إلى أعماق الصحراء على مسيرة ساعة من العمار إلى معسكر الهايكستب. لم يسمحوا لنا بالتجول بعد. الغذاء ولو أنه يكلف الدولة سبعة وثلاثين قرشا ونصف في اليوم الواحد -نقلا عن لسان القومندان- إلا أنه تافه وغير معتنى به. بدأنا في تعويد أنفسنا على الاستقرار هنا. ننام على ثلاثة ألواح خشب مرتفعة عن الأرض أربعين سم، ونستعمل معها بطانيتين، واحدة كمرتبة، والثانية بدل لحاف. وننام كل ثمانية معتقلين في عنابر ضيقة. حبيبتي أرسلت لك خطابا بالأمس وسأنتظر رده غدا. أكتبي كلما أمكنك باستفاضة وبانتظام. إلى اللقاء فوزي".

هذا أول الخطابات التي مازلت أحتفظ بها إلى الآن، من معتقل الهايكستب بعد اعتقالي في 14 مايو 1948، حيث ظللت به لمدة عامين تقريبا إلى أن أفرج عني في 21 فبراير1950. وكان معسكر» الهايكستب «يقع في صحراء السويس، وسمي هكذا باسم أول الجنود الإنجليز الذين قتلوا في حرب فلسطين. جاء اعتقالي مع الكثيرين في خضم الكفاح المصري الوطني ضد الاحتلال والاستغلال وكان «الجلاء والدستور» شعار الحركة الوطنية منذ ثورة 1919 إلى ثورة يوليو 1952، لكن بزوغ الوعي الماركسي في رحلة النضال من أجل الجلاء خاصة في الخمسينيات أضاء في وعي الشعب أن المعركة واحدة: لإجلاء الاستعمار والقضاء على الاستغلال الاقتصادي. وكانت تلك مرحلة قلقة، انتهت فيها الحرب العالمية الثانية بتغييرات هزت

العالم. وشجعت حركات التحرر الوطني في الدول المستعمرة. ولم تكن مصر استثناء من تلك الموجة العارمة.



الفصل الثاني
معتقل الهايكستب

في عام 1948 وبعد ستة أشهر من زواجنا وحفلات التفتيش الدورية تلاحقنا. فوجئنا ذات ليلة بالبوليس يهاجم الشقة ، ويفتش كل ركن فيها بهمجية، بين نظرات الدهشة في أعين أفراد الأسرة. ثم اقتادني إلى الحبس ووجدت نفسي في معتقل الهايكستب HUCKSETEP وهو اسم أول عسكري بريطاني يقتل بمصر في الحرب العالمية الثانية. وهو المعتقل الأول الذي أمضيت فيه الشهور الأولى بعد ثلاثة أو أربعة أيام بمبنى «بلوكات النظام» وهو بشارع صلاح سالم حاليا بجوار جامع الشرطة الآن ولم يكن يطل إلا على الصحاري والمقابر وفيه ارسلت أول رسالة لثريا أما الهايكستب فهو على مسيرة خمس عشر كيلو مترا وشهد ذلك العام تفجر الحركة الشيوعية إلى تنظيمات مختلفة. منها تنظيم العمالية الثورية الذي التحقت به، وكان من قادته: د. عبد المعبود الجبيلي، بينما انضمت ثريا إلى تنظيم آخر يسمى «منظمة شيوعية مصرية» واختصارا «م. ش. م» تزعمته أوديت حزان وسالامون سيدني.

ودأبت السيدة أوديت زعيمة التنظيم على إقناع ثريا بضرورة تجنيدي لنفس التنظيم، وأخيرا قالوا لها: هددي فوزي بأنك ستقطعين علاقتك به وتتركينه إذا لم يكن معك في تنظيم واحد! لكن ثريا رفضت بالطبع تلك المحاولات. وكتبت لي في خطاب لاحق: «رغم اختلافنا في المواقع التنظيمية إلا أننا سنكافح قوات الظلم معا». كنت سعيدا بذلك الخطاب وفخورا به، وفرحا لأن التشوهات السياسية لم تمس علاقتي بشقيقة روحي «ثريا».

24 مايو 1948 الهايكستب:

"عزيزتي ثريا.. مازلت أتوقع وصول خطاب منك بين لحظة وأخرى. عزيزتي سررت جدا لقرب موعد الزيارة. إن رؤياك ستهون على كل شيء، ولو أن الزوار حتى الآن يقفون خلف الأسلاك الشائكة على مبعدة خمسين مترا ويتخاطبون مع المعتقلين بصوت مرتفع يصل إلى حد الصراخ أحيانا. سمحوا لنا بتبادل الرسائل والرياضة ساعة يوميا في الحوش، ويقال إنه سُيسمح لنا بالصحف غدا وسيأتون لنا بمراتب وأسرة، والله أعلم. عزيزتي نمضي الوقت في تسلية كالغناء وحضور مسرحيات من الإنتاج الداخلي.. وكلها تسالي. وقد دخلت منذ أمس في مباراة كبرى للشطرنج مشترك فيها أكثر من ثلاثين شخصا من مختلف الجنسيات. أقول جنسيات مختلفة لأن معنا من: فرنسا وإنجلترا وإيطاليا واليونان وروسيا ويوغسلافيا وتشيكوسلوفاكيا والسودان وتونس! وكلهم من يهود مصر الذين تم اعتقالهم بعد حرب فلسطين، ليس لهم علاقة بالشيوعية، ويعيشون في عنبر خاص بهم. الورق كاد ينتهي، أرجو أن تحضري معك كمية من النوع الرخيص، ولا تنسوا الحبر والشبشب والصابون. على فكرة اليوم غسلت البيجاما وغيارا داخليا، وبعد الرياضة الساعة السادسة استحممت تحت الدش، وارتديت غسيل يدي! إلى اللقاء، وقبلاتي الحارة وسلامي للجميع. تشجعي، شدة وستزول حتما".

انتهيت من الخطاب وبعثت به بطريقتي الخاصة. ومضيت أتجول في الحوش. كان هناك بعض الزملاء ممن يغسلون ملابسهم في المغسل القائم في العراء، وهو عبارة عن بعض ألواح مائلة من الصاج أسفل صنابير مياه متراصة، لكنها ألواح كبيرة نسبيا تسمح لأربعة أفراد بالغسيل في وقت واحد. كان الزملاء يسخرون من بعضهم البعض أمام رغوة الصابون وأكوام الملابس التي يحاربون وساختها.

كان اليوم هو الموعد الأسبوعي للنوباتجية الخاصة بي. وكان علي أن أشارك في مسح أرضية العنبر. هكذا اجتمع أعضاء الفريق بعد الإفطار مسلحين بالمكانس والجرادل. وقمنا أولا بإخراج المراتب إلى الحوش لتشميسها، ووزعنا أنفسنا: قسم يتولى تحويل المياه من الحمامات إلى العنبر، وقسم آخر يتولى الكنس والمسح، وقسم ثالث ينزح الماء المتراكم إلى الخارج. وانتهت هذه العملية، وأحسست بنفسي مرهقا ومتسخا. فأخذت ملابسي وغسلتها كما كتبت لثريا، ثم أخذت حماما. وفرشت بطانية على الرمال في الحوش واستلقيت أعرض جسمي لأشعة الشمس أنا الآخر في انتظار الغداء. كان معي كتاب تافه رحت أقرأ فيه مرغما، ذلك أن إدارة المعتقل لم تكن تسمح بدخول كتب ذات قيمة من أي نوع. بعد وقت دخلت إلى العنبر، ووجدت الزملاء منهمكين في نقاش عالي الصوت حول أحوال مصر وحرب فلسطين وموقف الدول العربية والقادة العرب وإحالة القضية إلى مجلس الأمن. كانت الأكثرية منا ترفض مبدأ قيام دولة إسرائيل وترى في ذلك اغتصابا لحق الشعب الفلسطيني وأرضه.

كانت مشكلة فلسطين من أكثر المشكلات التي تشغل الرأي العام في مصر، وكانت مصر تشهد المظاهرات العنيفة تعبيرا عن إدراك المصريين للصلة الوثيقة بين ما يخطط له الاستعمار هناك، وما تعيشه مصر من مشكلات بسبب الاحتلال. كانت المسألة الفلسطينية من 1946 - 1948 أي حتى وقوع الحرب من أهم الأحداث بعد قضايا

الاستقلال والسودان والديمقراطية. وكانت حكومة النقراشي التي جاءت بحزبي السعديين والأحرار الدستوريين قد وصلت لطريق مسدود في مفاوضاتها مع الإنجليز للجلاء. فأعلن النقراشي في 21 مايو 1947 أنه سيتجه لمجلس الأمن لعرض قضية مصر عليه. خروجا بالمسألة المصرية من إطار العلاقات الثنائية بين مصر وبريطانيا. ولم تكن الحركة الوطنية ضد اللجوء لمجلس الأمن. لكنها كانت ضد الحكومة. ولا تظن أن لتلك الحكومة قدرة على عرض قضية مصر والدفاع عنها. وهاجم الشيوعيون وحزب الوفد حكومة النقراشي. وظلت المسألة المصرية معلقة في مجلس الأمن. وأدى الشعور بتدهور الوضع السياسي والاقتصادي إلى المزيد من الغضب الجماهيري. وفي هذين العامين توالت الإضرابات احتجاجا على تدهور مستوى المعيشة الحاد بدءا من إضراب عمال المحلة الذي أثار ضجة في مصر. ثم عمال الشركة الأهلية للغزل بالإسكندرية وأدى إضرابهم لإعلان حالة الطوارئ هناك. ثم وقع إضراب الممرضين في قصر العيني ومستشفى فؤاد. وإضراب المدرسين. وإضراب موظفي التلغراف. ورجال البوليس. كانت مصر حبلى بالغضب والاستياء والثورة بكل معنى الكلمة. كنا نناقش كل تلك القضايا. ونحاول أن نستبين وجه مصر القادم. لكن طبيعة الحياة كانت تفرض على الجميع أن يوقفوا كل نقاش مؤقتا إذا صاح أحدهم «الغداء يا زملاء»

وانتظرنا. نلملم ذيول المناقشات. ونترقب وصول الغداء. وفوجئنا بطعام لا يمكن لأي خبير غذائي أن يتكهن بنوعه من منظره. وعلاوة على ذلك كانت الكمية أقل من نصف المقرر لنا. واجتمعت الهيئة المسئولة عن العنبر لتقرر كيف يمكننا مواجهة ذلك التجويع. وقد سبق ذلك تعكير الجو باحتجاز السجائر لمدة. وتعطيل صرف الصابون. واتخذنا قرارنا. وانتظرنا غداء اليوم التالي. وحين وصلت سيارة متعهد الطعام. نهض الرفاق المكلفون. وهجموا عليها لا لتخريبها بل لمجرد تعطيلها. فانتزعنا من آلاتها المعدات الأهم التي لا يمكن لها أن تسير من غيرها. ثم أفرغنا الكاوتش من الهواء فبركت السيارة على الأرض

مثل جريح في حرب. وتزايد الهرج والمرج، وجاء الضابط النوباتجي تتبعه حاشيته، وحاولوا بداية جر السيارة، فتصدينا لهم ونحن نهتف «القومندان، نريد مقابلة القومندان». ولم تمض ساعات حتى وصل المتعهد شخصيا بعد أن تم استدعاؤه على حد قوله بالبرق من مدينة السويس! ورضخ اللعين لشروطنا وفي مقدمتها: صرف المتأخرات من السجائر والصابون، والسماح لاثنين من المعتقلين بالإشراف يوميا على عملية طهي الطعام في المطبخ وفحص الأطعمة، والطريقة التي توزع بها هذه المواد بانتظام. كانت معركة صغيرة، ابتهجنا بانتصارنا فيها. ووسط صيحات الفرح، أعدنا المعدات المختطفة إلى السيارة، وسمحنا لهم بنفخ الكاوتش، فنهضت السيارة تترنح إلى خارج المعتقل. أكلنا في هذا اليوم بشعور مستريح.

وخرج البعض منا إلى الحوش حاملا فضلات اللحوم يناوش بها طيور السماء في الحوش الرملي بين صخب وضحك الزملاء، بينما انكب البعض الآخر على الصحون ينظفها بدعكها بالرمال تحت أحواض الماء. وعدت أنا أستلقي على سريري وأنا أفكر في أن أحلام البشر ومعاركهم داخل المعتقل تتقلص وتصبح صغيرة جدا: كيف ينتزعون طعامهم، أو صابون الغسيل، أو حق التدخين. وربما يشعر المعتقل بمرارة من تلك المعارك الصغيرة، لكن عليه أن يخوضها إلى النهاية وأن يحاول الانتصار فيها، لأنها تصبح -مؤقتا- كل شيء، والانتصار أو الهزيمة فيها يغدو أمرا معنويا حاسما.

مساء ذلك اليوم، عقدت جلسة لسماع محاضرة كما هي العادة، أو فتح نقاش حول موضوع عام كثيرا ما يطول الجدل حوله إلى موعد العشاء. في المناقشات الدائرة كانت تظهر وإن على استحياء» الحلقية»وهي للأسف أحد أمراض الحركة اليسارية. كان كل تنظيم قد أعلن عن منبره واسمه بعد اعتقالنا ووضعنا معا في «العنبر الأول» عنبر الشيوعيين المصريين، ومن ثم شرع الصراع السياسي يطل برأسه في الجدل الدائر. وكنت حينذاك في تنظيم «النجم الأحمر»

الذي تبلور من منظمة» العمالية الثورية» التي انغمست في مهمة توحيد الشيوعيين إلى أن ألقي القبض على كوادرها وتفككت. وبرز تنظيم» النجم الأحمر» وكان من قياداته عدلي جرجس وكان عامل برادة بالسكك الحديدية، وعبد المنعم شتلة، والدكتور عبد المعبود الجبيلي الذي أصبح وزيرا للبحث العلمي فيما بعد. وكان معنا كذلك عاملان بارزان أحدهما هو عيد صالح من كبار مهندسي وزارة الزراعة، وكان من عمال النسيج في شركة الغزل بكفر الدوار وشهد مذبحة كفر الدوار، التي جرت عند إضراب العمال هناك بعد ثورة يوليو وانتهت بإعدام مصطفى خميس والبقري، وكان عيد صالح رحمه الله شخصا طيبا محبوبا من الجميع لصلابته وخلقه. وأذكر أنه كان يبدأ أي جملة من حديثه بقوله: «أنا كشيوعي مصري» حتى أننا أطلقنا عليه: «عيد كشيوعي!». أما العامل الثاني فهو صابر زايد المناضل النقابي، وكان من أسرة فقيرة من الإسكندرية، وله قصة نضال طويلة حافلة بالعطاء.

وكنا نعتبر -ربما لأننا ورثة تنظيم سابق هو» العمالية الثورية»- أن علينا أن نجد خطا سياسيا مشتركا بين كل التنظيمات من أجل وحدتها، وقد قادنا ذلك إلى حالة من الوسطية، كما كان اهتمامنا منصبا على الحركة العمالية، حتى أننا فيما بعد عندما صدر قانون الإصلاح الزراعي أيدنا أخذ الأرض من الإقطاع ولكن طالبنا بالمزارع الجماعية لإمكانية ميكنة الزراعة وحذرنا من تفتيت الملكية.

وحين بدأنا نعلن أسماء تنظيماتنا رفض الزملاء من «طليعة العمال» أن نطلق عليهم اسما محددا بدعوى الأمان الحزبي. وبعد ضغوط في النقاش، واستهجان الجميع لذلك الموقف، قالوا لنا: المهم أننا نحن معكم هنا. لذلك يمكنكم أن تطلقوا علينا «نحن»! وصرنا نتندر بتنظيم «نحن» على الرغم من أن بين أعضائه رفاقا من العمال احترمهم مثل طه سعد عثمان، يوسف المدرك، والمرحوم محمود العسكري، وغيرهم. وكان من بينهم عدد من المثقفين اليهود مثل يوسف درويش، وريمون

دويك وأحمد صادق الذي كان يسمى قبل إسلامه ايزيدو سلفادور وهنا عرفت أن عمال ذلك التنظيم تلقوا بشغف كأنهم يستمعون لأول مرة محاضرات القيت عليهم عن الصراع الطبقي ونظريات تطور المجتمع..

وقد سمعنا فيما بعد أنه كان في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية تنظيم باسم «نحن» ربما تفاديا لبطش النازية..

لكن إدارة المعتقل قد توصلت لتصنيف غريب للمعتقلين. فالشيوعيون نوعان: مصري، ويهودي، واليهود نوعان: شيوعي، ورأسمالي!. هكذا كان عنبرنا يضم الشيوعيين المصريين وحدهم. وكان هناك عنبر ثان يضم عددا من الشيوعيين المصريين لكن اليهود. وكان من أبرزهم شحاتة هارون المحامي، وعذرا هراري أستاذ الرياضيات بإحدى جامعات فرنسا فيما بعد، وهنري كورييل. وكان كورييل خلال النقاش معه يحاول إقناعي دائما بأهمية وجود إسرائيل في المنطقة لأنها حسب زعمه ستصبح واحة الديمقراطية! وسط البلاد العربية التي لا تعرف الديمقراطية. وكنت أرد عليه دائما برفضي الحازم لتلك الفكرة، وقولي إن تحول البلدان العربية إلى الديمقراطية لا يمكن أن يتم إلا بنضال شعوبها وليس بزرع كيان من الخارج. وكان كورييل ينتمي إلى أسرة إيطالية، وظل أبوه على جنسيته إيطاليا.

وكان يترأس شركة مساهمة هي في الأصل بنك أسسته أسرة موصيري مع أسرة كورييل عام 1880، وكان يملك قصرا في الزمالك، أما هنري فحصل على الجنسية المصرية عام 1939. ونتيجة لآراء كورييل تلك، ولأسباب أخرى كثيرة ظهرت في الحركة الشيوعية دعوة لتمصير الحركة، وتخليصها من تأثير الأجانب خاصة اليهود. خاصة أن اليهود عامة كانوا يحاولون السيطرة على الرأي العام المصري من خلال وسائل الإعلام، حتى وصلت أعداد الجرائد والمجلات التي أصدروها ما بين عامي 1900-1950 إلى أكثر من أربعة وخمسين مطبوعة.

أما العنبر الثالث فكان مقصورا على يهود من أغنياء مصر ألقي القبض عليهم تحوطا قبل حرب 48. وكان لليهود نفوذ قوي في الاقتصاد المصري، ووصل بعضهم إلى كرسي الوزارة مثل يوسف قطاوي باشا الذي ترأس الطائفة اليهودية في مصر لفترة طويلة. وأذكر من بين المعتقلين في ذلك العنبر أحد أقرباء شيكوريل صاحب محلات شيكوريل المعروفة حينذاك، وأوفاديا سالم أحد كبار التجار. وقد راجت بين المعتقلين أنباء صلة الصداقة التي نشأت بين قائد المعتقل الضابط» أبو ستيت» وبين أوفاديا. وكان أبو ستيت صعيديا، يتمتع بمنطق نفعي عجيب. وكثيرا ما كان ينتقد الحكومة "الخايبة" لأنها تستضيفنا (كان الحبس في نظره استضافة كريمة!) وتطعمنا عيش فينو أبيض ولبن نستله! وكان حين ينطق» نستله» بلهجته الصعيدية يضغط على التاء ويمطها كأنه يستكثره علينا، نحن الذين «لاحول لنا ولا قوة» على حد قوله.

26 مايو 1948

عزيزي فوزي..

أبعث إليك بقبلات ملؤها الشوق والحنان لرؤياك. إن شاء الله تكون بصحة جيدة. حبيبي وصلنا خطابك ولا تتصور مدى فرحتي عند قراءتي له. لا يكون عندك مشغولية من ناحية الفلوس، فإنها مستورة والحمد لله. أرسلت لك من مدة الشبشب والليفة وغيارات داخلية وبنطلون شورت. أرسلت إليك هذه المرة الأشياء وفي داخلهم خطاب، إن شاء الله يكون وصلك. مرسل لك أيضا لعبة البوكر للتسلية، ودستة أمواس للحلاقة. وأنا بالمناسبة عملت النظارة وهي جميلة جدا ومريحة لعيني. والآن أصبحت ست شيك. نحن جميعا بصحة جيدة فلا يكون عندك أدنى مشغولية، فقط غيابك عنا، وغيابنا عنك، هو الذي يعكر صفو حياتنا. لكنها

شدة ستزول حتما مع بعض الصبر. نحن الآن نعمل كل جهدنا للحصول على تصريح لزيارتك لأنك لا تتصور مقدار شوقي إليك. ويقال إنهم سيصرحون لنا قريبا. حبيبي فوزي. عشمي أننا سنلتقي في أقرب فرصة. هذا كل ما أتمناه. وكل ما أفكر فيه طول الوقت. الله يقرب أيام اللقاء ويزيل هذه الغمة وهذا الظلم. حتما سيزول كل هذا. وختاما قبلاتي لك وإلى اللقاء والسلام. زوجتك ثريا».

وكان أبو ستيت يتبسط مع أوفاديا. أو كان أوفاديا هو الذي يتبسط مع أبو ستيت. فيلعبان الورق. ويتبادلان النكت. وخلال ذلك كان أبو ستيت إذا كسب الجولة في اللعب صرح لأوفاديا بالخروج من المعتقل وزيارة منزله وأهله ثم العودة بالطبع تحت الحراسة ذهابا وإيابا. لكن نظير» المعلوم» إياه. ألم يقل أحدهم إن المال يشتري الحرية؟ على الأقل اشترى المال أمامنا ساعات قليلة من الحرية لا بأس بها. كنا نحلم ولو بلحظات منها في أحضان عائلاتنا وفي بيوتنا. وكان تعداد اليهود في مصر عام 1947 نحو ستة وستين ألفا . لكن وجودهم في المجالات المالية والبنكية كان بارزا.

امتدت المساجلات السياسية داخل عنبرنا في ذلك اليوم حتى ساعة متأخرة من الليل. ووجدتني مضطرا لتناول عشائي في هدوء على شكل سندويتشات لكي لا أقطع حرارة النقاش. ثم خرجت إلى الحوش الرملي لأتمشى قليلا. وهناك أخذت استمتع بقراءة خطاب وصلني أخيرا من ثريا ولاحظت عددا من الزملاء يفترشون بطانية على الرمل. بجواري فجلست معهم نتجاذب أطراف الحديث. في تلك اللحظة اكتشفت أن بوسع الإنسان أن يرى علامات الجمال حتى في أتعس الظروف. فقد كنت أتطلع حولي. وأرى في تلك الليلة المقمرة كيف تزهو الرمال بوجودها في ضوء القمر الفضي. وتناهى إلي من بعيد هدير آلات محطة كهرباء غير بعيدة كأنه اصطخاب موج.

فتذكرت جو شاطئ البحر وموجه: هذا أيضا بحر من الرمال. ونسمة هواء. ومدى مفتوح. كانت الساعة قد جاوزت الثانية عشرة وأخذ النعاس يغالبنا. وبدأنا ننسحب إلى العنبر. وفي تلك اللحظة دوت فجأة صفارات الإنذار! وأطفأت إدارة المعتقل جميع الأنوار. ودوت فرقعة مدافع جوفاء لصد الطائرات الإسرائيلية. دون أن يدري أحد إن كانت هناك غارة بالفعل أم أنها غارة موهومة. وسألت نفسي: كيف تحارب الأوطان من أجل حريتها وأبناؤها الوطنيون داخل السجون؟ هل يمكن لهذه الحرب أن تنتهي بانتصارنا؟. أيقظت الغارة الزملاء داخل العنبر. ودخلنا إلى العنبر لننام. فإذا بنا ننتقل فجأة من الحرب والمدافع إلى قصة أخرى تماما. فقد اكتشف الزميل مسئول الطعام الذي أيقظته الغارة اختفاء برطمان مربي كامل. أدركنا جميعا أن الرغبة في تناول شيء حلو. أو الجوع قد استولى على أحد الزملاء فمد يده على برطمان مربي. الزميل المسئول يصيح: لن أهدأ إلا إذا اعترف الفاعل. نقول له: طيب ننام الآن وغدا يحلها ألف حلال. لكنه يصر: مستحيل. وتمكن بعضنا في النهاية من إقناعه بأن الصباح رباح. فتمدد في مكانه. وهو يتوعد السارق المجهول بأنه سيحرمه من نصيبه في العنب إذا عرف من هو!

هاهي ثريا تنقل لي أخبار الخارج. يالها من سعادة أن أرى خط ثريا. فأتخيلها وهي تكتب الخطاب وأكاد أرى وجهها أمامي. الحمد لله أن أسرتي بخير. لكن انشغال أمي يقلقني فهي سيدة عجوز. كما يثير الوضع العام مخاوفي. كانت مصر في أواخر عام 47 مشغولة كلها بالمسألة الفلسطينية بعد أن أعلنت بريطانيا نيتها إنهاء الانتداب. ثم صدر قرار التقسيم من الجمعية العمومية للأمم المتحدة في 29 نوفمبر 1947.

وعمت مصر إضرابات ومظاهرات لتأييد الحق الفلسطيني. وتشكلت كتائب فدائية للدفاع عنها. وأخيرا تقرر رسميا إعلان قيام دولة إسرائيل في 15 مايو 1948. اليوم الذي اعتقلت فيه. وأمر الملك فاروق وزير دفاعه محمد حيدر بتحريك الجيش المصري واجتياز الحدود.

وهكذا دخلت مصر الحرب التي تصف لي ثريا أخبار الغارات منها وهياج الشارع المصري على»الصهاينة»، وكان الشيوعيون واضحين تماما في وقوفهم ضد المشروع الصهيوني، لكن مواقفهم اختلفت منذ قرار التقسيم، فبينما رفضه بعض التنظيمات ومنها «النجم الأحمر» وهو التنظيم الذي تكون خارج حدتو وانضممت إليه، فقد قبل به تنظيم "حدتو" على أساس أن الألفة والثقة المتبادلة بين الجماهير وإن اختلفت دياناتها هي السبيل لطرد الاستعمار العدو المشترك للشعبين. كانت هذه القضايا الملتهبة وغيرها موضع نقاش مستمر داخل العنبر في هايكستب. كنا نبدأ يومنا هناك بالاستيقاظ في الثامنة صباحا. أحاول أنا أن أنام ولو لنصف ساعة أخرى، لكن الزملاء يجذبون أطراف البطانية.أنهض متثاقلا تحت ضغط الأصوات المتضاربة والصياح: «اللبن وصل».. «اجمعوا الكبايات يا زملاء».. «فين المندوبين؟».أبحث عن الكوب الخاص بي، فأجده متسخا بآثار قهوة. أصيح في العنبر: من الملعون الذي استخدم الكوب دون استئذان؟ ثم تكاسل حتى عن غسله؟.

وأعرف مقدما أن أحدا لن يرد. أتجه نحو دورة المياه حاملا معي كل مستلزمات الاغتسال: معجون الأسنان والفرشاة والصابونة في جيب، وورق تواليت في جيب آخر. وأخرج لأقطع نحو خمسين مترا في الهواء نحو دورة المياه. أقف أمام الدورة في طابور طويل. أفكر في خطاب ثريا وفي أحوالها. هل تشعر بالوحدة؟ هل تشتاق إلي قدر اشتياقي إليها؟. أخيرا أدخل إلى الدورة التي تتألف من صالتين لا تزيد مساحة كل منهما على ثلاثين مترا مربعا، ويفصل بين الصالتين باب صغير. إحدى الصالتين حمام.

تراصت لصق حوائطها صنابير الدش، الصالة الثانية اتسعت لكل الاختصاصات فهي تواليت، في وسطها صفان من المباول، وفي جانبيها مجموعتان من المراحيض الأفرنجية بدون أغطية، ولا ساتر ولا حاجز. وهناك أيضا أحواض صاج لغسيل الملابس. وهكذا كانت دورة المياه تشبه مناهل الخيل في المواقف العامة. دخلت لأغتسل، ووجدت اثنين من الزملاء جالسين على مرحاضين متقاربين، يناقشان أكثر القضايا

السياسية تعقدا. كالخلافات بين تيتو والكومنغوم مثلا؟!. غسلت الكوب واغتسلت، وخرجت لأقف في طابور اللبن. ومن بعده إلى مجموعة الرياضة البدنية. ثم إلى جولتي الحرة بمحاذاة الأسلاك الشائكة - الجولة بمحاذاة الأسلاك من الداخل طبعا. وكعادة كل السجناء والمحبوسين، خطر لي أن أحسب بخطوتي طول المسافة الممتدة في جولتي، وبعبارة أخرى طول مسافة الحرية المسموح لي بها، ولم تكن تزيد على نصف فدان.

كان عدم التصريح لعائلاتنا بزيارتنا أمرا غير مفهوم، ولا مبرر له إلا إشاعة النكد، والتنكيل بالمعتقلين معنويا. وقد أرقت هذه المسألة الكثيرين من المعتقلين لأن زوجاتنا وأولادنا في الخارج يتصورون أننا قد متنا أو دفنا أحياء هنا. كانت الخطابات تهون من تلك الصورة، ولكن القلق يظل باقيا إلى أن ترانا عائلاتنا فتطمئن علينا. وقد دفعني حماس الشباب بعد خمسة أيام فقط من اعتقالي إلى التفكير في الإضراب عن الطعام مطالبا بحق أسرتي في زيارتي. وطلبت من ثريا حينذاك أن ترسل لي كمية من الليمون. ولم يكن هناك إضراب عن الطعام بدون الليمون الذي كنا نتناوله مع الماء كمطهر للمعدة. هكذا كان حماسي، ولم يكن السبب في تفكيري هو رغبتي في الحصول على حق الزيارة فقط، فقد أردنا أيضا أن ننتزع من الداخلية صرف كفالة لكل أسرة من أسر المعتقلين. وكان الأهم في كل ذلك هو مطلب الإفراج بطبيعة الحال. لكن فكرة الإضراب تأجلت إلى أن أصبحت الغالبية متأهبة لها، ومقتنعة بها.

في أوائل يونيو بدأنا إضرابا عن الطعام استمر ثلاثة عشر يوما عانينا خلالها الكثير. وقررت خلال الإضراب ألا أحلق ذقني، فطالت، وأصبح شكلي كما قالت لي ثريا فيما بعد «شبه قساوسة الأقباط». وأسرعت ثريا في أول طرد يصلنا عبر المباحث بإرسال مكنة حلاقة مازلت أحتفظ بها إلى يومي هذا للذكرى. ربما تكون هذه المكنة هي الشيء الوحيد

الباقي من ذلك الإضراب. فقد اختفى معتقل الهايكستب ، وغادر دنيانا رفاق كثيرون ممن شاركوا في الإضراب. ولم يعد أحد يتذكر تلك الأيام. أما مكنة الحلاقة الصغيرة هذه فإنها قابعة تنظر إلى أحيانا، وأنظر إليها، ونتذكر معا ما حدث. على أية حال نجح الإضراب في إرغام الحكومة على السماح لأهلنا بزيارتنا، وصرف كفالة لأسرة كل معتقل عبارة عن خمسة جنيهات. أما الإفراج فكنا نعلم مسبقا أنه موضوع سياسي لن يحل ببساطة. وفي 22 يونيو زارتني ثريا لأول مرة بعد أربعين يوما من الاعتقال. وكتبت تقول:

"حبيبي فوزي.. لا أستطيع أن أصف لك شعوري عندما رأيتك لأول مرة بعد أربعين يوما من غيابك. نعم إنها مدة طويلة جدا هذه المدة، مرت علينا وكأنها أربعون سنة كل يوم فيها نترقب زيارتك أو الإفراج عنك. ولكني صعقت عندما رأيتك بهذا المنظر الذي ما كنت أنتظر أن أراه. وإن شاء الله تجاب بقية مطالبكم وينتهي الإضراب. وقد أرسلت إلى الحاكم العسكري بشأن إضرابكم عن الطعام، ومرسل لك كمية من الليمون اليوم. أرجوك يا فوزي حافظ على صحتك، وتذكر دائما أنه توجد بجانبك ثريا التي تحبك وتخشى على صحتك وتتلظى الآن في نار الوحدة. أرجو أن يصلك خطابي بسرعة وأن تطمئني: هل يوجد لديكم دكتور أم لا؟.من جهة أخبارنا فهي على ما يرام، فقط والدتك من وقت ما سمعت بالإضراب وهي تبكي وتنوح طول الوقت. لكننا نصبر قلبها. ختاما لك كل محبتي ثريا".

وكتبت إليها: "حبيبتي.. أطمئنك على صحتي أولا. وقد انتهى الإضراب الآن وكنت في اليوم الثالث عشر، ومع ذلك كنت أسير وحدي بدون سند لمئات الأمتار،

وكل ما كنتم تسمعونه غير صحيح. فلم يمت أحد منا، وحتى من كان في يومه السابع عشر كان يسير ويناقش كيف ننهي الإضراب. حبيبتي.. سأكلفك في الوقت المناسب بعمل صينية المكرونة إياها فانتظري الموعد، والكمية، وربما التكلفة أيضا، لأنها ستكون صينية لثمانية عشر شخصا. بالمناسبة لم أشعر بالهبوط ولا مرة أثناء الإضراب وكان نبضي باستمرار أعلى من سبعين. والآن سيكون علينا أن نأكل وفق نظام معين بعد هذا الجوع الطويل. كوني باستمرار مطمئنة على، أقول لك ذلك لأنه بلغني بالأمس أنك بكيت في المحافظة. لا أقول إننا لا نخطئ إطلاقا، كلا ولكننا كما نلاقي النجاح يجب أن نتعلم كيف نلاقي الفشل. وعلى العموم المعركة مستمرة، فإذا تحطم أحد أسلحتنا فسنشهر سلاحا آخر. أرجوك ترسلي لي زجاجة حبر وملح فواكه، ولك قبلاتي القوية الحارة لك. تشجعي، واطمئني، اطمئني، اطمئني. فوزي».

أنهينا الإضراب، وأقام لنا باقي المعتقلين حفلة ساهرة عظيمة، أشادوا فيها بصبرنا وتحملنا وتبادلنا فيها النكات والضحكات من أعماق قلوبنا. وفي صباح اليوم التالي نقلنا نحن المصريين إلى معتقل آخر في نفس المنطقة لفك أزمة السكن. ولأول مرة منذ الاعتقال صرت أنام على سرير له مرتبة ووسادة.

الآن حين أفكر في تلك الأيام أقول لنفسي: وما قيمة إضراب عن الطعام استمر عدة أيام عام 1948؟ ما قيمته ليستحق التسجيل؟. في تقديري أن كل لحظة يحياها الإنسان بكرامة وعزة وينتزع فيها حقه هي لحظة جديرة بالتسجيل. ألسنا نحيا وكل أملنا أن تكون للجميع حياة

ممتلئة بروح الكبرياء؟ فلم لا تستحق كل تلك اللحظات أن تسجل؟ على أية حال ثمة من يعيش معي من ذلك العالم: مكنة حلاقة صغيرة مازالت تعمل، ومازلت تحمل ذرات من رمال تلك الصحراء.

10يوليو 1948

حبيبي فوزي..

بعد هذه المدة الطويلة أعود فأقبلك بكل حنان ومحبة راجية أن تكون في غاية الصحة وتمام السرور. أكتب إليك وأنا في اشتياق لك لم أقدر على وصفه، ولا يستطيع أي قلم ولا أي كاتب أن يصفه، ولكني أستثني حبيبي لأنه يكن لي مثل ما أكنه لك من شوق. هل أنت جزع؟ هل أنت مرهق؟ هذه الأسئلة لا تفارق فكري لحظة واحدة وما من مجيب. أود ألا تعلق أملا على أخبار السعي في الإفراج، لأني أراها غير جدية. عندما ذهبت إلى العوايسي بك، أخبرني أنه آسف لعدم إمكانه عمل أي شيء الآن، لأنه عمل كل ما في جهده، والحكاية مسألة حظ على حد تعبيره. في النهاية تركته إلى غير رجعة، ومن ضمن كلامه لي إنهم لو كانوا هادئين لكان النقراشي باشا فكر في الإفراج عنهم واحدا فواحدا. أما عن نقابة المهندسين فقد ذهبت إليها وقابلت سكرتيرها فقال لي هو الآخر: "ماذا أقول للحكومة؟ أنا لا أستطيع أن أتدخل في شئونها". وقال إن النقيب لا يقدر على عمل شيء هو الآخر خصوصا لأنه وفدي. أخيرا يوجد شخص معرفة

أحد أبناء عمك وهو يقول إنه يستطيع أن يخرجك، ولكن برشوة قيمتها خمسين جنيها قابلة للنقص بعد الوساطة، فقلت له إذا كان يقبل أن يأخذ المبلغ بعد الإفراج عنك فأنا مستعدة لدفعه، ولكني لم أتلق منه أي رد للآن. وصلتني أخبار عن حادثتكم الأخيرة، وكلها مشوهة غالبا. ولكن يوم الأحد الماضي وصلتني ساعتك وهي الآن عند الساعاتي لتصليحها. ختاما أنهي خطابي الطويل هذا بمحبتي. ثريا».

أخبار الحادثة الأخيرة التي تتكلم عنها ثريا وصلتنا نحن أنفسنا فجأة. فقد استيقظنا ذات صباح كما في أي يوم اعتيادي. وفوجئنا، وفوجئ الحراس معنا باختفاء الزميل أسعد حليم. لقد فر أسعد سيرا على قدميه عبر الصحراء. يا إلهي! كيف لم تخطر لنا هذه الفكرة؟ لكن كيف هو؟ وأين هو؟ هل نجا؟ هل وصل سالما إلى القاهرة؟. كنت أفكر في هذه الأسئلة. أما قائد المعتقل فقد جن جنونه فقد كان ذلك الهروب صفعة له. ولم يجد القائد وسيلة للانتقام منا سوى تعمد مضايقة الزوار خلال الزيارات إلى درجة أن جنوده هاجموا زوجة زميل لنا كانت تزوره فسقطت على الأرض. واعتقدنا أنه قد أغشي عليها فأدخلناها إلى العنبر واحتفظنا بالجندي المرافق لها أسيرا لدينا! وسارعنا بطلب حضور النيابة. ولكن بدلا من النيابة شنت إدارة المعتقل هجوما وحشيا علينا بمئات العسكر مزودين بالعصي الثقيلة والشوم، كما أنهم أطلقوا الرصاص في الهواء لإرهابنا. ولم يدعو أحدا منا إلا وأسالوا دمه. ليلتها بتنا خارج العنبر على الرمل. وكتبت بعد ذلك إلى ثريا:

«المعركة دبرتها لنا الإدارة بحوالي ثلاثمائة عسكري مسلحين بالبنادق والمدافع الرشاشة والعصي الغليظة، هاجمونا مقتحمين علينا

مبنى العنبر. فحطموا الأبواب والشبابيك واستمرت المعركة زهاء الساعة، وانجلت عن إصابة سبعين معتقلا تفاوتت خطورة جراحهم، وطلبنا نقل 16منهم إلى المستشفى فرفض البوليس السياسي وتركنا 24ساعة في العراء دون علاج، ولم يسمحوا لنا بدخول العنبر إلا بعد أن سحبوا من العنبر الأسرة، وسلبونا كل ما هو نفيس من أقلام وساعات وحبر ونظارات وخلافه. ومن يومها صرنا ننام على الأرض، كما استبدلت الإدارة بالخبز الفينو خبز بلدي، ومنعت اللبن والصابون والسجائر. ولكني أؤكد لك أن الحالة المعنوية عالية جدا».

19أغسطس 1948 - الخميس بعد الظهر

حبيبتي ثريا.

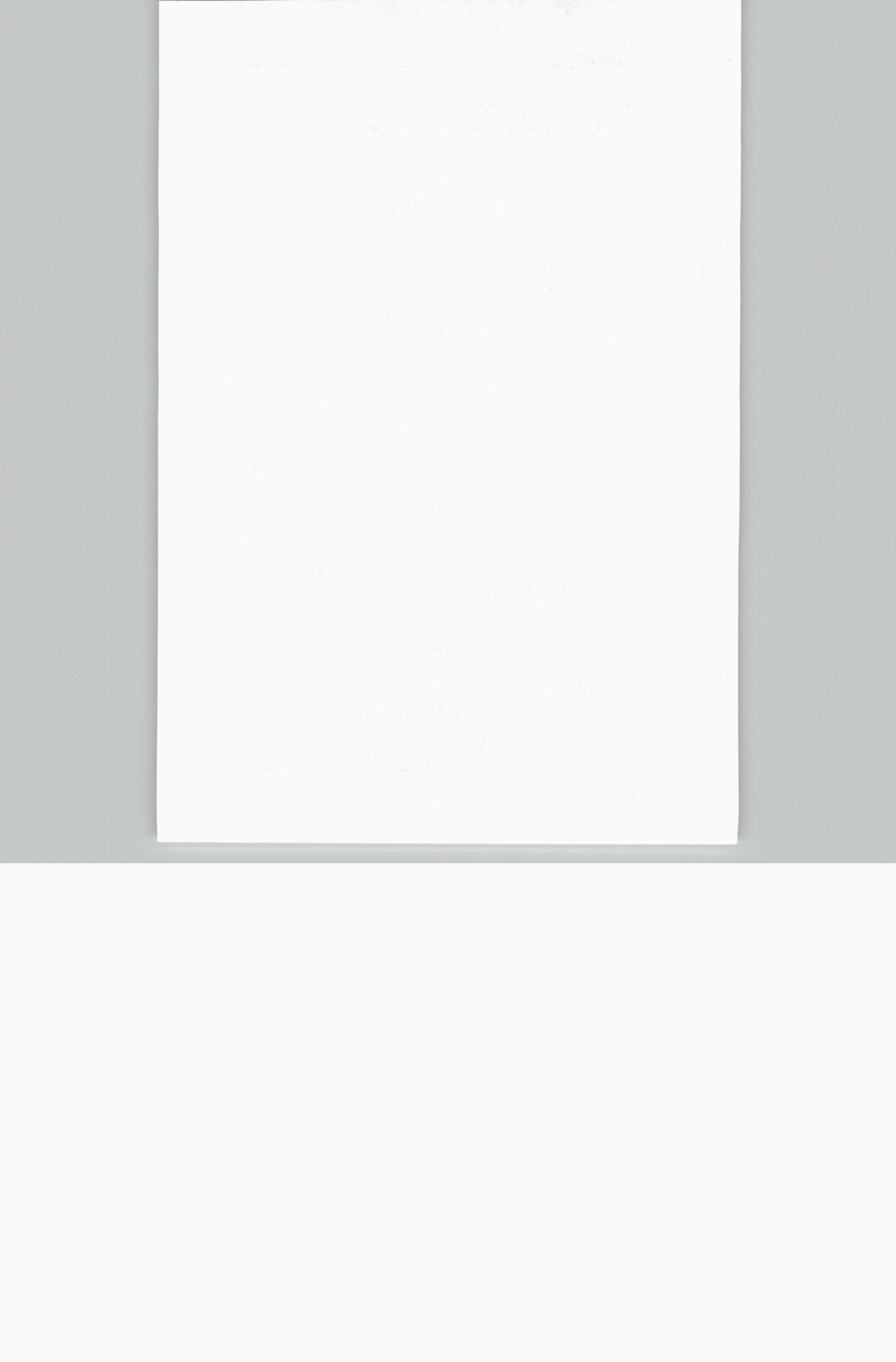
أطبع على وجناتك قبلات المشتاق راجيا أن تصلك وأنت في أتم صحة وعافية. حبيبتي وصلني الطردان في موعدهما، وأجهزنا على كل ما جاء فيهما من الأطعمة اللذيذة المرسلة من يديك.أعرفك أنه قد زارنا بالأمس مدير الأمن العام، ووكيله، ورئيس القلم السياسي إمام بك، وتباحثوا مع مندوبين عنا حوالي الساعة في موضوع الإفراج. وقد أفرج اليوم بالفعل عن ثلاثة منهم جمال غالي، واثنان آخران، ويقال إنه في بحر أسبوع سيتم الإفراج عن ثلاثين من المصريين فيمكنك الاتصال بالعوايسي بك الآن في هذا الخصوص. ويمكنك أيضا أن تقابلي نقيب المهندسين لهذا الغرض، لأن مبرر الاعتقال قد زال بموافقة الحكومة على قرار مجلس الأمن في 18 يوليو 1948 الخاص بوقف القتال في فلسطين حتى تحل مشكلة فلسطين سلميا.

حبيبتي.. أنا منتظر لقاءك بفارغ الصبر فإذا لم يكن هناك إفراج فعلى الأقل آمل أن أراك في زيارة أوائل الأسبوع القادم. وأرجوك إرسال طرد يحتوي على ورق تواليت، وصابون، وكتب راشد البراوي، والرافعي، ودستة أقلام رصاص، وإذا أمكن محمصة بن ثانية لأن عمر الأولى انتهى مأسوف عليها من الجميع. ختاما يا حبيبتي لك قبلاتي وللجميع سلامي وأشواقي، وإلى اللقاء.

بالمناسبة: آخر طابع بريد هو هذا الذي أستعمله الآن. فأرجوك إمدادي بغيره. أضمك إلى صدري ولك كل محبتي. فوزي».

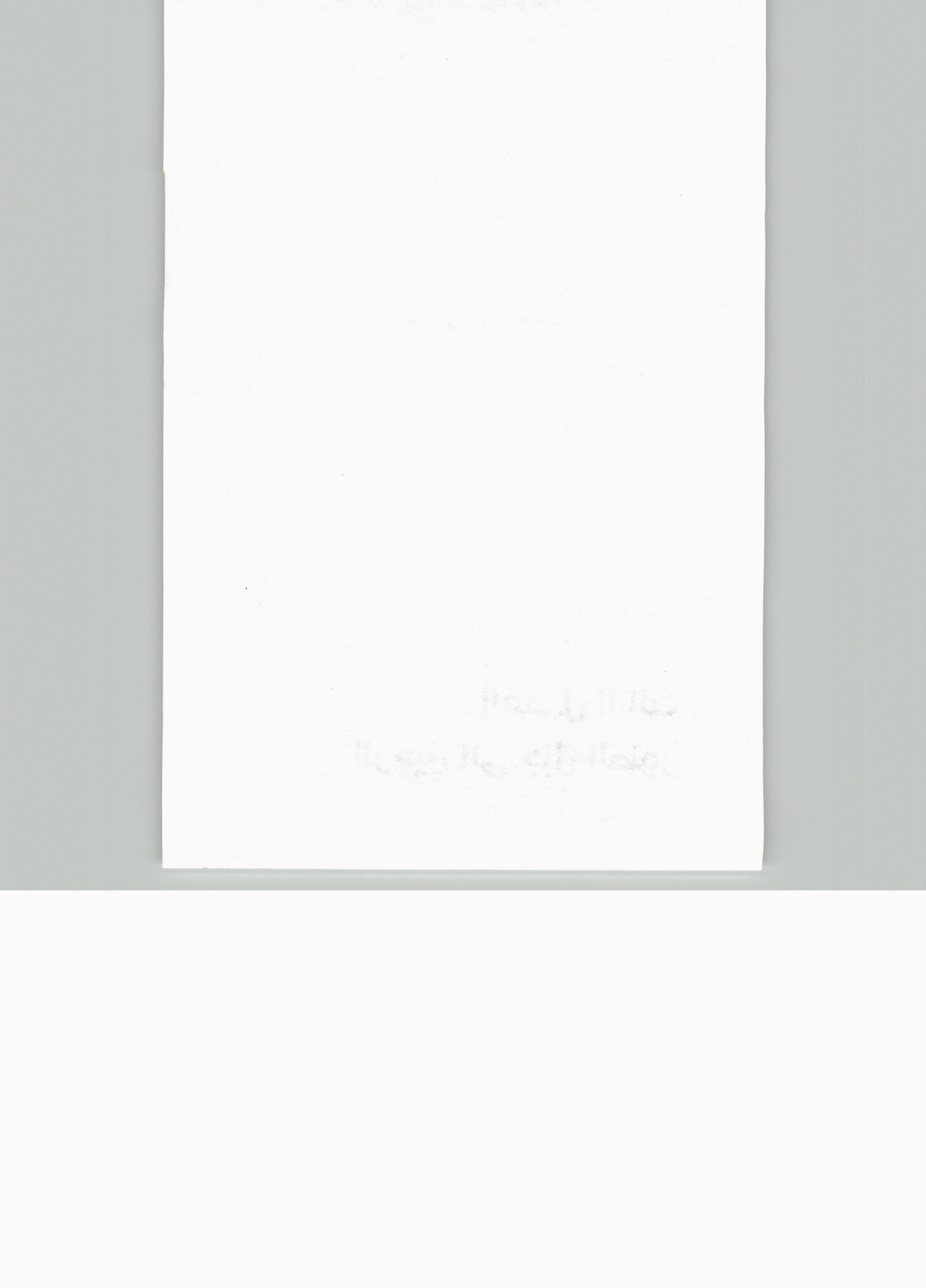
استمرت حياتنا داخل المعتقل دون جديد. لكن حرب 48 كانت قد انتهت، ولم يستطع الملك فاروق كما أراد أن يعثر في الحرب على انتصار يعزز وضعه الداخلي الذي هزته الإضرابات الشعبية وخاصة إضراب رجال البوليس. وفور موافقة البرلمان على إعلان الحرب استغلت الحكومة تلك الفرصة لتعلن في 13 مايو القانون الذي يسمح لها بفرض الأحكام العرفية، وشن حملات اعتقال واسعة موجهة إلى صدر الحركة الوطنية، وضرب الحريات الشعبية، وفرض الرقابة على الصحف. أما الحماس الشعبي الكبير الذي أحاط بالحرب، فإن أنباء الهزيمة سرعان ما أخمدته وهي تتسرب إلى القاهرة شيئا فشيئا. ووافقت الحكومة على قرار مجلس الأمن الخاص بوقف القتال في فلسطين. كان مناخ الهزيمة يخيم على مصر، وبدا واضحا أن النظام الملكي أصبح عاجزا ومرشحا لدور وحيد هو الرحيل. وبالرغم من ذلك ظلت المعتقلات مفتوحة، تلتهم حياة المئات من المثقفين والوطنيين المخلصين. ولم يكن لدينا ما نفعله سوى الأحاديث، وحاولت بعد أن طلبت من ثريا قاموس إنجليزي - عربي

أن أشغل نفسي بتحسين لغتي الإنجليزية في الأوقات التي يعم فيها الهدوء، إلى أن تقرر ذات يوم نقلنا أو ترحيلنا إلى مكان آخر أبعد.



الفصل الثالث

الرحيل إلى جبل الطور



كان ذلك في أوائل فبراير 1949. وكانت موجة من العمليات والاغتيالات قد انتشرت بعد أن زادت الحكومة من طغيانها. وبدأت حوادث بإلقاء القنابل والمتفجرات على المحال الكبيرة التي يملكها اليهود كشيكوريل وإريكو وبنزايون وجاتينيو. وانتهت باغتيال حكمدار بوليس القاهرة سليم زكي في 4 ديسمبر 48. وحين شعرت الحكومة بالخطر الذي تمثله جماعة الإخوان المسلمين قررت حل الجماعة في 8ديسمبر ومصادرة أملاكها. فردت الجماعة باغتيال محمود فهمي النقراشي رئيس الوزراء في 28ديسمبر من ذات العام. وفي 13يناير حاول آخر نسف محكمة الاستئناف. وتولى إبراهيم عبد الهادي الحكومة بعد النقراشي، ومارست حكومته أبشع ألوان التعذيب والإرهاب الذي طال كافة التيارات السياسية في مصر. في تلك الظروف. فوجئنا بتحركات مريبة في أوساط إدارة المعتقل، وراجت إشاعات كثيرة عن ترحيلة جديدة. متى؟ وإلى أين سيتم ترحيلنا؟ لا أحد يدري. وأذكر أنه كان يوم احتفال الدولة بعيد الملك فاروق. في ذلك اليوم، لم تفتح علينا الأبواب كالعادة في الصباح. وأخذنا نتساءل: ماذا جرى؟ وقال بعضنا ساخرا: هدية الحكومة بمناسبة عيد الملك. وفي حوالي الرابعة بعد الظهر سمعنا صوت ضوضاء ودبيب خطى الجنود. وما لبث أن ظهرت قوة من العسكر على رأسها كابات حمراء، وطلبوا منا أن نصطف بسرعة في الحوش لسماع تعليمات جديدة. وخرجنا بخطى ثقيلة، فقد ألفنا من طول الإقامة تلك الحركات السمجة.

في الحوش نودي على أسماء نحو مائة معتقل من بيننا. وكان اسمي بينهم. وطلبوا منا أن نجمع أمتعتنا الشخصية بسرعة ثم يأخذ كل

منا مكانه في طابور(اثنين - اثنين). وبلهوجة وارتباك لملمنا أشياءنا، ونحن مشتتون، وعدنا للحوش، فشاهدنا سيارات السجون الضخمة المقفلة من كل ناحية إلا من فتحات صغيرة عالية مغطاة بالسلك. وعلى الباب الخلفي لكل سيارة وقف عسكري مسلح يسمح لكل من ينادون على اسمه بالدخول إلى السيارة. مضت العملية كأننا بضاعة تخرج من المخازن في حالة تسليم واستلام. حشرونا في تلك الصناديق الحديدية المغلقة في وضع غير آدمي، ولكن السيارات لم تتحرك إلا مع حلول المغرب خوفا من أن يرانا سكان القاهرة في شوارعها. وسار الموكب ونحن نهتف بأعلى صوت: "**يسقط الاستعمار. عبد الهادي كلب الوادي. يسقط الاستغلال**" "**تحيا مصر**". شيئا فشيئا شعرنا من الصمت أننا ابتعدنا عن القاهرة، وعن العمار، فهدأت ثورتنا، وبدأنا نضرب أخماسا في أسداس. إلى أين يمضون بنا في هذا الليل؟ وما الذي تعتزم حكومة إبراهيم عبد الهادي السفاح أن تفعله بنا؟. لم يكن أمامنا سوى المجهول نمضي إليه في السيارات المغلقة التي ترج بنا في العتمة. وبعد فترة توقفت السيارات في مكان ما، ونقلنا مكبلين إلى عربات قطار مغلقة هي الأخرى، وواضح أنها لا تستخدم لركوب البشر. داخل القطار، حل الصمت علينا. لم يكن لهزيمة الحكومة في فلسطين من دواء سوى المزيد من البطش بنا. لكن هل يمد ذلك في عمرها طويلا؟. الآن كيف سنرى أهالينا؟ وهل سيسمحون لنا بتبادل الرسائل؟ والزيارات؟ وهل سنرى من جديد نسخا من صحف الوفد والمصري وصوت الأمة التي كانت تتسلل إلينا ولو متأخرة؟.

مضت علينا ساعات طوال في القطار، صوت العجلات المنتظم، وحركة تأملاتنا. لا أذكر من الذي انتبه إلى الرطوبة التي في الجو، فصاح:إيه ده؟ الجو فيه رطوبة.إحنا فين؟. أفقنا جميعا إلى الشعور بالرطوبة التي راحت تزداد في جو العربة الخانق. هل نحن قرب بحر؟. وثب بعضنا وفتح باب العربة: نعم. إنه ميناء وبحر. تعرف بعضنا على الميناء: السويس! هبطنا من عربات القطار، وانتقلنا كالبضاعة إلى مركب اسمه»عايدة»الهواء يضربنا من كل ناحية، ورائحة البحر الخاصة تملأ

صدورنا، ولا ندري إلى أين نتجه. اتجهت إلى غرفة البحارة، كانوا نياما كل على سرير معلق. جلست إلى منضدة بوسط الغرفة الصغيرة، وهدير الموج في الظلمة يغمر سمعي ونفسي. وعلى ضوء لهب سراج ضعيف كتبت لثريا:

11 فبراير 1949

حبيبتي ثريا..

أحببتك لكل الصفات الحميدة التي تركزت فيك، فأنت شجاعة في غير تهور، جميلة من دون ترفع، نبيلة بلا رياء، وستظلين في نظري كذلك. وسأظل سعيدا بحبك، ولا أتخيل أن اثنين في الوجود يتمتعان بكل هذا التوافق والحب. لقد قلت لي من قبل في خطابك الأخير إنك لا تهابين ترحيلنا إلى مكان آخر ولو كان جبل الطور أو حتى سيبيريا. والآن أريدك أن تكوني شجاعة، فقد ودعنا اليوم صحارى الهايكستب غير مأسوف عليها. وها أنا أتحدث إليك بصوت لن يخفت ببعد المسافة بل يزداد قوة وحماسة، وثقي يا حبيبتي أن حبيبك مهما كمموا فاه لن يصمت إلى أن تبزغ شمس الحرية على الجميع وننعم في نهاية المطاف بالسعادة سويا، سعادة غير محدودة، حقيقية. نقلنا من الهايكستب بالسيارات إلى قطار حملنا إلى ميناء السويس ولم يقف بنا في المحطة بل نقلنا على قضبانه تقريبا إلى رصيف الميناء حيث تقف السفينة التي ركبناها واسمها "عايدة". خرجنا ووجدنا صفي عساكر على الجانبين بينهما ممر صغير عبرناه إلى السلم الخشبي الممدود بين الرصيف وسطح السفينة. وبعد قليل

ارتفعت صفارة السفينة عايدة وخرجت إلى عرض البحر. وقفت على سطح السفينة أستنشق هواء البحر بعد رحلة القطار الخانقة في الصحراء الشرقية. كانت الأمواج تجري من خلفي، وليس في الأفق سوى سلسلة بعيدة من الجبال يعلوها فنار يومض بانتظام من وقت لآخر. ولا تتخيلي جمال لون البحر خاصة تحت ضوء القمر الذي يظهر أحيانا ويحتجب أحيانا خلف السحب. ولا تتخيلي جمال هذا السكون الذي لا يقطعه سوى صوت ضربات المكنة المنتظم يتناهى إلي من خلال جدران المركب الحديدية. لقد أرحت جسمي قليلا بعد رحلة القطار التي استمرت خمس ساعات. ثم جلست لأكتب إليك في المساء وأنا في عرض البحر، على ضوء لهب ضعيف، لتعلمي أنني أذكرك في كل وقت ومكان. لك محبتي الدائمة. فوزي".

أنهيت خطابي وقمت أتحرك في المركب. لم يعد خافيا على أحد أننا نتجه من السويس إلى جبل الطور. والطور بلدة في شبه جزيرة سيناء على خليج السويس جنوبي غرب جبل موسى. ولم يكن بها شيء مميز سوى محجر صحي للحجاج يتألف من عنابر قديمة. سرعان ما تفتق ذهن الحكومة عن فكرة تحويله إلى معتقل لبعده عن القاهرة، ولصعوبة الهروب منه، وللدقة لاستحالة الهروب منه. إلى هناك نتجه. قادتني خطاي تحت ضوء القمر إلى غرفة المهندس القائم على صيانة مكنات السفينة. كان شخصا ظريفا. فنزلت معه إلى غرفة الآلات ونحن نتجاذب أطراف الحديث، وعلمت منه أن«عايدة»هذه السفينة العجوز تقوم برحلة من السويس إلى جبل الطور مرتين كل شهر، وتقطع المسافة في حوالي نصف يوم. وكنت أثناء حديثي إليه أسمع أصوات طقطقة صادرة عن المكنات، لكن المهندس طمأنني أن تلك

أعراض شيخوخة طبيعية ليس إلا، ولا تمثل إنذارا بالخطر. من المؤسف أنني سمعت بعد ذلك أن هذه السفينة تحديدا، عايدة العجوز، قد غرقت بعد شهور قليلة من رحلتنا عليها.

هبطنا عندما رست السفينة إلى ميناء شديد التواضع، وفوجئنا على غير العادة برجال الأمن يرحبون بنا! نعم، ترحيب يختلف تماما عن معاملة رجال الأمن الذين تركناهم خلفنا في السويس. بل وكان بعض الضباط يعاملوننا باحترام واضح. فكرت لحظة، وأمتعتي مازالت معلقة في يدي، وأدركت السبب: إنهم منفيون هم أيضا. نعم، منفيون في جبل الطور مع بعض الامتيازات. ولا شك أنهم يشتاقون للقاء الناس والحديث إليهم. اتجهنا إلى أبنية محجر الطور، وكانت قريبة، ولم تكن سوى صفين طويلين من الأبنية بينهما ممرات، والمكان عامة أقرب إلى المعسكرات المهجورة. ولم يكن يحيطه سوى سور من السلك المنخفض. كانت الأبنية مقسمة إلى ما يسمى بـ«الحزاءات»، ويشتمل كل «حزاء» على عنابر حجرية، أسقفها من الخشب، ذات مسطحات واسعة، وتناثرت في كل عنبر ألواح خشبية وعليها مرتبة من القش ومخدة مثلها وبطانيتان. حملت أشيائي واخترت مع بعض الرفاق أحد العنابر، وأخذنا نعد أنفسنا للحياة هنا. أخرجت ملابسي، والشطرنج، والدي هو الذي علمني هذه اللعبة في صباي، وكان يشجعني بوعد بمكافأة عظيمة إذا نجحت في الفوز عليه. ومازلت أذكر أول يوم استطعت أن أنتزع فيه انتصارا، فأعطاني» شلن» كاملا، وهو مبلغ عظيم حينذاك. وفي جبل الطور كان الشطرنج سبب صداقة بعض الضباط لي، فكانوا يجلسون بالساعات يلعبون معي. وكان المشرف على المعتقل ضابط تركي الأصل، يعن له أن يفاجئنا بتفتيش من وقت لآخر. لكن أحد هواة الشطرنج من العاملين في المعتقل وهو الصاغ جرجس شحاتة كان ينقر على الشباك القائم بجوار سريري في الصباح الباكر ويهمس لي:» الجاموس الأبيض مستعد»، فكنت أفهم من عبارته أن الضابط التركي يتأهب لحملة تفتيش بعد ساعات، فنسارع بإخفاء كل ما لدينا من الممنوعات وهو قليل!.

حول جبل الطور امتدت الصحراء شاسعة بلا نهاية، وشاطئ البحر الصخري. وبعيدا كانت تقع خيام العرب الذين كانوا على ولاء للحكومة، ولا يفضلون الدخول في مشاكل معها لأي سبب خاصة إذا كان السبب هم مجموعة من المعتقلين. أو كما تصورهم الحكومة «الخارجون على القانون». وكانت إحدى البواخر تأتي مرة كل أسبوع فتقف على مبعدة من الرصيف ويخرج إليها عسكر من المعتقل في قارب صغير يتلقون البريد والطرود والتموين. واتسع الجبل للمعتقلين من كل التيارات والتنظيمات السياسية. كان علينا أن نواجه حياتنا الجديدة، وسرعان ما شكلنا لجنة الشئون العامة، ومكتبة جمعنا فيها كل الكتب التي لدينا ليستعير كل فرد ما يشاء منها. بل وأخذنا نصدر صحف الحائط المختلفة التي تتضمن أخبار الزملاء الصحية، ومن الذي استلم طرد مأكولات، ومن الذي قرأ كتابا هذا الأسبوع وغير ذلك. وسرعان ما شرفت المعتقل مجموعة أخرى من أساتذة الجامعات من بينهم الصديق المفكر د. عبد العظيم أنيس، ود. عبد المعبود الجبيلي، وقد أضاف وصول تلك المجموعة إلى نشاطنا وحياتنا الكثير. فقد أخذت تتشكل بين المعتقلين مدارس لتعليم البسطاء منهم القراءة والكتابة، ومدارس أخرى للمحاضرات في مواضيع علمية وثقافية خاصة.



المعتقلون خلف الأسلاك الشائكة فى جبل الطور
ومعنا د. عبد المعبود الجبيلى

وبرغم كل ذلك كنا محاصرين بين رمال الصحراء، وشاطئ البحر، وكلاهما سور رهيب. لكننا كنا نستحم في البحر لنحوله من حارس علينا إلى صديق ممتع. ولكن لم يكن لدى أي منا لباس بحر. واقترح أحدنا أن نرتدي البلوفرات الصوفية بصفة مايوه! وذلك بأن نسد فتحة الرقبة بدوبارة، وندخل الأرجل مكان الأذرع! ولا يبقى بعد ذلك سوى تحزيم المايوه حول الخصر بأية دوبارة أخرى! الأكثر من ذلك أن رحلاتنا امتدت فيما بعد إلى موقع «عيون موسى» شمال المعتقل، ولكن تلك الرحلة التي كانت تمتد حوالي خمسة كيلومترات سيرا على الأقدام كانت تستلزم موافقة قومندان المعتقل ومرافقة الحرس من العساكر لنا! وأستطيع أن أقول إنني فاجأت الجميع بلا استثناء بآخر ما كان يمكن توقعه في جبل الطور، وأعني «جرامفون» واسطوانات من الموسيقى الكلاسيكية! وكان ذلك الجرامفون أسود اللون مربع، من النوع النقالي الذي يعمل بزنبرك، أتت به إلى ثريا في الهايكستب ومعه مجموعة اسطوانات سرعة 78 لفة في الدقيقة. وكانت الأسطوانات هدية من الصديق الكاتب المعروف المرحوم محمد عباس سيد أحمد. أذكر منها: بحيرة البجع لتشايكوفسكي، والسوق الفارسية، وأغنيات لفرانك سيناترا، وبينج كروسبي، وغير ذلك. وكانت هناك أغنية لطيفة كان الأصدقاء المقربون يشيرون إلي ضاحكين مازحين كلما سمعوها كأنها تشير لحالتي تقول كلماتها:

بابلو الحالم *Pablo the Dreamer*
بعضهم يظنه كسول،
وبعضهم يظنه مجنونا،
لكن الجميع واثقون من أنه يحلم!

وقد أشار الكاتب الصديق إدوار الخراط في روايته «طريق النسر» إلى أثر ذلك الجرامفون في حياة جبل الطور قائلا: «أما وجدي حبيب فكان راكعا أمام الجرامفون يرقب دوران الإبرة على الأسطوانة ويحرص ألا تصله ذرة رمل أو رشاش ماء من الموج الذي كان يضرب بتكراره

الرتيب صخرة الشاطئ». ويقول في موضع آخر بذات الرواية: «وعدنا نأكل على موسيقى كورساكوف من الجرامفون الذي أتى به للمعتقل فوزي حبشي، وكنا نسمع أسطواناته مع ضباط المعتقل في الليالي أمام مكتب القومندان». إذن كان ضباط المعتقل على حق عندما قابلونا بترحاب. ولم لا؟ ألم نأت إليهم بالموسيقى في تلك الصحراء! لكن تلك الآلة العزيزة التي أسعدتنا كثيرا تحت ضوء النجوم سرعان ما هلكت من كثرة الاستخدام. وقد بدأت رحلتها إلى الشيخوخة حين تحطم الزنبرك. فتحلق الجميع حولها بأسف، إلى أن خطر لنا أن ندرب الصديق سيد عبد الوهاب ندا على أن يتولى دور الزنبرك بتحريك الأسطوانة بسبابته وبالسرعة المطلوبة أي 78لفة في الدقيقة. وكان مشهدا مضحكا حين نجد أنفسنا مستلقيين أمام البحر نستمتع بأجمل أنغام، بينما يعاني الصديق سيد عبد الوهاب من عذاب لف الأسطوانة بلا توقف مركزا كل اهتمامه على دقة السرعة المطلوبة. وفي وقت لاحق تآكلت الإبر الخاصة بالجرامفون، فكنا نحكها حتى تبرى ونستخدمها ثانية فتصدر حشرجة غريبة تذكرنا بما في خيالنا من أغنيات وأصوات. ولم أستطع أن أمنع نفسي ذات يوم من المقارنة بين تلك الحشرجات بين رمال الصحارى وموج البحر، وبين السهرات الموسيقية التي كان د. لويس عوض يتحفنا بعد سماع المقطوعات الكلاسيكية بشروح لها، ويلقننا كيف نتذوق الموسيقى. كان ذلك في أوائل الأربعينيات حين كنت طالبا في كلية الهندسة أداوم على الحفلات الموسيقية بالمركز البريطاني في أحد الشوارع الضيقة بوسط القاهرة.

اليوم موعد وصول الباخرة إلى جبل الطور محملة بالخطابات والطرود والخضروات والبقول. نقف على الشاطئ، يتطلع بعضنا إلى الأفق وقد غطى عينيه بحافة يده، يفتش وراء الموج عن الباخرة. كان وصول تلك الباخرة يوم عيد بالنسبة لنا. فقد كانت همزة الوصل التي تربطنا نحن المنفيين هنا بين الصحراء والبحر بالعالم الخارجي والأهل والحياة. يتجول بعضنا على الشاطئ مدعيا اللامبالاة، لكنه في أعماقه يترقب تلك اللحظة: لحظة ظهور مقدمة الباخرة، الشيء الوحيد الذي

يكسر رتابة الحياة هنا وانقطاعها عن كل حياة. فقد كنا نبدأ يومنا بالإفطار الذي يتألف من الفول المدمس والحلاوة وربما قطعة جبن، ثم بجلسات الثرثرة أو السباحة قليلا، ويذهب بعضنا إلى المطبخ لتقشير الفاصوليا أو البسلة، والبعض الآخر إلى الكانتين. بعضنا يستلقي على الرمال يشرب الشاي. ومن حين لآخر كان الصاغ شحاتة ضابط المعتقل يداهمنا بحملة تفتيش ينزع خلالها صحف الحائط من على الجدران، ويحاول العثور على ما لدينا من ممنوعات وهي الكتب في الأساس وبيانات التنظيمات. إلا أن تلك الحملات كانت لاستيفاء الشكليات لا أكثر. ومع ذلك فقد فكرنا في الإضراب عن الطعام وأبلغنا بذلك اللجنتين اللتين تشكلتا لإدارة شئون المعتقلين:

«لجنة القيادة السياسية»، و«لجنة الشئون العامة». كان الإضراب يستهدف أولا وقف تلك الحملات، وثانيا الإفراج . وتشكل وفد منتدب من المعتقلين ضم د. عبد المعبود الجبيلي وزير البحث العلمي في عهد الثورة وآخرين لمقابلة القومندان ورفع المطالب إليه. وكانت مطالبنا مختومة بتهديد بالإضراب عن الطعام حتى الموت ما لم تتم الاستجابة إليها. ولكن الأيام مرت دون أن تعير حكومة عبد الهادي اهتماما لمطالبنا فبدأنا إضرابا عن الطعام استمر نحو أسبوع، ثم توقف بعد أن تعهدت إدارة المعتقل بوقف حملات التفتيش، وصرحت بأن الحكومة تتدارس موضوع الإفراج عنا. ما عدا ذلك سارت حياتنا على النحو الاعتيادي المألوف الذي يجعل الجميع ينتظرون الباخرة، بشغف، ولهفة، كأنها جرعة من الحياة الحقيقية يواصلون بها حياة المنفى بين البحر والصحراء. كنت أترقب مع الآخرين وصول الباخرة، وأنتظر رسائل الأهل. في ذلك اليوم وصلتني رسالة ثريا. وانتحيت بها ركنا بعيدا أقرأها بنهم المتعطش للحب والحياة.

مساء الأربعاء 23 فبراير 1949

زوجي وحبيبي فوزي..

أكتب لك يا حبيبي الآن، لأول مرة، وأنت في هذا المنفى

السحيق. أكتب إليك وقد تعانق عقربا الساعة يشيران إلى منتصف الليل، والكل حولي نيام، فزادني هذا الهدوء الذي حولي شوقا إليك وحنينا إلى حديثك وصوتك الحلو اللذيذ.

حبيبي فوزي.. كيف أنت؟ وكيف حالك في هذا المنفى؟ من فترة بسيطة علمت أن الطرود يمكن أن ترسل إليكم من البريد رأسا، وقد أعددت لك كل طلباتك بما في ذلك الأطباق البلاستيك والملاعق والشوك. وعملت لك النظارة، وهي معي الآن، ولكني أخشى إرسالها في هذا الطرد لكي لا يتكسر زجاجها، وسيكون في الطرد بعض الفيتامينات، فالرجاء قراءة طريقة الاستعمال وتناولها بانتظام. علمت أيضا بأن لديكم مكتب تلغراف وأن بوسعي إرسال نقود إليك، وسأبعث إليك عما قريب بمبلغ لتستعين به على الأقل في الأكل. عرفت أيضا أن السمك عندكم عظيم جدا وأنكم تستطيعون شراء أية أسماك تريدونها من البلد، لأنكم كما قالوا لي تخرجون وتتنزهون في البلد بجبل الطور. وقد رأيت عند أحد المعارف صورة لميناء الطور وللبناء الذي تسكنون فيه، أي أنه يوجد لدى في عقلي رسم كروكي للمكان الذي تعيش فيه. "رسم كروكي" بلغة المهندسين. ولا أدري هل ينفع ذلك لأكون زوجة لمهندس معماري مثلك؟ أرجو أن تضحك يا فوزي، وسوف نضحك كثيرا في المستقبل من كل ذلك، ومن يضحك أخيرا يضحك كثيرا. فلا تضايق نفسك، شدة وتزول حتما، بعدها نكمل حياتنا معا في سعادة تامة. أما من جهة أخبارنا فهي جيدة، الجميع بصحة تامة، ويهدونك سلامهم.

وبالأخص الوالدة، وكانت حزينة جدا لكنها الآن هدأت قليلا. ختاما يا محبوبي أتركك الآن وقد بلغ بي النعاس مبلغا، سأتركك على مضض قبل أن ينجرف قلمي إلى تخاريف النوم. إلى اللقاء يا روحي، في بيتنا، في المستقبل السعيد. ثريا".

المستقبل السعيد الذي حدثتني عنه ثريا. فيما بعد. تألف من سجون أخرى، وفراق آخر، وزنزانات جديدة. وبعد ليس فقط عن زوجتي ولكن عن أبنائي وهم صغار: ممدوح وحسام. من كان يدري أن هذا ما ينتظرنا؟ في كل الأحوال- وقتها على الأقل- أسعدتني الرسالة سعادة هائلة. ورحت أقرأها مرة واثنتين وثلاثة. إلى أن لاحظت توقيع الضابط المألوف على كل الخطابات «نظر». ولكنه هذه المرة جاء مصحوبا بتعليق من الضابط جاء فيه:»عقبالنا زيك»!. ولم أعرف هل أضحك أم أستسلم للغيظ؟ هل يحسدوننا في هذا المنفى حتى على القليل مما يصلنا من الحب؟.كان عليَّ أن أرد على ثريا. لكن كيف؟ نظرت حولي فرأيت الجميع منهمكين في رسائلهم. وبعضهم يضحك، وبعضهم يقبل الأوراق. كانت الطريقة الرسمية لإرسال الخطابات حينذاك أن يجلس المعتقل في مكتب الضابط النوبتجي ليكتب خطابه ثم يسلمه, ليأخذ الخطاب مجراه الحكومي عبر قنوات البوليس السياسي, ليصل بعد ذلك إلى الأهل متأخرا عدة أسابيع. أو لا يصل. وكانت الطريقة الأخرى التي نلجأ إليها في الحالات الهامة أو الطارئة, هي أن نرسل الخطابات عبر عساكر الحراسة أو موظفي الصحة في المعتقل، أو غيرهم مقابل معلوم مكلف. كان عليَّ أن أجد طريقة ثالثة. مضمونة. وغير مكلفة.

في اليوم التالي كنت «نوباتجى» في المطبخ. وقفت مع بقية الزملاء أقشر البطاطس، وأنقي الأرز. ثم خرجت فشربت شايا ثقيلا في الهواء الطلق. وحين عدت إلى العنبر أصابني إحباط شديد من المنظر حولي. وتخيلت نفسي في منزلي أنا وثريا. وحولنا أثاث بيت جديد مريح.

وهنا تذكرت أن اعتقالي جاء بعد ستة أشهر فقط من زواجي، وأننا كنا نعيش مع أسرتي، وليس لنا شقة خاصة بنا. لكنني كنت أعد لتجهيز الموبيليا برسم التصميمات الخاصة بها في أوقات الفراغ على أمل الانتقال قريبا إلى مسكن مستقل. وكنت خلال أوقات التجلي أواصل تلك التصميمات وأبعث بها إلى ثريا. ماذا لو قمت باستغلال تلك الرسوم فأكتب لثريا ما أريد عبرها فتمر تحت أعين الضباط دون أن يلاحظوها سواء في المعتقل أو البوليس السياسي؟

خرجت إلى شاطئ البحر ومعي بعض الزملاء. جلسنا ورحنا نستمع إلى الجرامفون. كانت الجبال أمامي شاهقة وبديعة، جبال لم أر مثلها من قبل إلا في السينما والأفلام. وكان لون البحر أزرق صافيا يريح العين. وطرأت لي الفكرة فجأة، ومساء نفس اليوم شرعت في تنفيذها. هكذا جلست وحدي، وكتبت لثريا خطابا اعتياديا. ثم أخذت أكتب كل ما كنت أود قوله لها ولا أستطيع قوله خشية الرقابة لكني هذه المرة كتبت كل ذلك على ورقة بيضاء بطريقة الضغط المائي المعروفة(water Print)، مستخدما قلما خشابيا رفيعا وورقة نشاف. فإذا جفت لا يظهر على الورقة البيضاء أي شيء مما كتبته. وبعد أن انتهيت رسمت على الورقة البيضاء التي تتضمن خطابي السري صورة لقطعة من الموبيليا، ربما كانت سرير نوم، أو صوان ملابس، أو أي شيء آخر. وألحقت الرسم بخطابي العلني حاملا الاثنين إلى ضابط المعتقل الذي راجع الخطاب المكشوف ولم ير شيئا يستحق النظر في قطعة الموبيليا. هكذا قطعت رسالتي الأولى الصريحة إلى ثريا طريقها من جبل الطور إلى البوليس السياسي في القاهرة إلى ثريا سليمة تحت أعين كل الرقباء. وعدت من مكتب الضابط أفرك يدي سعيدا باكتشافي بل وبقدرة الإنسان على تحدي كل العوائق واجتياز كل الأسوار. ولكني توقفت بعد لحظة مفكرا: وكيف ستعرف ثريا أن تحت الرسم رسالة كاملة صريحة؟. وتذكرت النكتة الخاصة بالطيار الذي حلق بالجزء الأول من كتاب» كيف تطير» ونسي الجزء الثاني «كيف تهبط؟». كيف يمكن لثريا أن تعرف أنها بمجرد

أن تغمر رسم الموبيليا في الماء تظهر لها رسالتي؟ كيف أبلغها ذلك؟.
وبعد فترة وصلني خطاب ثريا

الأربعاء 3 أغسطس 1949

حبيبي فوزي..

أعاود الحديث معك وأنا أضمك إلى صدري بحنان وشوق. وصلني خطابك وكان قصيرا جدا، وفهمت أنك بحاجة لنقود فأرسلت لك اليوم مبلغ 22جنيها بالتلغراف وأظنها وصلتك. حبيبي فوزي من جهة تصميم دولاب الكتب فهو عظيم جدا وقد قررت أن أحفظه عندي لحين خروجك وتنفيذ التصميم. وقد رأى خالي صمويل التصميم وأعجبه وقال: فوزي مهندس مبتكر. وكان ناوي يأخذ التصميم وينفذ منه واحد لبيته عند أي نجار لولا أنه سافر يوم الأحد. أعجبني أيضا تصميم كنبة الاستديو. قبلاتي لك.

وكل محبة زوجتك ثريا".

وحطت علي الكآبة. التصميمات التي وضعتها لمجرد أن تقرأ ثريا تحتها خطاباتي كادت أن تضيع وأن يتناولها النجارون بالتنفيذ لصالح صمويل! كيف أبلغ ثريا بأن هناك خطابات وراء الرسوم؟. كتبت لها ضمن الخطاب التالي أقول إنني: «حلمت يا ثريا أنني ممسك بفرشاة مغمورة بالماء وكلما دهنت بها الموبيليا ظهرت عليها نقوش جميلة. يا للعجب! يا للعجب!». لكن ثريا في البداية لم تعر ذلك اهتماما وظنت أنها تخاريف العشق. فعدت أكرر لها نفس العبارة واصفا حلمي الفريد المدهش عن المياه التي تغمر الموبيليا مختتما عبارتي بقولي» يا للعجب! يا للعجب!» حتى فطنت ثريا إلى اللعبة وعادت أدراجها إلى خطاباتي السابقة ورسومي، فظهر لها ما كنت أود إخفاءه عن

البوليس من أشواق وأسرار شخصية وسياسية. أذكر أن خطابا لثريا جاءني وعليه توقيع «نظر بمعرفة سعادة القومندان. يا للكسوف!» كان كسوف القومندان لمجرد أن ثريا صارحتني بشوقها وانتظارها لي. ولكن الموبيليا أعفت الجميع من الحرج! كما أن شعورا غامرا بالسعادة استولى على وأنا أحس أنني -رغم حصار البحر والرمال- أفعل ما أريد، وأكتب ما أريد، وأنه ما من قوة في العالم قادرة في النهاية على حصار الإنسان أو منعه من التعبير عن ذاته وعن نزوعه للحرية. ألا نرى أحيانا نباتا صغيرا بازغا نحو الشمس من شق صغير في الأسفلت؟ لقد سُدت عليه كل الطرق، فالتف، وتحايل، وشق طريقه إلى النور. الإنسان كذلك. الحرية جزء من صميم تكوينه. وأحيانا تكون الحرية هي قصة حياته كلها.

15 أغسطس 1949

حبيبي فوزي..

أجلس الآن جلستي التي اعتدت عليها أثناء كتابتي الخطابات لك، هذه الخطابات التي لا أمل كتابتها أبدا، وفي الوقت ذاته أسمع من الراديو دور لفريد الأطرش "سوا.. سوا.. يللا سوا"

وهي أغنية ظريفة ومستحبة عندي. سأرسل لك في الطرد القادم الحبر والورق والكراسات المطلوبة. أما عن مجلات "العمارة" فهل تريد أن نرسلها إليك أم نحتفظ بها هنا. وعامة كل أعداد السنة الماضية عندنا هنا في البيت. والآن أفيدك يا حبيبي– لأني أنسى كل مرة– أني سددت الدين الذي علي وقيمته 16.5جنيه فور حصولي على فلوس، فلا يكون عندك أدنى فكر من هذه الناحية، كما أنني علقت صورتك الجميلة في السلسلة الذهبية التي عندي من زمن، والآن السلسلة بصورتك الجميلة معلقة على صدري طول الوقت، وقد أخذت بها صورة.

حبيبي انتهت كل الجهود لزيارتكم بالفشل. قالوا لنا: هذا مستحيل. وبالطبع تضايقنا ولكن ما باليد حيلة. سوف نلتقي مهما طال الفراق. أياما، أو شهورا، أو حتى سنين، سنلتقي. وسوف يبتسم المستقبل لنا بعد أن كشر عن أنيابه طويلا. لنا في المستقبل أمل لعله لا يخوننا ولا يخلف ظننا. من آخر الأخبار أن ابن عمك الدكتور يعقوب عوض ألف كتابا في الشعر اسمه "وحي العاطفة". بالمناسبة تصميم المكتب الأخير - الرسم الذي أرسلته - جميل جدا.

حبيبي فوزي..

سررت جدا عندما قرأت في الجرائد عن عودة الموظفين المعتقلين إلى وظائفهم بعد خروجهم، وصرف مرتباتهم. وقد سألت عنك أنت بالذات، فقالوا لي إن القرار يسري على الجميع. وربما أصرف المرتب المنحوس قريبا، لكن سيطلع لنا فرق بسيط، لأن النقابة ستأخذ في هذه الحالة ما كانت قد أعطته لنا وهو مبلغ 12 جنيها شهريا لمدة الاعتقال، ولنا عند الحكومة مائتان وستون جنيها. على العموم إذا قبضتهم لن أتصرف فيهم لحين عودتك. أفكر أن أذهب مساء اليوم إلى سينما مترو، لأرى فيلما كوميديا للأخوين ماركس، سأرى حسب الوقت والحالة النفسية. قبلاتي الحارة وشوقي. ثريا".

في جبل الطور كنت أنا والدكتور عبد العظيم أنيس في عنبر واحد. ومنذ ذلك الحين ربطتني به علاقة طويلة من الاحترام والتقدير المتبادل، كتلك العلاقة الطويلة التي ربطتني بابن عمي الدكتور لويس

عوض. كان عبد العظيم أنيس الذي قضى هو الآخر حوالي العامين في أبي قير، والهايكستب، ثم في جبل الطور على البحر الأحمر. يقول عبد العظيم أنيس في كتابه «ذكريات من حياتي»: «اليوم، وأنا أقترب من الثمانين لست نادما على أي شيء.. فقد كان همي طوال حياتي الدفاع عن الفقراء والمظلومين وعن استقلال مصر». وحديثه هذا أقرب ما يكون إلى موقفي . لست نادما على شئ، وعلى العكس فإن كل ما يدور من حولي يثبت لي أننا كنا على حق في دفاعنا عن الفقراء والمظلومين، حتى لو لم يتوج هذا الدفاع الحار بتبرئة المتهم وإنصافه الآن، ولكن بعد كل ليل نهار كان اسم عبد العظيم أنيس- قبل جبل الطور- مدرجا في كشوف حملة اعتقالات إسماعيل صدقي التي بدأت في 11يوليو 1946التي اعتقل فيها محمد زكي عبد القادر وعبد الرحمن الشرقاوي والدكتور محمد مندور وآخرون، الحملة التي كانت ردا على النشاط اليساري العارم الذي بلغ ذروته بتشكيل اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التي قادت مظاهرات 21فبراير 46 ضد الاحتلال في مواجهة ثكنات قصر النيل البريطانية بميدان التحرير. وكانت صلة د. عبد العظيم وثيقة بتنظيم حدتو، لكن بوليس الإسكندرية لم يتمكن من اعتقاله تلك المرة. وفي سبتمبر سنة 1948 ألقى القبض على د. عبد العظيم الذي كان أستاذا بكلية العلوم في جامعة الإسكندرية. ولم يعتقل في حملة مايو التي كنت أحد ضحاياها لأن الدولة حينذاك لم تكن تعلم أنني موظفا بالسكة الحديد الحكومية، وقد علمت أنني اعتقلت كمهندس بمكتب د. سيد كريم فقط على حد قول أحد ضباط المباحث فلم تكن المباحث تعرف أنني موظف حكومي يا للعجب؟! وعندما اعتقلوا عبد العظيم أودع مع الآخرين في سجن «أبي قير» بالإسكندرية، ثم تم ترحيله إلى الهايكستب ، ومنه إلى جبل الطور. وكان نشاط عبد العظيم أنيس في الإسكندرية من الوضوح بحيث كان اعتقاله منتظرا، فقد ارتبط اسمه بالمنشور الذي أشرف على توزيعه في الإسكندرية تحت عنوان «تسقط الملكية وتحيا الجمهورية». وقد أشارت صحيفة الأهرام في اليوم التالي إلى هذا المنشور، وإن لم تذكر

الشعار نفسه. واكتفت بالقول بأن منشورا ثوريا وزع في الإسكندرية.

ويقول د. عبد العظيم عن جبل الطور:

"نقلت مع آخرين من الهايكستب إلى معتقل الطور على ساحل البحر الأحمر بالقرب من دير سانت كاترين، وقد تجمع في هذا المكان الذي كان أصلا مخصصا للحجر الصحي الآلاف من اليساريين والإخوان المسلمين. وكان الهدف هو عزلهم تماما عن القاهرة والعالم الخارجي. وكانت وسيلة الاتصال الوحيدة بين المعتقل والسويس هي الباخرة، عايدة التي كانت تأتي لنا بالمؤن والمأكولات والخطابات كل أسبوعين. وهناك خضنا إضرابا عن الطعام استمر فيما أذكر لمدة أسبوعين مطالبين بتحسين ظروف معيشتنا، وقد أدى هذا الإضراب إلى مرضي.. ونقلي إلى مستشفى الدمرداش فبقيت فيه من سبتمبر 49 إلى أن أفرج عني في 10يناير 1950 عندما أجريت الانتخابات العامة وعادت الحكومة الوفدية فأفرجت عن جميع المعتقلين".

الإضراب الذي يشير إليه د. عبد العظيم كان لتحسين ظروف حياتنا، وزيادة كمية الأغذية، وكان هناك نحو ثلاثمائة معتقل ومحبوس من الشيوعيين والجنائيين متحدين في هذا المطلب. واهتزت الإدارة من الإضراب في حينه وهددتنا بالحبس الانفرادي لكل من يشارك في الإضراب والتعسف في معاملة الجميع. لكننا لم نتراجع. وترددت حينذاك الشائعات بنقلنا في ترحيلة جديدة إلى مكان آخر قرب«عيون موسى» كعقاب لنا على ذلك الاحتجاج الجماعي. واستطعنا أن ننتزع بعض المكاسب التي دفع الجميع ثمنها من صحتهم وعافيتهم، وتحسن بالفعل نوع اللحم فأصبح قابلا للأكل، وصرفت لنا كميات من السمن

للطبخ. وزادت كمية الخبز.

أقول كنت أنا والدكتور عبد العظيم أنيس في عنبر واحد. وكان الدكتور عبد العظيم يقرض الشعر إلى جانب اهتماماته النقدية والثقافية والعلمية. وفي احتفال أقمناه بمعتقل الطور بمناسبة مرور عام على إضراب رجال البوليس، وقف الدكتور عبد العظيم وألقى فينا قصيدة مطلعها:

«عساكر الجيش والبوليس خطبكمُ.. خطب البلاد فعادوا من يعاديها!» وقد حضر الاحتفال جنود وضباط الشرطة بالمعتقل وصفقوا كثيرا للخطب والقصائد التي توالت ضد الحكومة!

وفي إحدى سهراتنا الليلية قرأ لنا د. عبد العظيم قصيدة جديدة له مرسلة إلى زوجته مطلعها:

يا مهجتي هل تسمعين..
صوتا يروح مع السنين
في وحشة الليل الحزين ..
يشدو وما تغفو العيون
من أدمعي صغت الصلاة..
ظمأ إليك.. إلى الشفاه.

وأثارت القصيدة أشواق محبتي لثريا، وكنت أتخيلها مع كلمات عبد العظيم أنيس. وربما كان كل واحد من الجالسين يتخيل هو الآخر زوجته وحبيبته. ولكني دون الجميع انتحيت بالدكتور عبد العظيم ركنا وهمست له: ممكن أقترض منك هذه القصيدة؟. فأجابني دون أن يفهم: تفضل.. لكن كيف ستقترضها؟! قلت له: سأضع بدلا من كلمة« يا مهجتي «كلمة» أثريتي؟ وأبعث بها إلى زوجتي! أعتقد أن د. عبد العظيم ضحك، وقال: تفضل القصيدة تحت أمرك. وقلت: لكني في هذه الحال سأرسلها باسمي! قال: مفهوم طبعا.

كانت هذه أول وآخر عملية استعارة للشعر أقوم بها في حياتي.

وكان عزائي أن ذلك يتم لغرض نبيل، وبموافقة من صاحب القصيدة، كما أني لم أنسب العمل لنفسي. بل دفعت ثمنا لها علبة سجاير كاملة!!.. وهكذا كتبت لثريا:

18 أغسطس 1949

حبوبتي ثريا.. أكتب لك بعد أن نام الجميع فاختليت بصورتك أناجيك بهذا الخطاب. قضيت وقتا ظريفا هذا المساء في حفلة موسيقية رائعة على ضوء القمر. ولكن قولي "حفلة" مبالغة مني، فلم نكن تزيد على أربعة أو خمسة معتقلين استلقينا على البطاطين فوق الرمل نراقب القمر وهو يسابق السحاب وننصت لصوت الموسيقى من الجرامفون اللذيذ. من الواضح أن إقامتنا هنا ستطول شهورا، وشهورا. ولذلك أرجوك أن ترسلي لي حذائي البني اللون لأن حذائي انتهى تماما هنا وأكلت الرمال نعله، وأيضا البيجاما إذا كنتم قد انتهيتم من تفصيلها، وأخيرا الفيتامينات ومعجون الأسنان. والآن هناك نقطة أخيرة وبالأحرى نكتة أخيرة أرجو أن تضحكي لها معي، فقد لاحظت أنك تكتبين على مظروف خطاباتك: " الطور المعتقل، ثم الاسم: فلان الفلاني"! وهذه تذكرني بنكتة أخرى من هنا تقول إن أحدهم أراد إرسال هدية لصديق فلفها في ورقة وكتب عليها" هدية من الطور"!

حبيبتي ثريا.. الآن أريد أن أهديك قصيدة:

أثريتي.. هل تسمعين

صوتا يروح مع السنين؟

وهكذا ترين أنني أذكرك حبيبتي، أذكرك دائما وفي كل حين، أذكرك عند الشروق وعند الغروب، أذكرك دائما في الكفاح وأستمد من شجاعتك السلاح، وأنا واثق أنك تذكرينني كذلك صباح مساء".

وكتبت لي ثريا فيما بعد تقول:

"لقد أعجبت جدا بهذه القصيدة المرسلة، إنها فعلا عظيمة وتعبر أصدق التعبير عما يجول بالخاطر، وإني أتنبأ للشاعر الذي يكتب كل هذا بمستقبل عظيم. والعجيب يا فوزي أني الآن أصبحت مغرمة جدا بقراءة الشعر، ولا أدري سر هذا التطور الخطير حتى أنني أصبحت أبحث عن كتب الشعر لأقرأها. ولكني لم أتقدم في ذلك إلى درجة تأليف الشعر".

وأخذت ثريا تردد القصيدة المقترضة التي أعجبتها في كل مكان، حتى أثار ذلك ضجة كبيرة داخل عائلتي، وأخذ الكثيرون يتصايحون بفزع« فوزي بيكتب شعر»! فتطمئنهم ثريا بأن هذا يحدث أحيانا وليس في ذلك ما يشين. المشكلة أن أخبار القصيدة وصلت إلى زوجة الدكتور عبد العظيم بحكم العلاقات التي تربط زوجات المعتقلين في الخارج، فما كان منها إلا أن قارنت القصيدة المرسلة لثريا بذات القصيدة التي سبق أن بعث بها إليها د. عبد العظيم، فاستكبرت أن يبيع زوجها قصائده للآخرين! وكتبت إليه تعاتبه كيف يبيع الشعر؟ وبأي سعر يبيعها الآن؟ وهل وصل سعر القصيدة إلى علبة سجائر كاملة أم لا؟

وكتبت لثريا على عجل أقول لها:

"حبيبتي ثريا.. استلم شاعرنا العظيم خطابا من زوجته اليوم تقول فيه إنك ـ ثريا ـ قد حفظت قصائده على أنها من إنتاج زوجك فوزي، فيفهم من ذلك أنني

أدجل عليك وأدعي أنني شاعر مع أن شيئا من هذا لم يحدث. وبالرغم من أنني قد استندت في دفاعي على خطابك الذي تساءلت فيه عن ذلك الشاعر وتنبأت فيه له بمستقبل باهر فقد أصر الملاعين من الرفاق على اتهامي. ولذلك أطلب منك الآن إرسال إقرار واضح لا لبس فيه بأني لم أدع كذبا أنني أنتجت هذه القصائد.»

وكتبت لي ثريا في خطابها اللاحق:

على فكرة يا حبيبي.. ما هي حكاية القصائد والشاعر؟ أنا لم أذكر مطلقا أنك المؤلف. واعتبر هذا إقرارا مني بذلك، وانقل للشاعر أنني معجبة جدا به وأتمنى له مستقبلا عظيما. وأخبره أيضا أنني سأتفاهم مع زوجته في ذلك». وبعد تلك الحادثة لم أعد مطلقا إلى الشعر، وقلت لنفسي: ماله النثر؟

في 3 يناير 1950

انتصر حزب الوفد في المعركة الانتخابية. وأطلقت صحيفة «المصري» على ذلك اليوم «يوم ثورة الشعب». وفي 12 يناير 1950 تشكلت حكومة الوفد بعد انتخابات عامة أعطت الجماهير فيها أصواتها للوفد وطالبته بحل مشكلاتها: جلاء المحتل الأجنبي، الوضع الدستوري لتطويق استبداد الملك، مواجهة الفساد وانخفاض الأجور والضائقة الاقتصادية، وأخيرا إن لم يكن أولا منح الشعب حرياته السياسية المنتزعة.

وبعد شهر ونصف تقريبا من وصول الوفد إلى الحكم صرح النحاس باشا في 21 فبراير 1950 بقوله إنه لم يعد في مصر معتقل سياسي واحد. فما كان منا إلا أن جمعنا أمتعتنا. وذهبنا إلى قائد المعتقل الذي أكد لنا الخبر وطلب منا الهدوء والاستعداد للخروج حين تصله

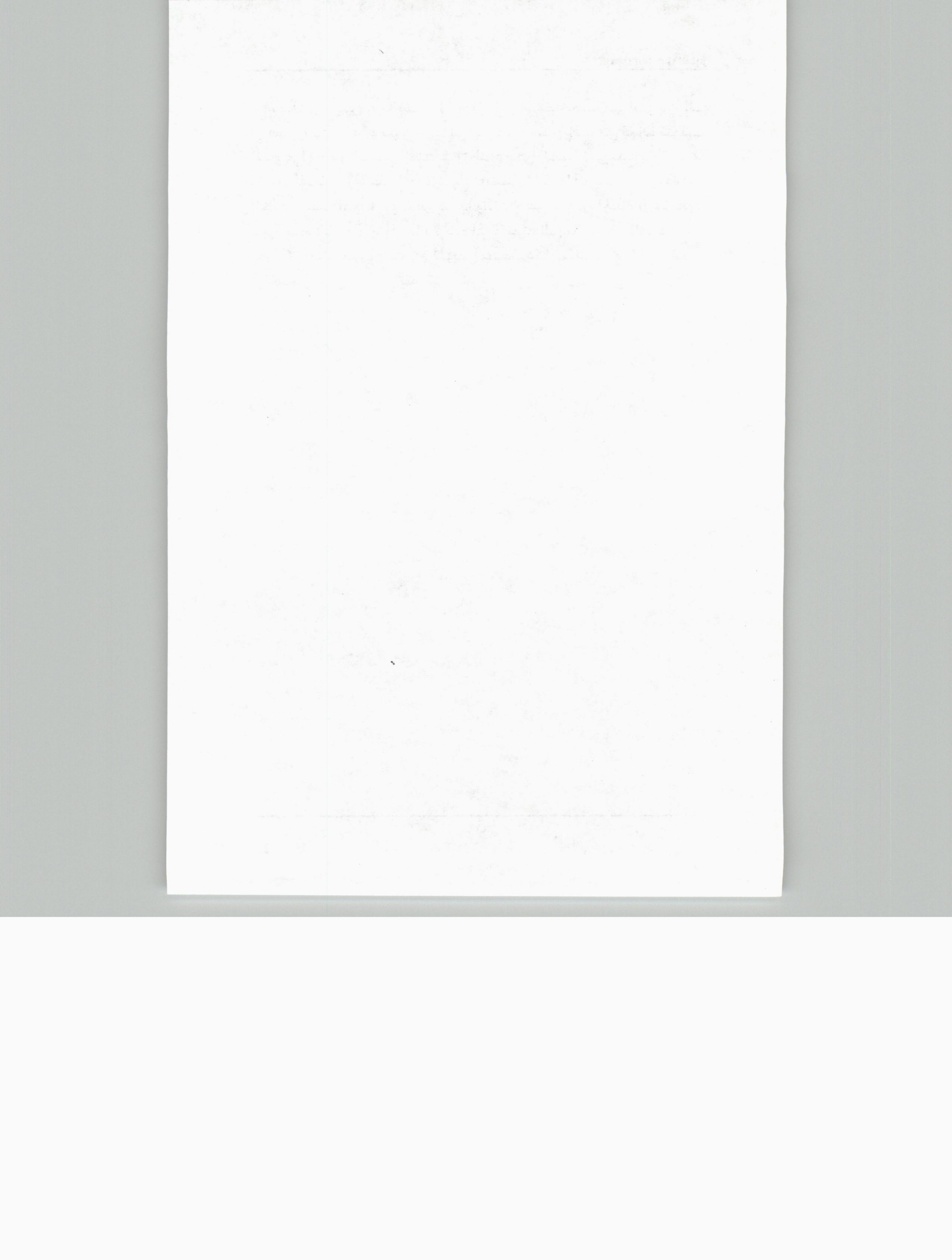
التعليمات الرسمية. وكنت أحد أفراد آخر دفعة يفرج عنها في ذلك اليوم. وطرت مسرعا إلى منزلنا في 3 شارع خزام بشبرا. وتحول البيت الذي كان الاكتئاب والحزن يحطان عليه فأضحى يضج بالزغاريد وتوزع فيه الحلوى ويتوافد عليه المهنئون من كل مكان.

وعدت بعد خروجي إلى عملي السابق بهيئة السكك الحديدية الذي التحقت به خلال عملي مع الدكتور سيد كريم بعد أن تركت مصلحة المباني الأميرية. واستلمت متأخرات راتبي عن مدة الاعتقال كلها. وكانت تقارب في ذلك الحين الألف جنيه فاشتريت أول سيارة خاصة بي رفعتني درجة أعلى في السلم الاجتماعي من حيث الشكل. بينما ظل قلبي وعقلي هناك مع الناس.

كان من بين المهنئين الدكتور لويس عوض. وكان اسم لويس عوض قد بدأ يلمع في سماء الحياة الثقافية المصرية. بعد أن ترجم «شبح كانترفيل» لأوسكار وايلد عام 1946. ثم نشر ديوانه «بلوتولاند وقصائد أخرى» عام 1947. وأخيرا كتابه الذي يعد مرجعا «في الأدب الإنجليزي الحديث» عام 1950. وفي زيارته لنا تطرق الحديث إلى مستقبلي. وماذا سأفعل لاحقا. ولم يكن لويس بعيدا عن هموم الوطن السياسية وعواصفه. فقد كان شديد التعاطف في تلك الفترة مع حزب الوفد وزعمائه ومبادئه: الاستقلال التام والدفاع عن الدستور. كما أنه تشرب النزعة الاشتراكية العامة وكان ينصحني دائما: "**اعتنق ما تشاء من آراء ولكن لا تقيد نفسك بأي تنظيم**"!

ولكني كنت اختلف معه وأقول: كيف سيتغير المجتمع دون قوى منظمة دافعة للتغيير؟!.. ولم يكن يرى بارقة أمل واحدة في النظام الملكي الفاسد. ورغم أنه على حد قوله: لم يشتغل أبدا بالسياسة ولم ينتم أبدا لحزب من الأحزاب. إلا أن ذلك لم يعفه من الاعتقال عام 1959 ولا من أن يصبح زميلي في نفس العنبر بمعتقل العزب بالفيوم. أما في حملة صدقي عام 1946 فلم يقبض عليه لتواجده في أوروبا حينذاك.

سألني لويس عما سأفعل، ولم أكن أنا شخصيا قد انتهيت إلى رأي فيما سأفعله. فقد كان عدلي جرجس أحد رفاقي في قيادة تنظيم «النجم الأحمر» يحاول إقناعي بترك عملي الهندسي نهائيا لأحترف العمل السري وسط العمال. واعترضت على ذلك بقولي إن صلتي بالعمال ستزداد وأنا مهندس عنها وأنا غرد في خضم الحياة الاعتيادية. أخيرا فلم أكن أرى تناقضا بين عملي واشتغالي بالشئون السياسية. ولم يكن بوسعي أن أصرح للويس عوض بكل ذلك وهو الذي يقصد الاطمئنان على أحوالي بشكل عام.



الفصل الرابع
قليل من الحرية



أقول إنني بعد خروجي من معتقل الطور انغمست في العمل السري تماما. رغم رفضي لما يعرف بالاحتراف السياسي حينذاك. وكنت في رفضي للاحتراف السياسي متأثرا بتقرير أعده المناضل شهدي عطية الشافعي أحد قادة حدتو. وكان يعارض فيه دعوة هنري كوريل لتمييع جوهر الصراع الطبقي وتذويب الحزب الشيوعي في جبهة تحت مسمى «خط القوات الوطنية». وكنت ألتقي بشهدي من حين لآخر بمنزله الكائن في مصر القديمة عند فم الخليج, خاصة في تلك الأيام التي كان يشرف فيها على إصدار مجلة «الجماهير» وهي مجلة "حدتو" العلنية قبل أن ينقسم التنظيم إلى عدة تنظيمات صغيرة. وفي تلك الأيام كانت ثورة يوليو على الأبواب دون أن يخمن أحد أو يتخيل شكل الثورة أو هيئة زعمائها. وفي أكتوبر 1951 ألقى مصطفى النحاس بيانا في البرلمان أعلن فيه إلغاء معاهدة 1936, واتفاقيتي السودان الموقعتين بين مصر وبريطانيا عام 1899 واللتين جعلتا السودان فعليا في قبضة بريطانيا وحدها. وقال النحاس إنه

"من أجل مصر وقع معاهدة 1936، ومن أجل مصر أيضا يطالب البرلمان اليوم بإلغائها".

واشتعلت مصر كلها حماسة, وتدفقت المظاهرات في شوارع القاهرة والإسكندرية وغيرها يطالب فيها الموظفون والعمال والطلاب بطرد المحتل الإنجليزي. ويطلبون السلاح من أجل الكفاح المسلح. واستمرت المظاهرات إلى أن سارت المظاهرة الكبرى في 14 نوفمبر 1951 وضمت ما يقرب من مليون مواطن. كان الوفد بإعلانه إلغاء

المعاهدة يعلن فشل طريق المفاوضات السلمية مع الاحتلال. ولكن لم يكن عند الوفد ما يقدمه أكثر من ذلك الإعلان. وحين سئل النحاس عن خطوات الحكومة اللاحقة قال: «لقد أدت الحكومة واجبها والكلمة الآن للشعب».

وتعرضت مدن القنال التي اشتعلت بالمظاهرات لنيران الإنجليز. وفي 18 نوفمبر أطلق الإنجليز النار على ثكنات البوليس المصري في الإسماعيلية، فرد عليهم رجال البوليس بالنيران، وسقط قتلى وجرحى من الجانبين. ووقعت حوادث مشابهة في السويس وبورسعيد. كان الاستعمار يعي أن ردم طريق المفاوضات يعني فقط المزيد من اشتعال الكفاح المسلح في القناة. وكان عليه أن يجرب الوسيلة الوحيدة المتبقية لديه: القوة. لكن مصر واصلت كفاحها. وسقط في معارك الإسماعيلية 117 شهيدا وجرح نحو خمسمائة. وفي 13 يناير وقعت معركة أخرى. يقول طارق البشري بصددها في كتابه «الحركة السياسية في مصر» إن صحيفة«الديلي ميرور «البريطانية كتبت بعدها» لا نستطيع بعد اليوم أن نقول عن قوات التحرير المصرية المؤلفة من شباب متحمس إنها إحدى الدعايات المضحكة. لقد دخلت المعركة بين مصر وبريطانيا في دور جديد». وكتبت النيوز كرونيكل: «لقد ثبت المصريون في القتال. ولم يركنوا إلى الفرار. حتى علق أحد الضباط الإنجليز على هذه المعركة بأنها أعنف من أي معركة خاضوها أيام الانتداب البريطاني في فلسطين».

وانتشرت في كل مكان الدعوة لجبهة واسعة تضم كل القوى الوطنية. كما بدا للجميع أن الكفاح المسلح هو المخرج الوحيد لاستقلال مصر. وراجت الدعوة لإنشاء الكتائب وإعداد الفدائيين وإقامة مراكز التدريب. وأنشأ الشيوعيون بدورهم معسكرات للتدريب في منطقة القنال. وكان الجو مشحونا بحريق يأتي على الاستعمار والملك. لكن حريقا آخر سبقه ليوقف تقدم النضال الشعبي نحو أهدافه هو حريق

القاهرة. وفي مساء يوم الجمعة 25 يناير حاصرت القوات الإنجليزية مبنى محافظة الإسماعيلية، وأخذت تطلق النيران على المكان. ورد الجنود المحاصرون وكانوا لا يحملون سوى البنادق إلى أن نفدت الذخيرة منهم. وسقط خمسون شهيدا، وأصيب نحو ثمانين، وأسر من بقي على قيد الحياة. وفي صباح اليوم التالي 26 يناير 1952 خرجت المظاهرات من كل مكان في القاهرة تنادي بحمل السلاح ورد الصاع صاعين للمحتل. وعند الظهر اشتعلت القاهرة بدءا من ميدان الأوبرا ووسط البلد وامتدت النيران إلى مناطق أبعد. وجاءني مسئول من التنظيم ودعاني للخروج فورا إلى الشوارع. فسرنا في مظاهرة مضادة نهتف» أوقفوا المؤامرة، أطفئوا الحريق»، لكن صوتنا كان يتبدد بين سحب الدخان الأسود وصيحات الشعب الغاضب ومكر الذين دبروا للحريق ووقفوا يستدفئون بناره. لقد علقت مسئولية الحريق على أطراف عديدة، دون أن يتمكن أحد من إثبات التهمة على طرف، لكن من المؤكد أن إضرام ذلك الحريق كان مفيدا للملك والاحتلال، المسئول الأول و الأخير عن حالة الغضب الشعبي.

وفي نفس يوم الحريق فرضت الأحكام العرفية، ومنع التجول في الشوارع. واستحكمت أزمة النظام القائم حتى أنه أقال أربع وزارات متتالية. وكانت قد شاعت أنباء عن إغلاق الملك لنادي الضباط في نفس شهر الحريق بعد أن انتخب النادي اللواء محمد نجيب رئيسا له في مواجهة مرشح القصر، وكانت هناك أخبار عن وجود تنظيم سري للضباط داخل الجيش، وأن بعض قادة هذا التنظيم يلتقون بممثلي القوى الوطنية، وأن لهم علاقات خاصة بالشيوعيين عن طريق أحمد فؤاد، وأحمد حمروش، وخالد محيي الدين. ويوسف صديق. وبعد ظهر يوم 22 يوليو 1952 كان أولئك الضباط يعقدون آخر اجتماع لهم قبل إعلان الثورة. وفي السابعة صباح 23 يوليو فوجئت مصر بصوت المذيع يعلن بيان الثورة التاريخي:

"اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الأخير

من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم، وقد كان لكل هذه العوامل تأثير كبير على الجيش، وتسبب المرتشون في هزيمتنا في حرب فلسطين وأما فترة ما بعد الحرب فقد تضافرت عوامل الفساد وتآمر الخونة على الجيش وتولى أمره إما خائن أو فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها. وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير أنفسنا وتولى أمرنا في الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم ولابد أن مصر ستلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب" لواء أركان حرب محمد نجيب القائد العام للقوات المسلحة.

وفي 26 يوليو وجهت الثورة إنذارا إلى الملك بمغادرة البلاد في السادسة من مساء نفس اليوم والتخلي عن العرش، واستنجد الملك بالإنجليز الذين رفضوا مواجهة الجيش الثائر من أجل ورقة خاسرة، فأبحر الملك من الإسكندرية على اليخت المحروسة إلى إيطاليا وودعه محمد نجيب وأيضا جيفرسون كافري السفير الأمريكي في إشارة إلى ظهور الدور الأمريكي. وقد طرح الأمريكيون على الثورة صراحة ومنذ الأيام الأولى» تحقيق السلام مع إسرائيل» باعتباره عربونا لعلاقات الصداقة.

وقد وجدت الثورة ترحيبا شعبيا واسعا خاصة حين ألغت الألقاب، وحلت البوليس السياسي التابع للقصر، وأعلنت العفو عن كل المتهمين بإهانة الذات الملكية، وأعلنت الجمهورية في 18 يونيو 1952، وأصدرت قانون الإصلاح الزراعي في 9 سبتمبر1952 ، واشتعلت الجماهير بالحماس لها، إلا أن مواقف التنظيمات الشيوعية اختلفت من الثورة الوليدة. فقد أيدت "حدتو" الثورة، ونادت فيما بعد بأن جمال عبد الناصر زعيم «اشتراكي»، بينما اعتبرها تنظيم الراية في حينه حركة فاشية، وكانت هناك مواقف وسط بين هذا وذاك، وأذكر أن تنظيم النجم الأحمر

على سبيل المثال أيد قانون الإصلاح الزراعي. ولكن طالبنا بعدم تفتيت الملكية الزراعية حتى لا يؤدي ذلك لتقليل الإنتاج. ودعونا إلى إقامة المزارع التعاونية والجماعية وميكنة الزراعة في حين أيدناه في تأميم أراضي الإقطاع الشاسعة.

لكن الثورة التي قامت لتحقيق آمال الشعب المصري سرعان ما كشفت عن وجه آخر حينما أصدرت باسم القيادة العامة بيانا آخر في 31 يوليو 1952 تطالب فيه الأحزاب بتطهير نفسها. ومع أن البيان يعترف بوجود الأحزاب لكنه جعل من التطهير شرطا لاستمرار وجودها. وسرعان ما صدر قانون تنظيم الأحزاب في 9 سبتمبر من نفس العام الذي يقضي بإعادة تكوين الأحزاب وإخطار الداخلية بذلك وإيداع أموال الأحزاب في البنوك. وكنت ممن يعتبرون أن الثورة وطنية في مواقفها، لكن يجب معارضتها في مواقف أخرى استنادا إلى التذبذب الذي تتسم به البرجوازية الصغيرة التي خرج من بين صفوفها أغلب قادة الثورة.

في 13-12 أغسطس 1952

وقع الصدام الأعنف بين الثورة والعمال، والذي ترك أثره لفترة طويلة في إشاعة النظرة الحذرة أو حتى النظرة السلبية إلى الثورة. ففي ذلك اليوم تظاهر عمال شركة مصر للغزل والنسيج مطالبين ببعض حقوقهم، فاشتبك البوليس معهم واشتعلت حرائق، وانتهى الأمر بمصرع ثلاثة جنود وثلاثة عمال وجرح 28شخصا. واعتبرت الثورة أن تلك المظاهرة عمل موجه ضد الجيش فشكلت مجلسا عسكريا برئاسة عبد المنعم أمين عضو جماعة الإخوان، ولم يتقيد المجلس بأية قواعد في محاكمة العمال، وأصدر حكمه بإعدام العاملين مصطفى خميس ومحمد البقري دون أن يسمح لأحد بالاستعانة بالمحامين. وأكد عدد من المؤرخين أن تصديق مجلس قيادة الثورة على الحكم لم يكن بالإجماع.

فقد اعترض على حكم الإعدام جمال عبد الناصر ويوسف صديق وخالد محيي الدين.

وكان عبد الناصر قد صرح في إحدى خطبه في 15 نوفمبر1952 والتي ألقيت للطلبة احتفالا بذكرى شهداء الجامعة (بينما محمد نجيب رئيسا) بما نصه: "**إن حركة الجيش ما قامت إلا لتحرير الوطن، وإعادة الحياة الدستورية السليمة للبلاد، وكل هدفنا أن نوفر للشعب حرية كاملة لا يمكن سلبها**".

(من مجموعة خطب عبد الناصر، وزارة الإرشاد القومي طبع الهيئة العامة للاستعلامات القسم الأول صـ1).

ومع ذلك فقد استهدف الإعدام في تقديري إظهار أن السلطة الجديدة لا تريد لأية فئة أخرى أن تشاركها القرار، وأنها مستعدة لأن تفعل أي شيء في سبيل استئثارها بالحكم. ويروي الزميل أحمد الجبالي في كتاب«العمال في الحركة الشيوعية»(لجنة توثيق الحركة) أنه وعدد من زملائه التقى عام 1953 بعد إضراب عمال الشوربجي بالمسئول عن المخابرات حينذاك وهو وفاء حجازي، وأن وفاء حجازي قال لهم:« لقد أعدمنا خميس والبقري، ونحن مستعدون لإعدام مليون لتعيش الثورة»!

وكان موقف الشيوعيين من الثورة يتراوح بين التأييد شبه المطلق- كما فعلت "حدتو"- باعتبار حركة الجيش «تعبيرا عن فئات الشعب، اختزن آمالها وعبر عن آلامها»، وبين الخصومة شبه المطلقة كالقول بأن«حركة الجيش حركة فاشية ينبغي مقاومتها» وهو ما ذهب إليه تنظيم الحزب الشيوعي المصري (الراية) بقيادة فؤاد مرسي وإسماعيل صبري عبد الله ومصطفى طيبة وآخرين، بينما تنظيم «النجم الأحمر» رأى أن أغلب قادة الثورة من البورجوازية الصغيرة المترددة فنؤيدها في بعض المواقف المتقدمة ونعارضها في مواقف أخرى نرى أنها رجعية..

وفي كل الأحوال فقد أطلقت صيحة مصطفى خميس قبل إعدامه

«أنا بريء وأريد إعادة محاكمتي» دخانا كثيفا أسود في سماء الثورة. وكانت هذه القضية ضربة شديدة للعلاقة بين الثورة واليساريين والتقدميين عامة. وفي تلك الأيام جاءني زميل من تنظيم النجم الأحمر واتفقنا على طباعة كتيب بعنوان»أعيدوا محاكمة الخميس والبقري». فكان أول كتيب يصدر بمطبعة حروف في تاريخ الحركة الشيوعية. وكانت المطبعة مخبأة في منزلي.

رغم أن المطبعة كانت أخطر المضبوطات الدامغة في القضايا السياسية حينذاك. ولخطورة بقاء المطبعة في البيت قررت بعد توزيع الكتيب أن أبعدها عن المنزل بأي شكل. وبحثت عن مسكن أخفي فيه كل ذلك، وطفت بصحبة سمسار في منطقة المطرية. وهناك بشارع الكنيسة الفرنساوية استأجرت فيلا ووقعت عقد الإيجار في الأول من نوفمبر باسم مستعار هو»مختار السعيد» ودفعت عربونا جنيها ونصفا لصاحب المسكن واسمه جورج نعيم. وقمت بعد ذلك على عدة مرات بنقل المطبعة وآلتين للرونيو والممنوعات الأخرى من منشورات وكتب إلى هناك.

في 10 ديسمبر 1952

ألغت الثورة دستور 1923 الذي كان ركيزة لمجموعة من الحريات السياسية الليبرالية التي اعتمدت عليها الحركة الوطنية، وفتح ذلك الأبواب لحملة اعتقال واسعة، وبدا واضحا أن طريق التطور الثوري القديم قد أغلق. وفي 16 يناير 1953 أعلن القائد العام للقوات المسلحة حل جميع الأحزاب السياسية وأضاف في بيانه:

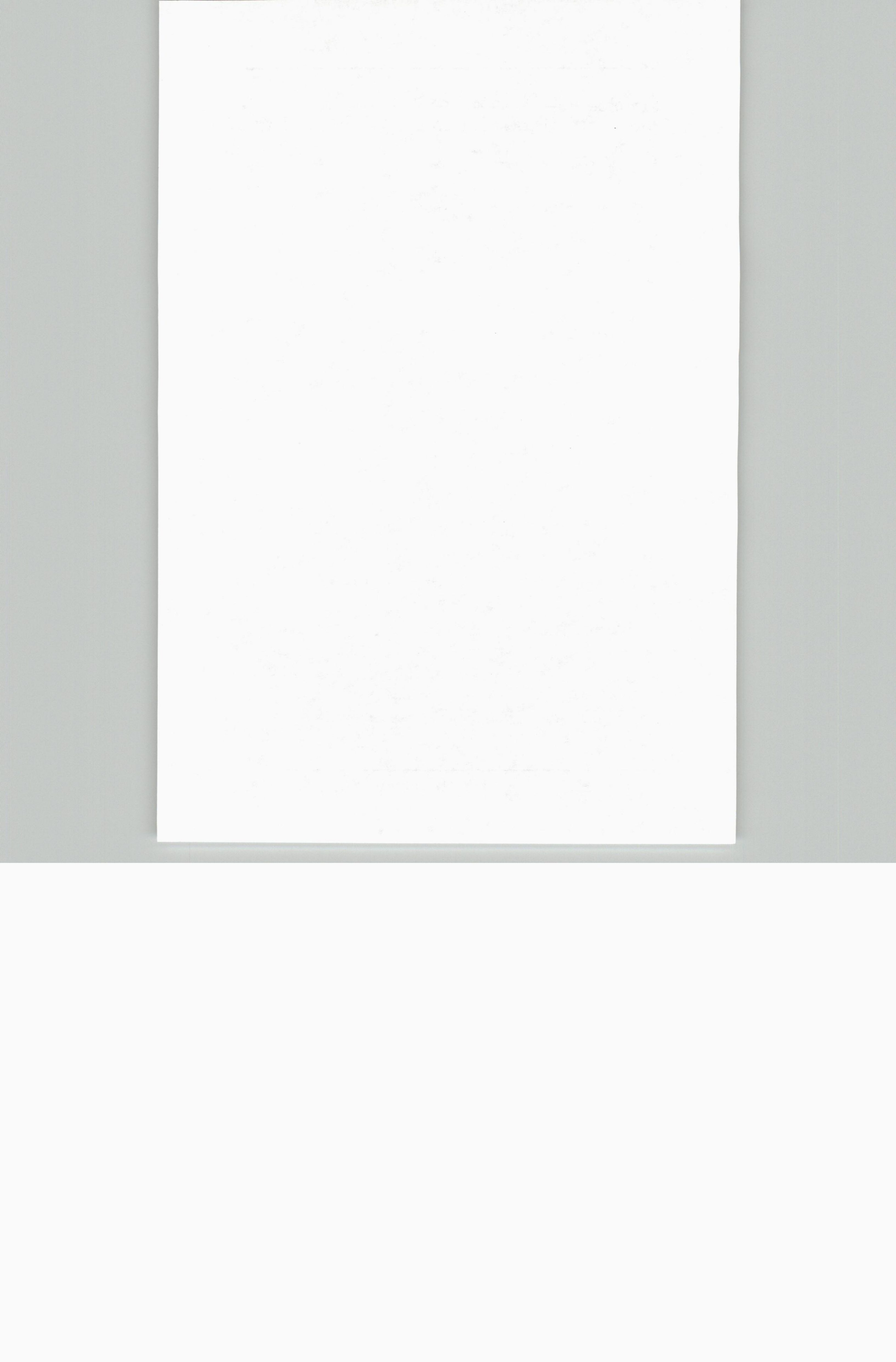
"ومنذ اليوم لن أسمح بأي عبث أو إضرار بمصالح الوطن وسأضرب بمنتهى الشدة على يد كل من يقف في طريق أهدافنا".

وكان ذلك إعلانا بغروب الديمقراطية التي احتمى بها العمل الوطني. وفي نهاية عام 1953 وصل الصدام بين الثورة والشيوعيين إلى أقصى درجة، وبدأ الضرب، فعمت حملة اعتقال واسعة شملت الشيوعيين وارتبطت بمصادرة المجلات والصحف اليسارية مثل الملايين والكاتب وغيرهما. كانت الثورة تضرب أولئك الذين أعطوا أعمارهم من أجل قيام الثورة. وكان أحد المنشورات الأولى للضباط الأحرار يشير إلى أن الجيش سيعود إلى ثكناته بعد تأدية واجبه. وكان جدل طويل يدور داخل المجتمع وبين قادة الثورة بشأن تسليم الحكم إلى حزب منتخب شعبيا. وبالفعل صدرت قرارات من مجلس الثورة في فبراير بعودة الجيش إلى ثكناته 1954.

وخلال ذلك كان اليساريون عامة يدافعون عن العودة إلى الحياة الدستورية، لكن تحركت بعض قطاعات العمال المدفوعين من الرجعية خاصة في مجال النقل للهجوم على مجلس الدولة والمطالبة بإلغاء تلك القرارات، وانطلق المتظاهرون يهتفون «لا أحزاب، ولا برلمان!» وقامت المظاهرات الشعبية تطالب بالديمقراطية في مارس، فقمعتها السلطة، وزجت بالكثيرين في السجون، وقررت حل الأحزاب. وزادت هبة مارس من موقف «النجم الأحمر» فأعلن معارضته للسلطة ووصف الثورة بأنها «ديكتاتورية عسكرية».

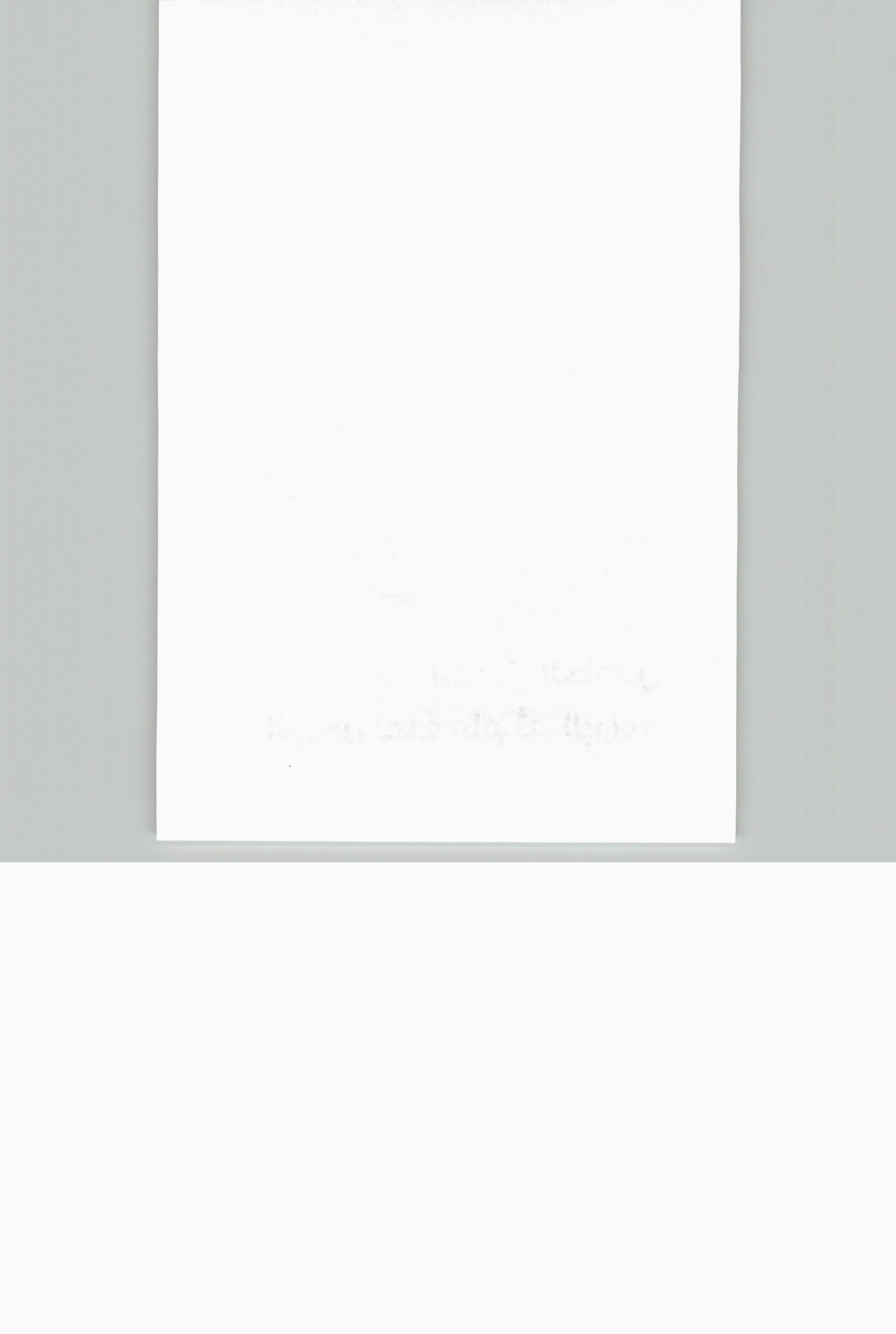
وكنت ذات يوم في بيتي أبحث عن كتاب في الاقتصاد السياسي لمؤلفه «ليونتييف» فلم أجده، وظننت أنني نقلته ضمن ما نقلت إلى الفيلا المخبأ التي استأجرتها باسم مستعار. ثم تذكرت أنني استعرت ذلك الكتاب تحديدا باسم الدكتور لويس عوض من مكتبة الجامعة، ومن ثم قد تكون مسجلة عليه أرقام وبيانات تشير إلى لويس أو إلي أنا شخصيا. وكانت حملات الاعتقال تداهم كل مكان إلى درجة أن السلطة قسمت القاهرة -كما فعلت الفاشية الإيطالية- إلى مربعات سكنية بحثا عن المطلوبين خاصة بعد محاولة اغتيال عبد الناصر في

ميدان المنشية بالإسكندرية. وأدركت أن عليَّ مهما كان الثمن أن أخرج ذلك الكتاب من الفيلا في عزبة النخل، وإلا قادني أو قاد لويس عوض إلى المعتقل.



الفصل الخامس

السجن لمدة عام ثم البراءة



في عصر 3نوفمبر1954 استقليت مع ثريا سيارتنا العرجاء "رينو" الصغيرة ذات المحرك الخلفي، وذهبنا نستكشف الوضع. وقرب الفيلا في المطرية أبطأت السيارة لنرى من هناك. وكان ما توقعت، إذ شاهدت بعضا من رجال المباحث جالسين في حديقة الفيلا يتسامرون، وما أن لحوا السيارة وهي تبطئ من سرعتها حتى هبوا واقفين مهرولين نحونا. وزادت ثريا من سرعة السيارة لكنهم كانوا قد التقطوا أرقام لوحتها. ولم تمض ساعات إلا وكان منزلنا مرتعا لرجال المباحث الذين ألقوا القبض على الجميع بدعوى أن الأوامر لديهم تنص على "أخذ جميع من يتواجد معه". فأخذوا عددا من أفراد العائلة الذين لا يعملون بالسياسة مطلقا ومنهم المهندس: رمزي شاكر أخو ثريا إدوارد بولس خالي وآخرون حوالي العشرة

هكذا عدت مرة أخرى إلى السجون. إلى سجن الاستئناف بميدان باب الخلق حيث قضيت فيه بضع ليال من أسوأ الأوقات التي مرت علي. فقد وضعت في زنزانة بالطابق الأرضي. في ذلك الوقت كان قد صدر قرار بحل جماعة الأخوان المسلمين في 14يناير 54. وترافق ذلك مع اعتقال حسن الهضيبي و450 عضوا من الجماعة. ثم جاءت حادثة المنشية في 26 يوليه من نفس العام حين أطلق محمود عبد اللطيف الرصاص على عبد الناصر في الإسكندرية. فأنشأت الثورة للإخوان محكمة الشعب برئاسة جمال سالم وعضوية أنور السادات وحسين الشافعي. وكانت تلك رابع محكمة من هذا النوع في تاريخ الثورة القصير بعد المجالس العسكرية ومحكمة الغدر ومحكمة الثورة. وأصدرت المحكمة أحكامها بإعدام ستة من قادة الإخوان. والأشغال الشاقة على سبعة آخرين. في

هذا الوقت تحديدا دخلت إلى سجن الاستئناف. وقدر لي كارها وأنا في زنزانة بالطابق الأرضي أن أشهد من نظارة باب الزنزانة، وأنا واقف على جردل البول المغطى، حسين الشافعي بالكاب الأحمر على رأسه, وهو يرافق المحكوم عليهم بالإعدام واحدا بعد الآخر إلى المشنقة. ومن نظارة الباب قدر لي أيضا أن أرى الأستاذ حسن الهضيبي المستشار والمرشد العام للإخوان بعد وفاة حسن البنا، وهو في قبضة الجنود يلاحقونه بالضرب والإهانة. وكان منظرا مؤلما ومقززا ودليلا على وحشية تأباها كل نفس حرة. وفي الليل كانت صور المتجهين إلى المشنقة تطاردني، ولا تمنحني فرصة للنوم، بينما الحشرات الطائرة والزاحفة تبدد أي أمل ولو في خداع النفس بالنعاس.

ونقلت فيما بعد إلى سجن القناطر الخيرية لبضعة أشهر إلى حين محاكمتي في يونيو 1954. وهناك التقيت بالشاعر الكاتب عبد الرحمن الخميسي. وكان أحد أشهر كتاب جريدة»المصري»الوفدية. وكان الخميسي بشهادة سيد عبد الوهاب ندا في كتاب «العمال في الحركة الشيوعية» (مركز البحوث العربية 2001) -أحد أعضاء وفد تكون من أربعة كتبوا بيانا استنكر إعدام الخميس والبقري وأذيع البيان في الإذاعة. كما أن الخميسي نادى مع القوى الديمقراطية بعودة الجيش إلى الثكنات في مجلة الكاتب في مقال بعنوان»ماذا يريد الشعب؟». وألقي القبض عليه في 24يونيو في محل الأمريكين بشارع سليمان باشا، وبتفتيش حقيبته ضبط البوليس معه منشورا مطبوعا على الرونيو بعنوان «عد إلى بلادك يا فوستر دالاس»، ومنشورا آخر من ثلاث ورقات بعنوان «الاستعمار في مصر». ووفقا لملفات المباحث العامة التي نشرها الأستاذ عادل أمين في كتابه «محاكمة الشيوعيين في مصر» طبعة 1996 فقد تمسك الخميسي في التحقيق معه بإلغاء الأحكام العرفية وقال لوكيل النيابة إنه: «لا يرى أي دواع لإقامة الحكم العسكري».

وكان الخميسي عضوا في مكتب الفنانين والكتاب داخل «حدتو». وحين التقيت به في سجن القناطر وجدته من أولئك الأشخاص الذين يروق للمرء مصادقتهم. وفيما بعد كتبت لثريا بتاريخ 12ديسمبر

1954 خطابا حملته إليها زوجة الخميسي أقول لها بالنص: "**أرجو أن تصبحي لزوجته (حاملة خطابي هذا) خير صديقة، وأفيدك بأنه يستخدم زيت السمك بانتظام ولذا أرجوك إعطاءها حاجته منه، وأتصور أن هذا يسير عليك. كما أن زوجته تسعى للحصول على عمل منذ سنة ونصف فإذا تمكنت من الحصول لها على ما تبغي أو إرشادها للطريق الذي انتهجته أنت منذ سنوات يكون ذلك خير ما تفعلين..**".

جدير بالذكر أن زوجته شفيقة جبر كانت تدرس في الجامعة، ثم قطعت دراستها نحو ست سنوات وعند اعتقال الخميسي قررت العودة لإنهاء تعليمها والحصول على شهادة تنفعها في العمل. ولكن الجامعة لم تجد لها عذرا للتخلف طيلة تلك السنوات. فلم يقف بجوارها سوى الدكتور لويس عوض الذي طالبها بشهادات مرضية ودفع مجلس الجامعة للقبول بعودتها. فرجعت ونالت شهادتها بعد ذلك. فيما بعد التقيت بالخميسي مجددا، وكان ذلك في أحد شوارع القاهرة وهو يتمشى مع الدكتور لويس عوض أوائل عام 1959 بعد بدء أضخم حملة اعتقال وتعذيب للشيوعيين، وتأثرت كثيرا بصوته الجهوري وهو يتنبأ صائحا حينذاك:« إني أرى أنهارا من الدماء تسيل في شوارع القاهرة». وهو ما حدث. وقد قابلت الخميسي بعد ذلك بسنوات حين خرجنا من المعتقل عام 1964، وشغلت منصب مدير أقسام الديكور بمؤسسة السينما. التقيت به حين كان الخميسي يتردد على أحد استديوهات المؤسسة ليتابع تصوير فيلم«حسن ونعيمة» الذي كتب له السيناريو والأغاني، وقدم فيه سعاد حسني لأول مرة. وفي 1972 ترك الخميسي مصر، واستقر في موسكو، وعندما سافرت إلى هناك لزيارة إبني المهندس حسام حبشي خلال دراسته بمعهد العمارة، ترك لنا مسكنه لننزل فيه. ومازلت أحتفظ بخطاب منه يقول فيه:

"**أخي الحبيب فوزي حبشي.. كلما اجتمع هنا عدد من شرفاء المصريين ورد ذكرك العاطر فكان قاسما مشتركا**

بين المتحدثين والمستمعين. كيف حالك؟ صحتك؟ مزاجك؟ أرجو أن تكون كما عهدناك تماما، رائدا، صلبا، ممتلئ القلب بالخير من أجل الغير. إن ما تبذره اليوم، وما بذرته بالأمس، وما سوف تبذره غدا، إنما أنبت وينبت في ضمائر محبيك وعقولهم البساتين والبساتين. حسام حبشي معنا هنا، قطعة منك، قطعة من قلوبنا، أراه، فأتذكرك، وأطالع كتاب حياتك النبيلة، فأحس أن جذوري في أرض مصر أعمق وأعرق، وأن شعبنا بخير دائم مستمر.

أرجو لك السعادة والصحة وتحقيق المرامي.

المخلص عبد الرحمن الخميسي - 12 يونيو 1976

صورة خطاب عبد الرحمن الخميسي لي

في يونيو 1954

بدأت محاكمتي أمام محكمة عسكرية وطلب محامي الأستاذ أحمد الخواجة (نقيب المحامين حينذاك) التأجيل. وكان يرى ببعد نظره أن الظرف السياسي قد ينفرج، وأن سياسة عبد الناصر قد تميل لتهدئة الأوضاع والكف عن مطاردة وملاحقة اليساريين، فيتم النظر في قضيتي في حال مواتية وأفضل.

قبل القبض على بفترة، كانت الثورة قد أعلنت حل الأحزاب في 16يناير 1953، ومصادرة أموالها، وسارعت الثورة فأنشأت تنظيمها السياسي الخاص الذي أسمته «هيئة التحرير والتي انضم إليها الكثير من الانتهازيين المتمسحين بالسلطة» وأعلنت قيام التنظيم في 23يناير من نفس العام، وفي 6فبراير افتتح اللواء محمد نجيب والبكباشي جمال عبد الناصر المركز الرئيسي للتنظيم الجديد في المبنى الذي كان يشغله حرس الملك بميدان عابدين. وتولى محمد نجيب رئاسة الهيئة، وأصبح عبد الناصر سكرتيرها العام وأشرف على نشاطها كل من إبراهيم الطحاوى وعبد الله طعيمة . وكان قيام مثل ذلك التنظيم في حد ذاته إشارة إلى عزم الثورة على إخضاع كافة مظاهر العمل السياسي الشعبي لها، فقد قامت الهيئة على أنها وعاء شعبي لحشد الجماهير بديلا للأحزاب. وأشار علي صبري بعد ذلك صراحة إلى أن الهدف من إنشاء الهيئة كان «ضرب أي تحرك لفلول الأحزاب السابقة لها»، ولم تنتظر الثورة تحرك ما أسمته بالفلول، بل مضت إلى تشكيل ما سمى بمحكمة الثورة في منتصف سبتمبر 53 بخطاب من محمد نجيب، وحددت إقامة مصطفى النحاس وزوجته زينب الوكيل، وحاكمت المحكمة 34 شخصا منهم ستة من الوفديين.

وكانت المحكمة موجهة بالأساس لتصفية أكبر الأحزاب حينذاك: الوفد. وفي نوفمبر من نفس العام تفجرت قضية» الجبهة الديمقراطية المتحدة»، حيث ألقت الداخلية في نوفمبر 1953 القبض على واحد وعشرين يساريا ووطنيا بتهمة السعي لإقامة «الجبهة الوطنية

الديمقراطية». وكان المؤسسون للجبهة ينتمون إلى مختلف التنظيمات: الشيوعية، والطليعة الوفدية، والأخوان المسلمين، والاشتراكيين من الحزب الاشتراكي، وأعضاء من حركة أنصار السلام، وفوض زعيم الوفد مصطفى النحاس ممثلا للوفد في الجبهة، ومثل "حدتو" المحاميان أحمد رفاعي وزكي مراد، ومثل الاشتراكيين إبراهيم شكري، ويوسف حلمي من أنصار السلام، وخميس حميدة من الأخوان. وحين وضعت الجبهة برنامجا عاما انسحب الأخوان المسلمون، وأعلنوا القطيعة مع الجبهة. ويستشهد أحمد حمروش بملاحظة هامة لرودنسون في كتابه «مصر منذ الثورة» وقول رودنسون: "**قد يبدو غريبا عند البعض ممن يعتقدون أن الديمقراطية والماركسية لا تتفقان.. أن يروا الماركسيين المصريين يدافعون بحرارة عن النظام البرلماني والعودة إلى الحياة الدستورية**".

وكانت الفنانة المعروفة تحية كاريوكا من ضمن من ألقي القبض عليهم في قضية الجبهة، فقد كانت على علاقة وثيقة باليوزباشي مصطفى صدقي، وهو من المتهمين في القضية. وكانت شقتها الكائنة بالمنزل رقم2 بشارع سكة أبو الفدا تستخدم في ترتيب بعض الاجتماعات، وإخفاء المنشورات. وفي 3نوفمبر 1953 هاجم البوليس مسكن تحية كاريوكا وقبض عليها، وقضت فترة في سجن مصر. ويوضح العدد الأول من «لسان حال الجبهة» المناخ السائد حينذاك في مصر، ومطالب الحركة السياسية وموقف الشيوعيين المتمسك بالديمقراطية. فقد أشار العدد الأول من نشرة الجبهة إلى أن أهداف الجبهة الأساسية هي: القضاء على الاستعمار الأنجلو- الأمريكي وطرد قوات الاحتلال، وتحقيق الديمقراطية، وأن ذلك لن يتم إلا بالقضاء على الحكم العسكري، وإجراء انتخابات حرة، وإعادة الحياة النيابية، وإطلاق الحريات الأساسية للشعب، والإفراج عن كافة المعتقلين السياسيين. وقد أثار وجود اسم الفنانة تحية كاريوكا في قضية سياسية من هذا النوع ضجة، ولفت الأنظار إلى اليساريين، إلا أن علاقة كاريوكا

بالقضية كانت ضعيفة. فقد كان معروفا أن صلتها بهذا النوع من العمل العام واهية. ومحصورة تقريبا في حدود علاقتها باليوزباشي مصطفى صدقي. لكن عملية قمع المعارضين كانت مستمرة ولو بتلفيق التهم. وكان أغلب قيادات الوفد وعدد ضخم من اليساريين قد أصبح خلف القضبان بعد أن أنهت محكمة الثورة جلساتها في أبريل 1954. في هذا المناخ الذي توحشت فيه السلطة لتثبيت دعائم حكمها قدمتني الداخلية في القضية التي اعتقلت على ذمتها في أغسطس 1954 وبدأت محاكمتي في يونية سنة 1955 أمام محكمة عسكرية. علاوة على قضيتي كانت هناك قضيتان أخريان أمن دولة في نفس الفترة:الأولى المتهم فيها د. فخري لبيب ومحمد عثمان بتأسيس منظمة «طليعة الشيوعيين». والثانية قضية تنظيم» طليعة العمال» المتهم فيها شوقي مجاهد ونسيم يوسف.

بالنسبة لقضيتي. طلب المحامي الأستاذ أحمد الخواجة التأجيل. إلى أن أعيدت المحاكمة في أكتوبر من نفس العام. ولكنني استطعت بمساعدة من بعض الأصدقاء المخلصين أن أفسد القضية تماما. وكانت تحريات الأمن كلها والأدلة قائمة على أساس أنني مستأجر الفيلا الكائنة فى شارع الكنيسة الفرنساوية في المطرية حيث تم ضبط المطبعة والكتب والنشرات. وأن هناك عقد إيجار موقع باسمي مع صاحب الفيلا. ويبدو من ذلك أن التهمة ثابتة علي. وهنا تذكرت. لا أدري كيف أنني حين كنت وكيلا لقسم الإنشاءات في تفتيش مباني السكك الحديدية. سافرت ذات يوم إلى الإسكندرية لأقوم بزيارة تفتيش على إنشاءات مباني محطة سيدي جابر. وهناك أعطيت تعليمات محددة للمهندس المشرف على تنفيذ العملية. أقول تذكرت أن الورقة التي اشتملت على تلك التعليمات بخط يدي كانت مازالت في جيب سترتي في منزلي. ما الذي جعلني أتذكرها؟ وطلبت من ثريا أن تأتيني بتلك الورقة في زيارتها القادمة إلي. وحين جاءت بالورقة وأعطتها لي قمت بتوقيعها بتاريخ ذات اليوم الذي وقعت فيه عقد استئجار الفيلا

وهو9 أكتوبر1954وهكذا يصبح توقيعي على عقد الإيجار مشكوكا فيه. إلا أن ذلك لم يكن كافيا. كان من اللازم أن تدخل هذه الورقة في ملف عملية إنشاءات محطة سيدي جابر. وساعدني أصدقاء مخلصون في إدراج الورقة في ملف العملية، وترقيمها حسب التسلسل المضبوط بكل دقة.

حين بدأت محاكمتي لم أكن واثقا من نجاح تلك الحيلة. لكن الأمل لم يفارقني. استدعت المحكمة الشاهد الرئيسي ضدي وهو صاحب الفيلا جورج نعيم الذي وقعت معه عقد الإيجار، وزوجته التي قررت أنها رأتني مرة واحدة وأنا أحضر حقيبة جلدية إلى المسكن حوالي العاشرة مساء. وعند استجوابي قلت إنني كنت في الإسكندرية يوم توقيع عقد الإيجار، وبقيت هناك حتى السادسة مساء. وطلب الدفاع شهادة زميلي المهندس محمد فتح الباب الذي كان في الإسكندرية في موقع العمل نفس اليوم. وعرضت المحكمة على الشاهد الملف الوارد من مصلحة السكك الحديدية وعليه إشارة بخطي عن:» إيقاف صب الأعمدة عند المداخل وعمل باب». فأكد الرجل مروري حينذاك. وقال إنني انصرفت من الإسكندرية في الثالثة والنصف.

وهنا صال وجال المحامي أحمد الخواجة متسائلا: كيف يمكن للمتهم أن يكون في الإسكندرية ويوقع ورقة بتعليمات هندسية هناك، وأن يكون في نفس الوقت في القاهرة ليوقع عقد استئجار الفيلا؟!. أيعقل هذا؟

وفي هذه اللحظة أحسست أن إمكانية إفساد القضية تزداد، وأن ثمة أملا يكبر.

وسألني المستشار محمود عبد اللطيف باستغراب:

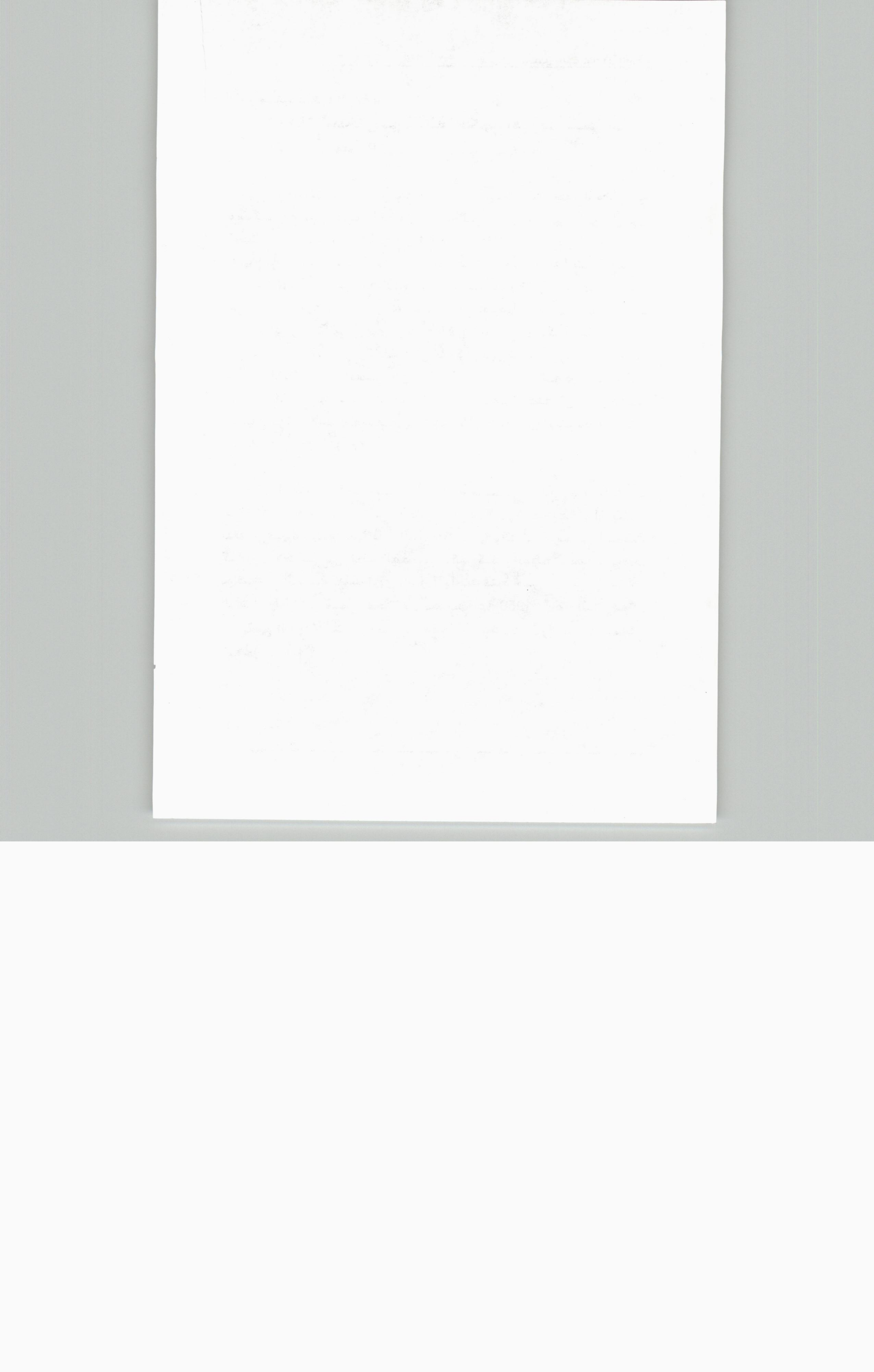
- ولماذا لم تذكر هذه الحقائق أثناء التحقيق معك؟

وأجبته بهدوء الواثقين في العدالة:

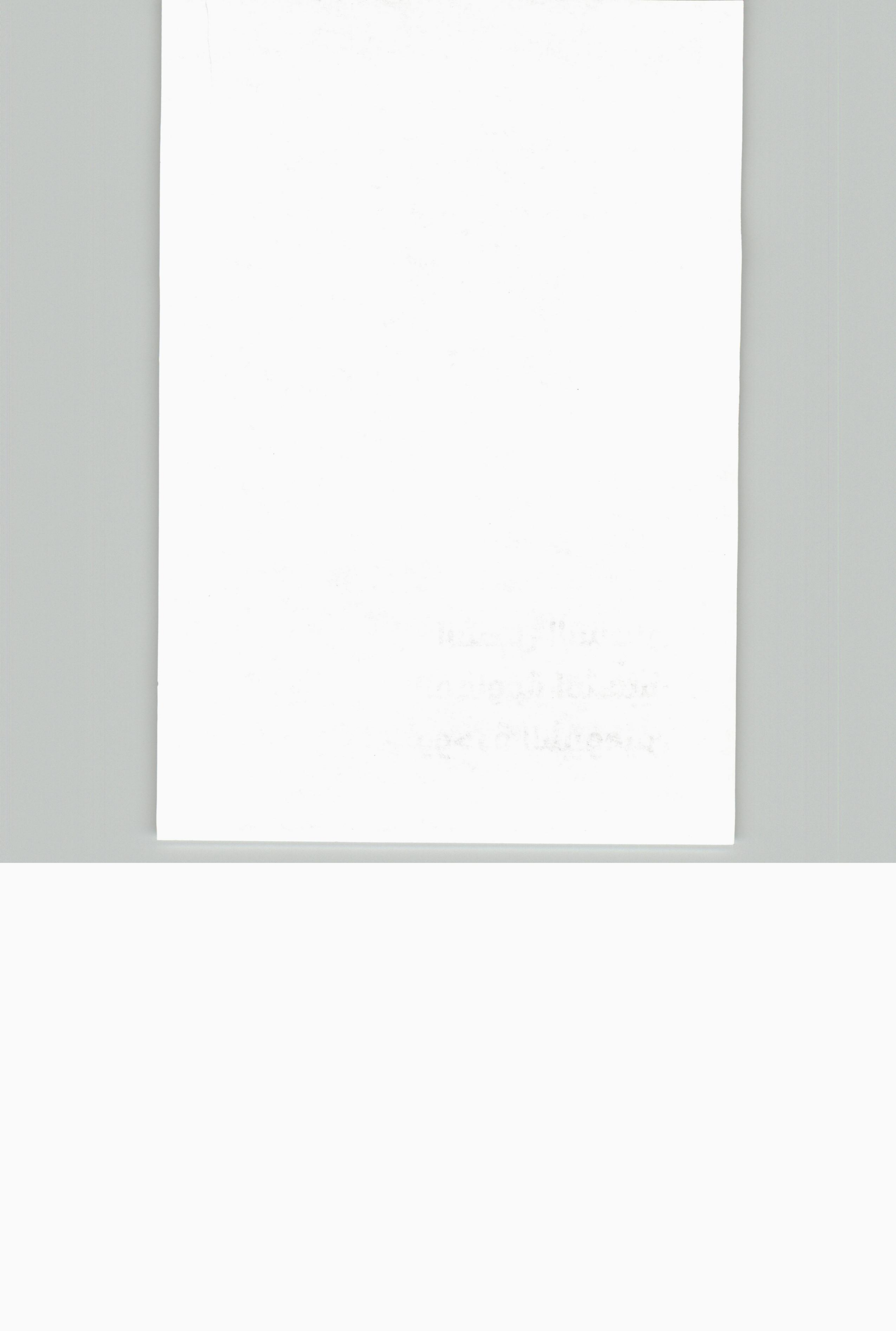
- هذا لأن ثقتي في عدالة المحكمة أكبر من ثقتي في النيابة أو غيرها!

وصدر الحكم بالبراءة وجاء في نصه: «وحيث أن وجود المتهم في الإسكندرية يوم تحرير العقد أمر محقق. كان من العسير بل من المستحيل القول بأنه تمكن من العودة في ذلك اليوم إلى القاهرة ثم ذهب إلى ناحية المطرية واستعان بالسمسار وذهبا معا إلى المسكن حيث عايناه قبل حلول الظلام. وحيث إن الثابت من تقرير حضرة الطبيب الشرعي أن توقيع مختار السعيد على عقد الإيجار مكتوب بخط المتهم. إلا أن المحكمة لا ترى أن هذه القرينة يصح أن تكون سببا لإدانة المتهم بعد أن تضافرت الأدلة على أنه كان في مكان آخر.. وحيث إن ما قرره الضابط حسن المصيلحي بجلسة اليوم من أن المتهم منضم إلى منظمة النجم الأحمر. فإن ما قال به الضابط لا يصح أن يكون سببا للقطع بهذا الانضمام بعد أن انتفت كل صلة بين المضبوطات التي عثر عليها وبين المتهم».

وزاد المستشار على ذلك بعد نطقه بالحكم توبيخ رجال المباحث الذين لا يتوخون الدقة في تحرياتهم متسائلا: كيف يعقل أن يكون المتهم في مدينتين في ذات الوقت؟!. نعم. وقد أضمرت لي المباحث كراهية لإفلاتي من تلك القضية. فقد كانت الأدلة كلها متوفرة. وواضح أن القصة ظلت تروى داخل المباحث فترة حتى أن أحد الضباط الشبان قال لي فيما بعد أثناء تعذيبي عام1959: **"آه.. أنت فوزي حبشي الذي أفلت من قضية 1954؟"** . **وكدت أقول له حينذاك: "نعم إنه أنا"!**



الفصل السادس
المقاومة الشعبية
ووحدة الشيوعيين



بعد عام كامل من الاعتقال عدت إلى الحياة في أكتوبر 1955 وسط فرحة الأهل والأصدقاء، وأصبح بوسعي أخيرا أن أرى ثريا وأولادي حسام وممدوح ونجوى وأن أجلس إليهم لأتحدث معهم كيفما أشاء وقتما أشاء. كان الأولاد قد كبروا قليلا، ولم أكن واثقا حين رأيتهم للوهلة الأولى إن كانوا يذكرونني أم لا. وعدت ثانية إلى عملي في هندسة السكك الحديدية، ورقيت إلى الدرجة الخامسة، ثم الدرجة الرابعة وصرت من كبار صغار موظفي الدولة تنتظرني أمام مدخل بيتي صباح كل يوم سيارة حكومية لتقلني إلى عملي، ومع أن ظروفي كانت تبدو مستقرة، إلا أنني واصلت عملي السياسي، وأذكر أنني بحكم عملي كنت أحمل تصريحا بالانتقال المجاني بالدرجة الأولى في السكك الحديدية، وقد انتهزت ذلك الامتياز وسافرت مع السيدة روحية الساعي إلى سجن الواحات الخارجة لزيارة زوجها الأستاذ: عبد الجابر خلاف، وأخيها الرفيق سعد الساعي الذي كتب عنه الشاعر فؤاد حداد يمازحه «سعد الساعي.. الكادر الواعي». وبت ليلة في استراحة المصلحة بمحطة أسيوط، ثم واصلت السفر إلى الأقصر. وحين عدت إلى القاهرة استدعاني رئيسي المباشر في العمل المهندس رفعت شفيق وسألني بسخرية وهو يضحك: «كنت بتعمل إيه في الواحات؟». وضحكت بدوري معترفا بأنني كنت أزور الأصدقاء هناك! وانتهى الأمر عند هذا الحد.

قبل خروجي من المعتقل بعدة شهور، كانت الثورة في طريقها لإدراك حقيقة الموقف الأمريكي من مصر وطبيعة الدعم الأمريكي المطلق لإسرائيل. وكانت القيادة المصرية قد أرسلت عدة بعثات من قبل

إلى أمريكا تطلب سلاحا للجيش. ففي خريف 1952 توجه علي صبري إلى هناك للاتفاق على شراء طائرات. ثم عاد خاوي اليدين. وفي ديسمبر من ذات العام وافقت أمريكا على تزويد مصر بأسلحة خفيفة تصلح فقط لقمع المتظاهرين! وفي ربيع 1953 سافرت بعثة أخرى لواشنطن لنفس السبب وعادت دون نتيجة. ثم ربطت أمريكا مبدأ تسليح مصر بدخول مصر في حلف وثيق الصلة بالاستعمار. في سبتمبر 1954 زار نوري السعيد القاهرة وحاول إقناع عبد الناصر بالتعاون مع الغرب والدخول إلى حلف بغداد. الذي وقعت اتفاقياته في يناير 1955 تركيا وإيران وباكستان والعراق وبريطانيا بالارتباط مع حلف الناتو. وهو حلف أشبه ما يكون بمشروع «الشرق الأوسط الكبير» الذي تعيد أمريكا طرح مثيله هذه الأيام على المنطقة والذي تدعو فيه لتحالف الدول المعتدلة وهي مصر والأردن الموقعتان لمعاهدات صلح مع إسرائيل ثم دول الخليج الستة مع أمريكا؟! في مطلع القرن الحادي والعشرين.

لكن مصر في ذلك الوقت رفضت سياسة الأحلاف الاستعمارية. وأدركت في نفس الوقت حقيقة الموقف الأمريكي وأهدافه. وفي هذه الفترة شرعت إسرائيل تعربد على الحدود المصرية. وشنت غارة وحشية على قطاع غزة في 28 فبراير 1955. كانت أول هجوم إسرائيلي منذ اتفاقية الهدنة عام 1949. هاجمت خلاله معسكرا للجيش المصري. وقتلت ثمانية وثلاثين جنديا مصريا. غير عدد من المدنيين الذين جرحوا وقتلوا. ووجدت قيادة الثورة نفسها عاجزة عن الرد. في أول اختبار حقيقي لها لقدرتها على الدفاع عن البلاد أمام الجماهير. واقتنع عبد الناصر بالتجربة وحدها أن أمريكا ستترك الثورة فريسة بلا سلاح لإسرائيل. وبعد شهرين فقط. في أبريل 1955 شارك عبد الناصر في مؤتمر باندونج معلنا سياسة» الحياد الإيجابي» مع كبار قادة حركات التحرر مثل سيكوتوري. وأحمد سوكارنو. ونهرو. وغيرهم. وفي الطريق إلى المؤتمر اجتمع عبد الناصر برئيس الوزراء الصيني شوان لاي. وأوضح له حاجة مصر إلى السلاح. وإمكانية الحصول عليه من الاتحاد السوفيتي. وبعد

انتهاء المؤتمر بعث شوان لاي برسالة لعبد الناصر في القاهرة يخبره فيها باستعداد السوفيت لمده بالسلاح. وهكذا تم ما عرف بصفقة الأسلحة التشيكية التي تمت في سبتمبر من نفس العام، ولم يظهر السوفيت في الصورة حرصا منهم على نجاح مؤتمر قمة للدول الكبرى في جنيف بهدف تخفيف التوتر الدولي. ولهذا أجرى الجانب التشيكي المباحثات مع مصر في براغ، وتم الاتفاق على قوائم الأسلحة والأسعار. ويشير د. عبد العظيم أنيس في مقال له بمجلة الهلال (يوليو 2002) إلى أن أمريكا - بعد التوقيع على صفقة الأسلحة - قامت بآخر محاولة لها لمحاصرة الثورة فأرسلت إلى القاهرة بوزير الخزانة الأمريكي أندرسون، الذي عرض على عبد الناصر تمويل بناء السد العالي مقابل الصلح مع إسرائيل، لكن عبد الناصر رفض الصفقة.

قلت إننا تحفظنا في موقفنا من الثورة في مطلعها، ثم أيدناها في بعض المواقف حتى إن أحد أصدقائنا العامل: عيد صلح قد شارك في مظاهرة قام بها عمال مصنع كفر الدوار وكان في قيادتها العاملان: خميس والبقري وكانت تنادي بتأييد الثورة وتطالب بتحقيق بعض الأهداف العمالية والغريب أن فرقها البوليس بالرصاص وسريعا ما شكلت محكمة عسكرية وحكمت علهيا بالإعدام.. وهنا أذكر أن تنظيم «النجم الأحمر» طبع كتيبا باسم: «أعيدوا محاكمة خميس والبقري» وقد كان أول كتاب يصدر لنا على مطبعة حروف!.. وازداد موقفنا وضوحا خلال أزمة مارس عام1954، وعندما ضربت الثورة العمال في كفر الدوار وأعدمت العاملين خميس والبقري، اختلف موقعنا نحو تأييد الثورة بعد مؤتمر باندونج عام 1955، وبعد صفقة الأسلحة التشيكية، والعدوان الثلاثي الغاشم الذي جاء لتأديب مصر لأنها أخرجت المنطقة من دائرة احتكار الغرب للسلاح. لقد شكلت صفقة الأسلحة نقطة تحول هامة. وأعلن عبد الناصر في خطاب له في نفس الشهر: "**أننا حاولنا طوال السنين الثلاث الماضية أن نسلح الجيش بأسلحة ثقيلة بكل وسيلة.. لا بغرض العدوان.. ولكن بغرض**

الدفاع.. بغرض الأمن.. بغرض السلام.. وقد أرادوا أن يسلح الجيش بعد أن نوقع على وثيقة، وبعد أن نوقع على مواثيق.. وأننا أعلنا أننا لن نسلح الجيش على حساب استقلالنا. ولن نسلح الجيش على حساب حريتنا".

وكانت الصفقة خطوة شجاعة، لقد تم الإعلان عنها بينما لم تكن القوات الإنجليزية قد أنهت انسحابها من مصر. وكان المفروض وفقا لمعاهدة الجلاء المعروفة باسم (جمال - هيد) أن ينسحب آخر جندي بريطاني في 18 يونية 1955، ولم تكن اتفاقية الجلاء تستجيب بالكامل لشعار الحركة الوطنية الراسخ«الجلاء بلا شروط» فقد تضمنت المادتين الثالثة والرابعة النص على أن تقدم مصر قاعدة قناة السويس لإنجلترا في حال تعرض تركيا لهجوم خارجي، والتسهيلات اللازمة لذلك، بما في هذا استخدام الموانئ المصرية. إلا أن صفقة الأسلحة أججت حماس الشعب للثورة، وأشعرته بأن عبد الناصر جاد في بناء جيش قادر على الدفاع عن بلاده مهما كان الثمن.

وحاولت بريطانيا أن تعاقب مصر على خطوة الأسلحة التشيكية، فخفضت بشكل حاد كميات القطن المصري الذي كانت تستورده من مصر، وللمرة الأولى قام الاتحاد السوفيتي بشراء ثلث محصول القطن المصري في الموسم الزراعي 1955 - 1956! وفي فبراير 1956 أعلن أن الاتحاد السوفيتي وافق على مساعدة مصر في مجال الطاقة الذرية. وفي مايو من نفس العام اعترفت مصر بالصين الشعبية مما أجج حملة الغرب العداء الاستعماري للثورة الوليدة في الغرب. وكانت المفاوضات تدور مكثفة مع الجهات المالية الدولية لتمويل مشروع بناء السد العالي، لكن البنك الدولي وضع شروطا قاسية، وصفها عبد الناصر بعد ذلك بقوله: "**أراد البنك أن يرسل لنا من يجلس مكان وزير المالية، وآخر يجلس مكان وزير التجارة، وثالث يجلس مكاني أنا**"!.

وسحب عرض تمويل السد العالي في 19 يوليو 1956 بشكل نهائي. وقال عبد الناصر إن ذلك ليس سحبا لعرض بتمويل السد. لكنه هجوم سافر على النظام. وكان قد صرح قبل ذلك بقوله: "**إن في جيبي عرضا سوفيتيا لتمويل السد. وفي نيتي قبوله لو حدث أي تعثر في المفاوضات مع واشنطن**".

ولم يجد عبد الناصر ردا على ما جرى سوى تأميم قناة السويس التي حفرها المصريون بدمائهم وظلت زمنا دائما رمزا للسيطرة الأجنبية. وبرر عبد الناصر ذلك بأنه سوف يستخدم دخل القناة لبناء السد. وكان التأميم لطمة هائلة للقوى الاستعمارية مجتمعة.

في 26 يوليو:

أعلن عبد الناصر من الإسكندرية تأميم القناة. وفي 29 أكتوبر. بعد نحو ثلاثة شهور من التأميم هاجمت فرنسا وبريطانيا وإسرائيل مصر. وكان احتجاج الاتحاد السوفيتي عنيفا. وبعث بثلاث برقيات إلى الرئيس الأمريكي. ورئيس الوزراء البريطاني. ورئيس الوزراء الفرنسي. وعرفت البرقيات بإنذار بولجانين. وفي برقيته لرئيس الوزراء البريطاني إيدن قال بولجانين صراحة: "**إن مسألة قناة السويس كانت مجرد ذريعة لتبرير العدوان الإنجليزي الفرنسي الذي يأمل في تحقيق أهداف أخرى بعيدة كل البعد عن هذا الأمر**".

وجاء في البرقية بالنص:

> "**ولنسأل أنفسنا في أي وضع كان يمكن أن تجد فيه إنجلترا نفسها. إذا ما هاجمتها دول أكثر منها قوة تملك كل أنواع الأسلحة القتالية الحديثة؟ علما بأن هذه البلدان ليست في حاجة في الوقت الراهن إلى أن ترسل إلى شواطئ إنجلترا الأساطيل البحرية والجوية.**

بل يكفي أن تستخدم معدات أخرى هي على سبيل المثال أسلحة صاروخية. فإذا ما استخدمت الأسلحة الصاروخية ضد إنجلترا أو فرنسا لكنتم قد سميتم هذا إجراء وحشيا، ولكن بما يختلف الهجوم غير الإنساني الذي تقترفه القوات المسلحة لإنجلترا وفرنسا على مصر العزلاء تقريبا؟".

وبلغ الإنذار قوته الساحقة بإعلان السوفيت في ختام البرقية -الإنذار:"**إننا ممتلئون بالعزم على استخدام القوة لسحق المعتدين**".

وزاد من الشعور بجدية الإنذار فتح باب التطوع في المدن السوفيتية لمن يريدون القتال إلى جانب مصر فتدفق الآلاف لتسجيل أسمائهم!. واضطرت قوات العدوان الثلاثي للانسحاب في 23ديسمبر، وكانت مصر كلها تفور رغبة في القتال. وتحمسنا نحن الشيوعيين لتأميم القناة، وبروز النزعة الوطنية لمواجهة الاستعمار، وقام الشيوعيون بدور بارز في تعبئة الجماهير، وكتب الشاعر كمال عبد الحليم قصيدته التي تغنى بها الشعب في كل مكان:

دع سمائي فسمائي محرقة..
دع قتالي فمياهي مغرقة
و احذر الأرض فأرضي صاعقة..
هذه أرضي أنا..
وأبي ضحى هنا..
وأبي قال لنا..
مزقوا أعداءنا!

وكتب فؤاد حداد:

قال لك ح نبني السد قال لك ح نبني السد

قال الوطن كلمته.. ومشينا يد في يد
والسرب لما انطلق الفرع الأخضر مد
شفنا ابتسام الشهيد لما الحقوق تترد
شفنا البشاير جيوش فتحت نهار الغد

ورغم أن عددا من الشيوعيين كان مازال داخل السجون، إلا أن أعدادا أخرى كبيرة شاركت في التصدي للعدوان الثلاثي. وكان الرفيق المرحوم محمد على عامر، الشيخ الذي جاوز السبعين حينذاك يسير في شوارع القاهرة يفاخر بالمدفع الرشاش الذي يحمله وباستعداده للموت دفاعا عن الوطن. وتطوع أغلبنا، بما في ذلك زوجاتنا للتدرب على إطلاق النار في الساحات والنوادي التي فتحت أبوابها في تلك الأيام لشحذ الهمم وتعبئة الناس بروح القتال.

ويشير نبيل الهلالي في كتابه "اليسار المفترى عليه" إلى أن مجموعة من الشيوعيين تمكنت من التسلل إلى داخل مدينة بورسعيد المحتلة، وتولت تنظيم قيادة المقاومة الشعبية وأسست الجبهة المتحدة للمقاومة الشعبية وأصدرت مجلة الانتصار السرية. وكان من بين أولئك: عبد المنعم شتلة، وإبراهيم المانسترلي، وغيرهما. وفي كتابه ثورة يوليو استشهد أحمد حمروش بشهادة محمد أبو نار أحد ضباط الثورة التي قال فيها:»اشتركت في المقاومة الشعبية ضد العدوان الثلاثي عام 1956، وقد لعب الشيوعيون دورا بارزا في المقاومة في الوقت الذي هرب فيه مدير المباحث العامة حسين رشدي من المدينة». وخلال محاكمة الرفيق عبد المنعم شتلة أمام المحكمة العسكرية العليا عام 1959 قال: «كان الأهالي يتحدثون بمرارة عن طيراننا الذي لم يظهر على الإطلاق للدفاع عن المدينة والأميرالاي محمد الموجي قائد حامية بورسعيد والقائمقام عبد الرحيم قدري الموكل لهم الدفاع عن المدينة الذين فروا ومعهم ضباطهم في ثياب مدنية وتركوا المدينة تواجه قوات الاحتلال»..

وطلب شتلة استدعاء البكباشي لطفي واكد وهو من ضباط الثورة وكان المسئول السياسي من قبل عبد الناصر لقيادة المنطقة الشرقية أثناء العدوان. وسأله رئيس المجلس:

- هل تعرف الشيوعيين؟

أجابه البكباشي لطفي واكد:

- نعم، وهم أول من فكر في دخول بورسعيد وهم أول من فتح لنا الطريق إلى بورسعيد المحتلة.

وفي شهادة لضابط آخر هو محسن لطفي سأله رئيس المجلس:

- هل تعرف أن عبد المنعم شتلة وزملاءه من الشيوعيين؟

أجاب محسن لطفي:

- نعم.

رئيس المجلس:

- وماذا تعرف عنهم أثناء العدوان؟

قال:

- كنت أعمل أثناء العدوان بالتنسيق مع قادة المنطقة الشرقية، ولم يكن لدينا أية فكرة عن دخول بورسعيد وهم الذين اقترحوا ذلك ووضعوا خطته، وهم الذين فتحوا لنا الطريق إلى بورسعيد، كما أنهم هم المحركون لجبهة المقاومة الشعبية التي كانت تضم كل شعب بورسعيد والتي تحملت عبء كافة العمليات العسكرية والجماهيرية هناك".

بينما يقول السيد يوسف في كتابه «مذكرات معتقل سياسي»:

كانت قريتنا قد تطوع منها عدد كبير وتسلل منهم لبورسعيد أربعة من الشباب: عبد السلام الخشان، وفتحي مجاهد، وأحمد العدل، ومحمود صبيح وكانوا يحملون قفغا صنعت باليد

وامتلأت بالسمك الذي يخفي تحته في جيوب سرية منشورات تحث شعب بورسعيد على المقاومة وترفع الروح المعنوية وقد دخلوا المدينة على أنهم صيادون.

ويحكي محمد على فخري في «شهادات ورؤى» كيف قصفت قنابل العدوان في اليوم الأول سجن بورسعيد، وكان مأمور السجن قد غادر المدينة، فطلب منه أحد الضباط وهو المسئول الثاني عن السجن مساعدة الشيوعيين في فتح أبواب السجن لكي لا يموت المسجونون هناك تحت القصف، ويقول فخري إنهم أخرجوا نحو ألف سجين، وأنه خطب فيهم قائلا لهم إنه سيفتح لهم أبواب الزنازين، على أن يتجهوا لتقاطع شارعي كسرى والدقهلية حيث أحد مواقع المقاومة، وأن المساجين قد فعلوا ذلك، وأحاطوا كتائب المقاومة بمشاعر متدفقة بالرغبة في الدفاع عن مصر. ويقص أيضا كيف اختطفت المقاومة ضابط مخابرات بريطانية يدعى وليامز، وأعدمته، وكان التخلص من جثته مشكلة، فقررت المقاومة أن تحمله في نعش، وسارت به في جنازة تحت أبصار القوات البريطانية إلى مقابر الحي العربي وهي تهتف:

"**لا إله إلا الله.. محمد رسول الله**".

ولم ينتبه الإنجليز لذلك الحماس الغريب الذي كان المشيعون يهتفون به وهم يسيرون خلف النعش! كانت هناك مجموعات أخرى من الشيوعيين التي اتجهت لمدن القنال الأخرى، وكان الرفيق رشاد الملاح عامل أحذية وعضو بالنجم الأحمرعلى رأس مجموعة ذهبت إلى الإسماعيلية وظلت هناك، ويقص الرفيق رمسيس لبيب في سلسلة «شهادات ورؤى» كيف أنه سارع إلى التطوع مع زملائه فور وقوع العدوان في الكتيبة التي ألفتها كلية الحقوق باسم الحرس الوطني. تبرع الكثيرون من الشيوعيين بما يملكون، فقد اتجه محمد سيد أحمد ومعه ثلاثة آلاف جنيه وكانت في ذلك الوقت مبلغا ضخما، وأعطاها لخالد محيي الدين رئيس تحرير المساء حينذاك، وقال له: إنها

تبرع للحكومة، أرجو نقلها إليها.

فى تلك الفترة فتحت بيتي في حدائق القبة، مركزا لتجميع كل من يريد حمل السلاح، وكنا نجوب شوارع الحي، ندعو المواطنين للتدرب على حمل السلاح، ونبث الحماس في نفوسهم، ونؤجج شعورهم الوطني بأن مصر في خطر، وعلى الجميع أن يهبوا لحمايتها. ولم يكن هناك شيوعي في مصر لم يحمل السلاح، أو يتبرع، أو يتطوع بالمال أو الدم، أو يشارك في التعبئة والتحريض على قتال المعتدين وتطهير أرض الوطن.

وأدى تأميم القناة، وصمود مصر في مواجهة العدوان الثلاثي، إلى التفاف الجماهير حول زعامة عبد الناصر، وتضاعفت شعبية الثورة، إلا أن الأوضاع الديمقراطية كانت مازالت متدهورة. وعندما صدر دستور 1956 جاء في أحد نصوصه أن قرارات مجلس قيادة الثورة قرارات سيادية لا يجوز الطعن فيها. ومنح الدستور صلاحيات ضخمة للرئيس، فأصبح الرئيس هو الذي يعين الوزراء، ويترأس مجلس الوزراء، وهو القائد الأعلى للجيش، وهو الذي يضع السياسة العامة للحكومة في كل النواحي، ثم أن اختيار الرئيس يكون بالاستفتاء وليس بالانتخاب. وظل معمولا بهذا الدستور حتى عام الوحدة مع سوريا في فبراير 1958، فتم وضع دستور آخر لفترة انتقالية. وكان ذلك التناقض بين المنحى الوطني للثورة، والطابع الاستبدادي للحكم، هو الذي جعل الشيوعيين يفكرون في توحيد تنظيماتهم المختلفة، علاوة على أن مطلب الوحدة بين كافة المنظمات كان مطلبا تاريخيا في الحركة وهدفا يتطلع إليه جميع اليساريين. ولا يفوتني هنا أن أذكر أن البطاقة الشخصية لم يكن مدونا بها الديانة قبل سنة 1952.

كانت تلك سنوات التحول، العاصفة، في تاريخ مصر، وكان الطابع الوطني للحكم يغري الكثيرين بتأييد خطواته، وكان الطابع العسكري للحكم يدعو الكثيرين للتمسك بمنظمة ثورية تجمع اليساريين كافة.

وكنت من المتحمسين لوحدة الشيوعيين، وشهد بيتي اجتماعات كثيرة للعمل على توحيد صفوف اليسار المصري. وأذكر في هذا الصدد أنني حين كنت في سجن القناطر تمكنت بمساعدة الأستاذ:محمود أمين العالم من الحصول سرا على رسالة» بالم دات» سكرتير الحزب الشيوعي الإنجليزي التي انتقد فيها أوضاع الحركة الشيوعية المصرية ذاكرا أن الصراعات بين الشيوعيين المصريين تفوق صراعهم مع الديكتاتورية العسكرية. وكان لتلك الرسالة أثر كبير في تقوية تيار الوحدة، وبالفعل ظهر عام 1955 ما سمي بالحزب الشيوعي الموحد الذي ضم تنظيمنا»النجم الأحمر» وأربع منظمات أخرى هي «الحركة الديمقراطية»، و«نواة الحزب الشيوعي»، و«طليعة الشيوعيين»، و«التيار الثوري». كانت تلك وحدة من خمس منظمات صغيرة، ولكننا اعتبرنا أنها خطوة على الطريق. وقد أدى العدوان الثلاثي إلى تلاقي جميع كوادر الحركة الشيوعية خلال المقاومة عند اختراقها للحصار المضروب على بورسعيد، وعند تنظيمها للمقاومة، فتعارفت قواعدها وكوادرها. وسهل ذلك بعد فترة انضمام رفاقنا من تنظيم»الراية» إلينا، فتغير اسم الحزب من الشيوعي الموحد إلى الشيوعي المتحد أوائل عام1957. وكانت زعامة عبد الناصر تترسخ بعد انتخابه رئيسا للجمهورية في 21 يونية 1956، وحاولت أمريكا احتواء الثورة ونزعتها التحررية بطرح مشروعها الاستعماري الجديد عام 1957 تحت عنوان "ملء الفراغ في الشرق الأوسط" الذي عرف بمشروع أيزنهاور، وقام على فكرة أن هزيمة بريطانيا وفرنسا تركت فراغا في المنطقة لابد من أن تشغله قوة أخرى عظمى. وعارض الشيوعيون المشروع بقوة، وكان عبد الناصر يقف ضد المشروع، معتبرا أنه لا يمكن أن نستبدل بالاستعمار استعمارا جديدا.

في عام 1958

تمت الوحدة الكبرى بين التنظيمات الشيوعية في 8 يناير، وأعلن عن اتحاد الحزب الشيوعي المتحد مع تنظيم العمال والفلاحين في حزب جديد هو الحزب الشيوعي المصري، وتشكلت لجنة مركزية للحزب

الجديد على أساس وثيقة سياسية عامة تتحدث عن تحويل المجتمع من مجتمع رأسمالي إلى مجتمع اشتراكي، ودور الحزب باعتباره الفرقة الطليعية في الطبقة العاملة، وأخيرا لائحة تنظيمية تتألف من أربعة أبواب خاصة بتعريف الحزب والعضوية، ثم الأسس التنظيمية، ثم التنظيم الحزبي وأخيرا أحكام انتقالية. وقامت الوحدة فعليا على أساس التمثيل النسبي في المركز حسب عدد أعضاء كل تنظيم، الأمر الذي أدى لاتهامات متبادلة فيما بعد بتزوير عدد الأعضاء لشغل مواقع أكثر. أيضا قامت الوحدة على أساس الاعتراف بوجود خلافات قائمة بشأن الطبيعة الطبقية للسلطة، وقضية الوحدة العربية، على أمل أن تنتهي هذه الخلافات لوجهة نظر مشتركة من خلال الصراع الفكري والوسائل الديمقراطية. ولم يبق خارج إطار الوحدة سوى منظمتين صغيرتين نسبيا هما «طليعة الشعب الديمقراطية»، و«وحدة الشيوعيين». وبعد نحو شهر واحد تمت الوحدة بين مصر وسوريا في 22فبراير، وفي 14 يوليو من نفس العام قامت الثورة العراقية بقيادة عبد الكريم قاسم فقضت تماما على مشروع حلف بغداد الاستعماري، وكانت الثورة قد أقامت تنظيم «هيئة التحرير» ثم تركته إلى تنظيم آخر لها هو «الاتحاد القومي»، وكان واضحا أنها لا تقبل بوجود أية حركة سياسية مستقلة خارج إطار تنظيماتها الرسمية. وكان اتحاد الشيوعيين في حزب واحد خطوة كبيرة لكنها للأسف سرعان ما تحطمت لأسباب كثيرة معقدة.

على أية حال فقد ترافقت وحدة الشيوعيين عام 1958 مع بروز خلافين واضحين مع النظام السياسي دفعا الصراع بين الثورة واليساريين إلى أقصى مدى. الأول بشأن الوحدة المصرية السورية، والثاني بشأن الثورة العراقية. أما عن الوحدة مع سوريا فقد أصدر الحزب بيانا باسم المكتب السياسي بتوقيع سيد (د. عبد العظيم أنيس) وفريد (محمود أمين العالم) أيد فيه الوحدة بين القطرين، لكنه انتقد الأسلوب الذي تمت به، وقال إنه أسلوب فوقي، خاصة أن هذا الأسلوب لم يراع الخصائص الذاتية

للشعب السوري، وكان البيان بشكل عام أقرب إلى الدعوة لوحدة فيدرالية أو كونفدرالية، وحذرنا فيه من التسرع في القيام بالوحدة من أعلى، وطالبنا بالتمهل، والعمل على توثيق عرى التقارب الاجتماعي والاقتصادي والسياسي بين القطرين المصري والسوري. وكانت هناك مخاوف أن تقوي دولة الوحدة الأوضاع البوليسية وتؤدي للمزيد من العدوان على الحريات الديمقراطية، خاصة بعد أن ترافق الإعلان عن الوحدة مع حل الأحزاب الوطنية والشعبية في سوريا، ومنح سلطات ضخمة لرئيس الجمهورية العربية المتحدة، وإغلاق العديد من الصحف. ومع ذلك فقد كانت نشرات الحزب كلها تدعو لتأييد الوحدة، مع إبراز الانتقادات الموجهة لكيفية إنجازها. وقد جاء في قرار المكتب السياسي للحزب.

23 يناير 1958:

ما نصه:

> **"إن الخطوات التي تتخذ لإنجاز هذه الوحدة تعد انتصارا تاريخيا للقومية العربية، وإن المكتب السياسي للحزب يرى أن الاتحاد الفيدرالى هو أنسب أشكال الوحدة بين البلدين. إلا أن الشيوعيين المصريين لن يجعلوا من شكل الوحدة عقبة في سبيل إتمامها دون تردد".**

ودعا الحزب في نفس البيان أعضاءه صراحة:

> **"عبئوا الجماهير الشعبية واندفعوا معها ونظموها لتأييد الوحدة السورية المصرية".**

إلا أن النظام الناصري لم يكن على استعداد لتقبل أية ملاحظات انتقادية، وكان يتطلب التأييد المطلق فحسب. وفي منتصف ديسمبر

عام 1958 التقى محمود أمين العالم ممثلا عن المكتب السياسي للحزب بأنور السادات في الاستراحة الملكية بالهرم، وقال له السادات حسب شهادة محمود العالم:

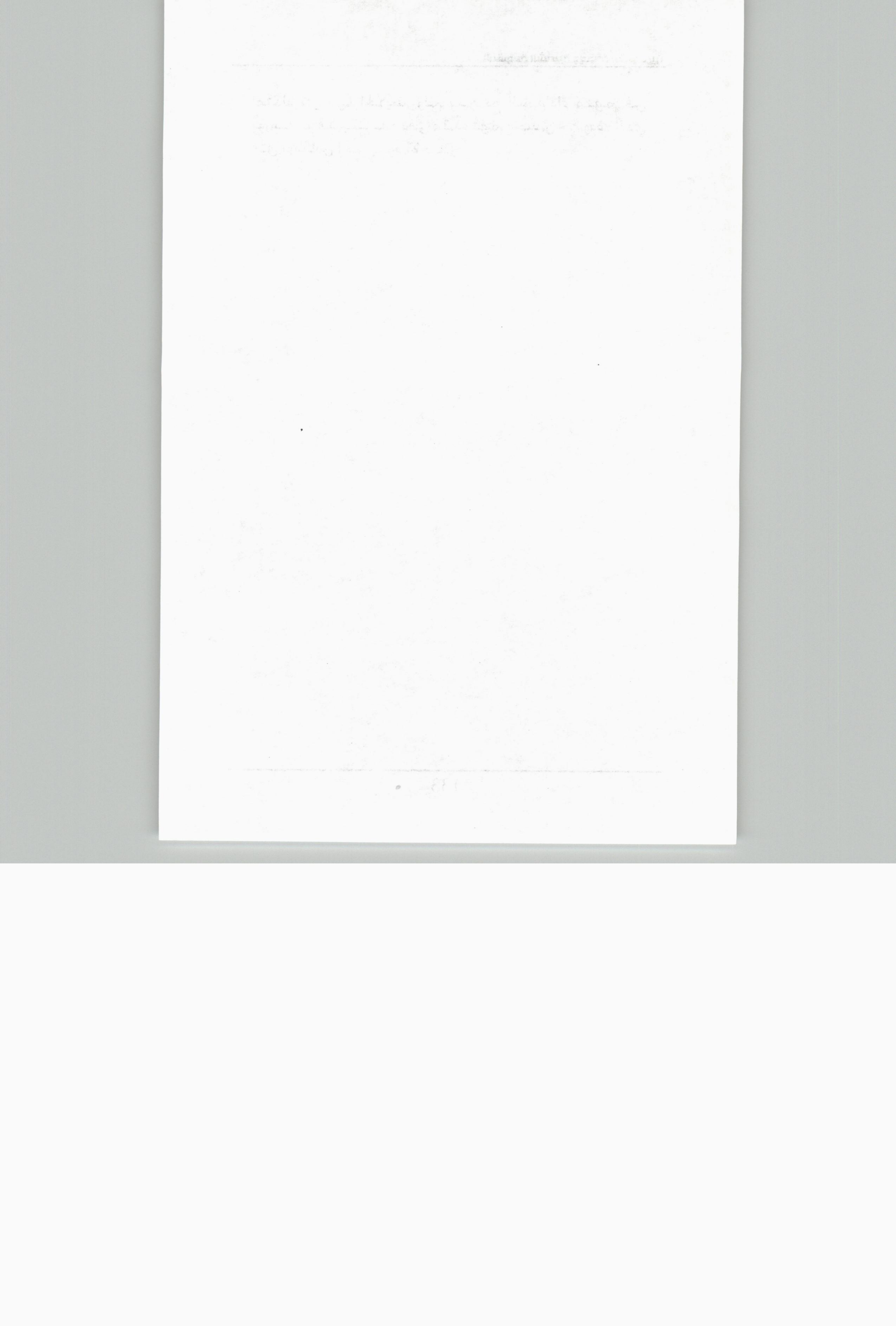
"اسمعوا.. كان هناك أناس ضدنا وهم الإخوان المسلمون وقضينا عليهم، وأنتم الآن تقفون ضدنا وسيكون لكم نفس المصير".

ويبدو أن نتيجة اللقاء لم تعجب السادات، لأنه في نهايته ادعى أن سائق السيارة نائم، وقال لمحمود العالم ضاحكا: «أنت بروليتاري، عد على قدميك». ومشى محمود العالم من الهرم إلى ميدان الجيزة على قدميه حتى بزغ نور النهار فركب أول ترام إلى منزله. وفي تلك الفترة كثرت مؤتمرات «الاتحاد القومي» التي قام فيها بعض رفاقنا بشرح وجهة نظرنا في الأسلوب الذي تمت به الوحدة، فكانت النتيجة اعتقال أولئك الرفاق والزج بهم في السجون.

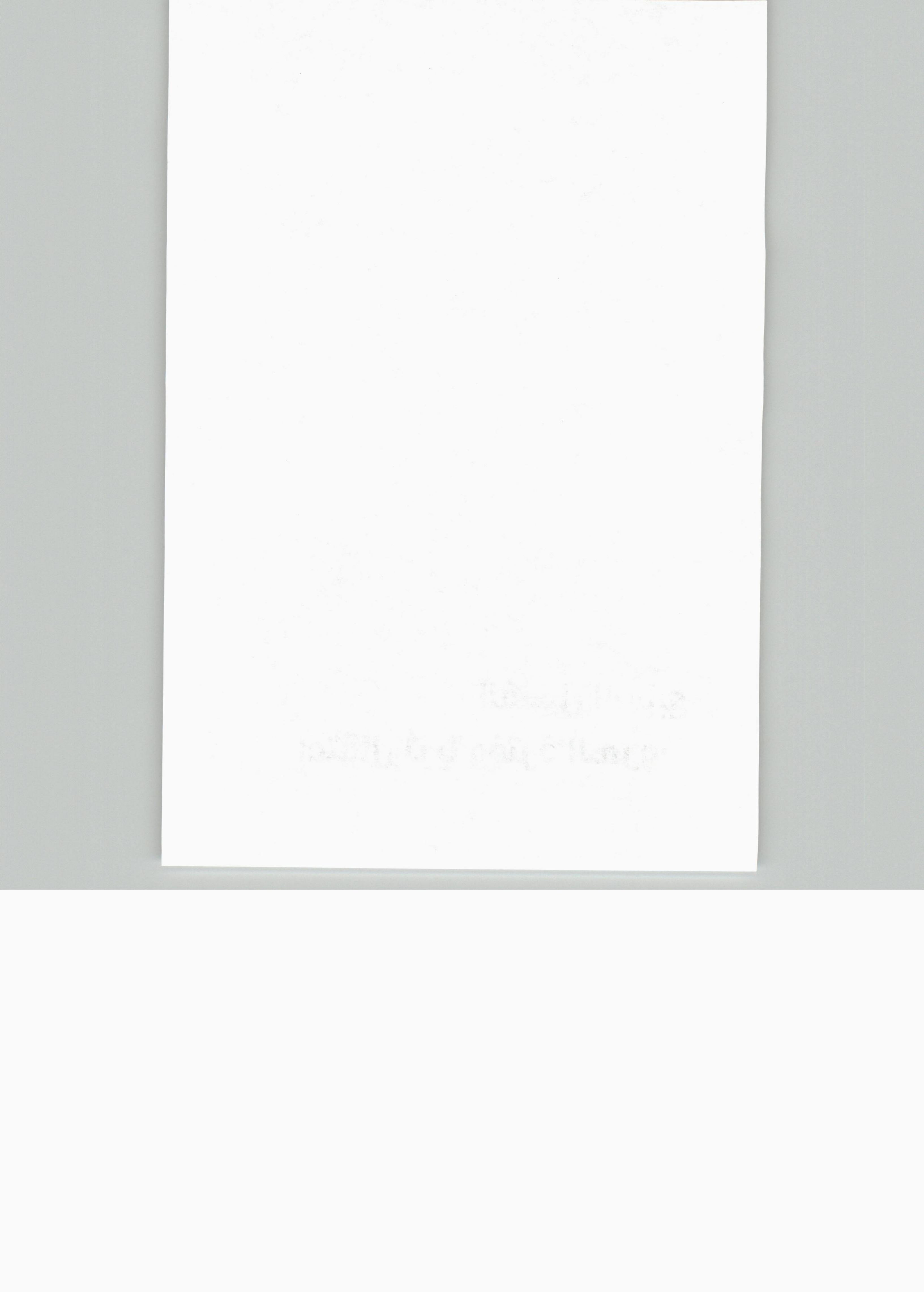
الخلاف الثاني كان بشأن الثورة العراقية التي قادها عبد الكريم قاسم، وفي البداية أيد عبد الناصر الثورة العراقية، ثم اكتشف أن الشيوعيين العراقيين قد ساهموا بدور كبير في قيامها وأنها تعطي هامشا لمشاركة الحركة الشعبية بأحزابها. ولم يكن ذلك مما يرضي عبد الناصر الذي أحس في الوقت ذاته بأن هناك زعامة أخرى تبرز كقوة منافسة لزعامته بينما أيدنا نحن ثورة العراق بحماسة كبيرة.

وسرعان ما انتهى شهر العسل المصري العراقي، وأخذت ثورة يوليو تدعم عبد السلام عارف الذي أطاح بعبد الكريم قاسم، وراح الإعلام الناصري يصف الشيوعيين ليل نهار بالعملاء والخونة. وبدا الأفق مشحونا بمأساة قادمة، لم يكن أحد يتخيل حجمها، ولا طابعها، ولا عدد الشيوعيين الذين سيسقطون شهداء داخل سجونها تحت وطأة أقسى حملة تعذيب لم تعرفه مصر على

امتداد تاريخها الحديث، ولم يكن دم الشهداء منهم في بورسعيد قد جف بعد وفي مقدمتهم «حسن حمودة» الذي قتل برشاش أحد جنود الاحتلال.



الفصل السابع
اعتقال ثريا وفترة الهروب



في 31 ديسمبر 1958:

أصدر عبد الناصر أمرا عسكريا باعتقال 163 شخصا تطبيقا لأحكام الطوارئ، كان من بينهم شهدي عطية، والدكتور عبد العظيم أنيس، وإسماعيل صبري عبد الله، ومحمود أمين العالم، وفوزي جرجس، ومحسن الخياط، وعطية الصيرفي، وفخري لبيب، وعبد المنعم شتلة،وشعبان حافظ، ومحمد يوسف المدرك، وإبراهيم فتحي، وصنع الله إبراهيم، وأحمد نبيل الهلالي، وآخرون. وفي فجر الأول من يناير 1959 فتحت أبواب المعتقلات على مصاريعها لليساريين. وبدأ رجال الأمن يداهمون البيوت في كل مكان. وفي نفس اليوم أمر رئيس الجمهورية بإغلاق عشرة مكاتب ودور نشر ومصادرة جميع الكتب والمطبوعات التي توجد فيها على اختلاف أنواعها. وكانت كلها دور نشر يسارية، منها مكتب الترجمة والنشر إدارة شهدي عطية الشافعي، ومكتبة الأعمال النقابية لمحمد يوسف المدرك، والدار الديمقراطية الجديدة لعباس سيد أحمد، ومكتبة النشر والثقافة العمالية لسيد عبد الوهاب ندا، ودار الفجر لعبد المنعم شتلة. وأخذت الأنباء تتردد عن اعتقال فلان ثم فلان، وكانت أمامي فرصة لأختفي، خاصة أن المداهمة كانت تتم في الساعات الأخيرة من الليل. واخترت غرفة بسيطة في إحدى حواري كوبري القبة واستأجرتها لآوي إليها ليلا، وأبيت فيها.

بعد أن أقضي يومي كله بصورة طبيعية. واتفقت مع ثريا أنه إذا لم يهاجم زبانية البوليس في الفجر، أن تعلق في الصباح فوطة على حبل الغسيل، لكي أعلم من بعيد بما جرى. كنت أقضي يومي بصورة

طبيعية، وأمر على أسرتي، فأجلس معها عدة ساعات حتى يحل المساء فأنصرف إلى مخبئي. وكان قد مضى على بدء حملة الاعتقال نحو ثلاثة شهور، وفي يوم 27 مارس 1959 احتفلت مع ثريا والأسرة بعيد ميلاد ابني الأكبر ممدوح، وأكلنا وضحكنا حتى منتصف الليل. وأزف وقت مغادرتي البيت. فتشبث بي ممدوح قائلا: "**بابا.. لماذا لا تبيت معنا الليلة؟**".

وجاء ردي: "**ألا تعرف السبب يا حبيبي؟**".

وهز ممدوح رأسه موافقا ولكن بحزن من يعرف ولا يستطيع أن يفهم. قبلت ثريا، وودعت الأولاد، وغادرت بيتي بخطوات ثقيلة إلى كوبري القبة وأنا أسأل نفسي: **كيف يحدث هذا؟ هل أن ما يجري أمر منطقي؟ وكيف يتفق ذلك مع تيار الثورة؟**

صباح اليوم التالي، سرت نحو بيتنا متسللا عبر الشارع الخلفي، ورفعت نظري إلى الشرفة وحبل الغسيل فلم أجد الفوطة علامة الأمان، وأدركت أن الأوغاد قد هاجموا البيت، وأنني على قائمة جديدة من أسماء المطلوبين. ولم أعد إلى عملي. ولم تمض عدة أسابيع حتى صدر قرار جمهوري بفصلي من هيئة السكك الحديدية بالطريق غير التأديبي. ووجدت نفسي فجأة مشردا، ومطلوبا، وكنت أسأل نفسي: لماذا؟

كنت هاربا، ولم أكن وحدي من استطاع الهرب. كان هناك العشرات ممن أفلتوا من حملة يناير ومارس بينهم عدد من أعضاء اللجنة المركزية. وكنت أثناء هروبي أتسقط أنباء رفاقي المعتقلين بكافة الوسائل. وعرفت أن الضربة الأولى قد أصابت الكثيرين ومنهم عدد من رموز الثقافة المصرية، وبلغ عدد الذين أعتقلوا من اليساريين في الفترة من يناير حتى أبريل 1959 أكثر من سبعمائة معتقل منهم كبار المثقفين د. لويس عوض ود. عبد الرازق حسن ود. عبد العظيم أنيس وغيرهم وصدر بيان

من الحزب في 9 يناير يحذر من أن سياسة مكافحة الشيوعية تخفي وراءها سياسة العداء للديمقراطية والحريات العامة بهدف تثبيت دعائم النظام الديكتاتوري في مصر وسوريا. وتدخل الزعيم السوفيتي نيكيتا خروتشوف بتصريح في فبراير 1959 يحذر مصر من سياسة العداء للشيوعية، وجاء فيه ما معناه أن عبد الناصر شاب حدث مازال عليه أن يكتسب خبرة طويلة. وعقد ذلك كله موقف اليسار المصري. وفي 27 مارس أصدر عبد الناصر بصفته حاكما عسكريا أمره الذي يقضي باعتقال 436 (أربعمائة وستة وثلاثين) شخصا وتفتيش أشخاصهم ومحال إقامتهم ومحال عملهم لضبط ما قد يوجد لديهم مما له علاقة بالحركة الشيوعية أو ما يخالف القانون وضبط وتفتيش من يتواجد مع أي منهم وقت عملية التفتيش. وأرفق الأمر العسكري كشفا بأسماء المطلوبين وكان من بينهم إبراهيم عامر وإسماعيل المهدوي، وجودة سعيد الديب، وطاهر عبد الحكيم، وفتحي خليل، وعدلي جرجس، والكاتب محمد صدقي، ويوسف حلمي، وجاء اسمي فوزي حبشي خليل تحت رقم 261! واشتمل الأمر على أسماء تسع عشرة سيدة منهن: إنجي أفلاطون، وثريا إبراهيم، وفاطمة زكي، وانتصار خطاب، والفنانة محسنة توفيق، وجاء اسم زوجتي ثريا شاكر موسى تحت رقم 426 دون التعريف باسمها إذ أن الضابط الذي ألقى القبض عليها بعد تفتيش المنزل طالبها بذكر اسمها كاملا ليضعه في أمر القبض؟!.. ولم ينقض شهر إلا وكان عبد الناصر يلقي خطابا في أبريل في إحدى فرق الجيش بالعباسية أعلن فيه: «سأقضي على هؤلاء العملاء.. وسألقن الشيوعيين درسا لن ينسوه».

وهاجم عبد الناصر الشيوعيين في سوريا والعراق في إطار الصراع الذي بلغ ذروته بين قادة ثورة يوليو، وقادة ثورة العراق.

فيما بعد علمت أن المباحث حين داهمت بيتنا في تلك الليلة لم تعد خاوية اليدين! سألوا عني بداية، وقالت لهم ثريا إنني مسافر. فأخذوا يعبثون بالكتب والأوراق. وفجأة التفت أحد الضباط إلى ثريا يسألها

عن اسمها بالكامل. فسحب الضابط أمر اعتقال وملأه باسمها وقال لها: تفضلي معنا!

وبالرغم من الطابع العصيب للحظة اعتقال ثريا فإنها لم تنس أن ترفع الفوطة من الشرفة التي أراها من الشارع الخلفي لكي تحذرني. وكانت ثريا في ذلك الوقت عضوا معنا في تنظيم النجم الأحمر، واتصالها بالتنظيم كان يتم أساسا عن طريق عدلي جرجس، وكان التنظيم يعهد إليها بكتابة التقارير على الاستنسل وعملية الطباعة، في الوقت الذي كانت فيه تعمل سكرتيرة رئيس مجلس إدارة شركة مصر للمستحضرات الطبية، وفي الشركة استطاعت ثريا بالتعاون مع بعض زميلاتها أن تؤسس نقابة للعمال، ورشحت نفسها ففازت بأغلبية الأصوات لتصبح رئيسة للنقابة، لكنها رفضت وقالت لهم: من الأفضل أن أكون سكرتيرة النقابة إلى أن أكتسب الخبرة الكافية. وكان هذا سببا كافيا لأن تسوء علاقتها برئيس مجلس الإدارة ويبدأ في التخلص منها..



ثريا مع بعض أعضاء "آراك"

كان نشاط ثريا السياسي ملحوظا، رغم تعليمات التنظيم لها ألا تظهر كثيرا كعنصر متحرك ونشط. وقادوا ثريا من البيت إلى المباحث ومن هناك إلى قسم الموسكي، حيث قالوا لها: سنتجه الآن لتفتيش مكتبك في الشركة. وكانت ثريا تفكر في الأطفال الثلاثة الذين تركتهم خلفها وحدهم في البيت: ممدوح، وحسام، ونجوى. لم يكن عمر نجوى يزيد على عام واحد فقط، وكانت ما تزال رضيعة، فطلبت منهم ثريا أن تصطحب معها نجوى، لكن ضابط المباحث نصحها بقوله: **"الأفضل أن تتركيها عند بعض الأقارب في أي مكان، لأنك أنت نفسك لا تعرفين إلى أين ستذهبين. المكان مجهول، والمجهول لا يدري به أحد"!**

وكنت أنا أيضا وأنا أسير في الشوارع متخفيا أفكر في مصير الأولاد الثلاثة: ممدوح ثمانية أعوام، وحسام ست سنوات، ونجوى الرضيعة. وكنت أفكر في ذلك وحدي، فقد أصبحت ثريا نزيلة سجن النساء لا تدري شيئا عن أطفالها ولا تستطيع أن تقرر من مصيرهم شيئا.



الوالدة مع الأطفال الثلاثة

وفي مقال بكتاب «علي الراعي بين الأدب والسياسة» تعرض الدكتور علي الراعي لتلك الحادثة وهو يستعرض كتاب فتحي عبد الفتاح «ثنائية السجن والغربة». وكان فتحي محجوزا تمهيدا لترحيله إلى معتقل الواحات، ولم يجدوا له مكانا في حجز الرجال، فدفعوا به إلى حجز النساء مؤقتا، وهناك التقى بثريا، فصاح بها بصوت عال: **مدام ثريا؟ زوجة المهندس فوزي حبشي؟**

ردت: **أيوه. مين حضرتك؟**

قلت: **صحفي بجريدة المساء. قالت:أهلا. فوزي كلمني عنك كتير.**

تقدمت نحوها وسلمت عليها بحرارة وأخذت أساعدها في جمع حاجياتها. وفوجئت بالحزن يكسو وجهها بستار كثيف، فقلت أواسيها: حبسة تفوت يا مدام. ملقوش فوزي خدوكي.

قالت: أبدا.. خدوني وخدوا فوزي. قلت منزعجا: والأولاد؟. قالت: ما هو ده اللي مجنني... وجعلت أتصور المهندس فوزي وزوجته وقوات الملاحقة تأخذهما، وتترك الأطفال يبكون، وقلت لنفسي: الإنسان يحتاج أحيانا لأن يعطل عقله ومشاعره لكي لا تنطلق منه مشاعر الذئب!

في حينه كان على أن أفكر في حل لمشكلة الأولاد. وبطريقة ما أرسلت إلى ثريا في سجنها رسالة أقترح فيها أن نوزع الأولاد الثلاثة على بيوت أقربائنا. فجاءني ردها سريعا وحاسما ومقنعا:

"كفاهم فقدان الأب والأم. لا داعي لأن يفتقدوا بعضهم البعض، ويفتقدوا بيتهم الذي اعتادوا عليه، وإذا كان هناك من يريد مساعدتنا من أفراد العائلة فليتفضل بالإقامة معهم في منزلهم لكي لا يتفرقوا".

كانت ثريا على حق. لكن ماذا نفعل؟. كانت والدتي العجوز التي جاوزت السبعين تحتضن الأولاد وتقيم معهم. لكنها لم تكن قادرة على تلبية مطالبهم والإشراف على مختلف شئون حياتهم. وهنا اهتم المهندس: رمزي شاكر أخو ثريا ومعه آخرون بالمسألة المالية فمثلا كان يحضر كل أيام الأعياد مع الصديق المشترك المرحوم المهندس: عزت سعد الملابس الجديدة للأولاد الثلاثة مع العيدية.. وكان المرحوم د. عبد الرازق حسن بعد خروجه تجيء كل أول شهر ليعطي للوالدة مبلغ من المال ذاكرا أنه يسدد دين قد استلفه من فوزي سابقا؟!..

وظهرت السيدة الفاضلة نادية كمال حبيب زوجة خالي المرحوم المهندس صبري بولص حنا. وتولت البيت برعايتها. وحنانها. وقد أنقذت ابنتي نجوى ذات يوم من مرض خطير. ولم يقتصر جهدها على رعاية الأولاد. فقد كانت هي التي ترسل لثريا زوجتي طرود الطعام والدواء في سجن القناطر. وطلبت منها ثريا ذات يوم أن تحاول تهريب راديو ترانزستور لتستمع المعتقلات بواسطته إلى أخبار العالم. وفكرت نادية. ثم قررت أن تعد لثريا بطة محشوة. ليس بالفريك والبصل. ولكن براديو ترانزستور. وقفت في المطبخ تحاول طويلا إدخال الراديو إلى جوف البطة بلا فائدة, وكان ابني ممدوح يقف إلى جوارها يراقب ما تفعله. ثم انصرف إلى الصالة. ولما فشلت محاولاتها خبأت الراديو في مكان آخر. ثم اصطحبت ممدوح معها لزيارة ثريا. ولا أدري لماذا همس ممدوح في إذن إحدى السجانات مثل كل الأطفال بما يعتقد أنه سر خطير. فقال لها:
"على فكرة.. طنط مخبية راديو جوه البطة عشان ماما"!

وهاجت السجانة وفتحت بطن البطة بسكين. ولم تجد شيئا. وشحب وجه نادية وهي تنظر لممدوح الذي كان واقفا يفرك يديه بسرور لأنه أثار كل تلك الضوضاء. وصاحت السجانة:«الأطفال لا يكذبون أين الراديو؟». وبحثوا طويلا دون جدوى. وفي مساء نفس اليوم. فتحت ثريا باقي محتويات الزيارة. ومن ضمنها كيس كبير به لب وفول سوداني.

فوجدت الراديو في قاع الكيس!.

إلى يومنا هذا لا يخلو اجتماع في بيتنا، أو حفل، أو مناسبة من الوجود للسيدة نادية كمال التي وقفت إلى جوار أولادنا في لحظة صعبة.

وفي واقعة أخرى أثارت حنقي على تلك السلطات الفاشية التي تبيح المحرمات.. فقد فكرت يوما أثناء هروبي أن أرسل للأولاد بعضا من مرتبي المحول إلى حسابي بالبنك فأعطيت أحد أقاربي وهو الأستاذ: ظريف أبادير خال ثريا شيكا بمبلغ بسيط.. وكانت المفاجأة أن أوقف صرف الشيك وفي مساء نفس اليوم هاجم التيار منزل السيد ظريف وقلبوه رأسا على عقب مما تسبب في رعب فظيع طال أفراد العائلة جميعا؟!.. هكذا أعتدت السلطة حتى على سرية البنوك والتي هي من أوليات الاقتصاد العالمي؟!..

خلال فترة اختفائي عن أعين البوليس، داهمني الشوق لرؤية أولادي. فكرت كثيرا:هل أخاطر بإشباع عيني من أبنائي؟ ثم قررت أن الأمر يستحق ما هو أكثر من ذلك. قلت لنفسي: أراهم ولو للحظات خاطفة. ماذا سيحدث في الدنيا؟. كان أخي الأكبر فؤاد حبشي شجاعا، عودنا أن نعتمد عليه. فطلبت منه أن يأتيني بالولدين ممدوح وحسام إلى إحدى الحدائق العامة، وكانت نجوى أصغر من أن يأتي بها. انتظرتهم حسب الموعد في حديقة منشية البكري. وأذكر أنه كان يوما صيفيا جميلا. لم تكن الشمس فيه حارقة. كنت جالسا على دكة خشبية في حديقة أمام محطة مترو «منشية البكري». أتلفت حولي إلى أن ظهر أخي والولدان من بعيد. ورحت أحتضن الاثنين، وأقبلهما، ثم أخذت أستفسر منهما عن أحوال المعيشة والمدرسة. كانت لحظات اللقاء القليلة تلك تجعلني أكثر اطمئنانا، وهدوءا. لكن أي أثر يا ترى تركته تلك اللحظات في ولدي؟ لا أدري. كل ما عرفته فيما بعد أن ممدوح كان يثرثر كثيرا

داخل المدرسة بشأن لقائنا! وكان يحكي «قابلت أبي ورأيته» وما إلى ذلك. ووصل الخبر إلى المباحث عبر طرقها الخاصة. فما كان منها إلا أن كلفت مديرة المدرسة بمهمة خسيسة لم ترفضها المديرة أو ربما لم تستطع الامتناع عنها. وهكذا استدعت المديرة ممدوح ذات يوم وأخذت تلاطفه وتثني عليه وتعطيه قطع الشيكولاتة وهي تسأله خلال ذلك: أين ومتى يلتقي بأبيه؟ وهكذا قررت أن أوقف تلك المقابلات القليلة التي كانت تمنحني القوة خلال مطاردة الدولة لي. نجحت الدولة في أن تمنعني من رؤية أولادي، كما نجحت من قبل في انتزاع ثريا من أحضان طفلتها الرضيعة. وتملكني الغضب مما حدث. وكنت في تلك الفترة أظل قابعا في مخبئي في غرفة متواضعة بكوبري القبة طيلة اليوم، ولا أبرح المكان إلا ساعة الغروب لدواعي العمل السري واللقاءات الضرورية. وهكذا جلست ذات يوم أكتب لجمال عبد الناصر خطابا شرحت فيه ما قامت به مديرة المدرسة مع ابني ممدوح، مستنكرا أن يصل الطابع البوليسي إلى استغلال براءة الأطفال في التجسس على آبائهم. لكنني لم أرسل الخطاب، ظل راقدا بين أوراقي المختلفة إلى أن أخذوه مع بعض المضبوطات. فقد كان المناخ العام حينذاك مناخا بوليسيا، يدعو للحذر الشديد.

وحدث ذات يوم أن رتبت مع أحد الزملاء (فايز علام) موعدا لمناقشة أحوال الرفاق المعتقلين وما يمكن تقديمه لهم طالما أننا لم نعتقل بعد. هيأت نفسي للموعد بالتنكر، وتغيير منظري العام، وارتداء ملابس أكبر قليلا من حجمي، تأكدت أن رجال البوليس لن يتمكنوا من التعرف علي بهذه الصورة. واتجهت إلى المكان المحدد وأنا أفكر أن قيادات الحزب كلها تقريبا معتقلة، وأن علينا أن نفعل شيئا، وأن نتحرك. كنت أفكر وأنا في طريقي إلى الموعد أن الثورة عند مطلع 1959 كانت قد أطاحت بالملكية، وطبقت الإصلاح الزراعي، وأنجزت جلاء آخر جندي بريطاني، وأممت قناة السويس، وأعلنت الجمهورية، ورفضت حلف بغداد الاستعماري، وصمدت أمام العدوان الثلاثي، وأحبطت مشروع أيزنهاور،

وشاركت في خلق كتلة جديدة تسمى «الحياد الإيجابي»، وكسرت احتكار الغرب لتسليح المنطقة.

وحققت الوحدة مع سوريا، رغم الخطأ في أسلوبها وأخذت تمد حركات التحرر في فلسطين والجزائر واليمن بالدعم وتؤازر العداء للاستعمار في جنوب الجزيرة العربية وظفار، وأذيع أول بيان للثورة الجزائرية من إذاعة صوت العرب في الأول من نوفمبر 1954، وكانت القاهرة مقرا لأول حكومة جزائرية في المنفى، وتأسست في القاهرة منظمة تضامن شعوب آسيا وأفريقيا، وأجريت انتخابات لرئيس الجمهورية في يونيو 1956، وانتخابات لمجلس الأمة بعدها بعام لبناء المؤسسات الدستورية، وشرعت الثورة في تجديد مساعيها لبناء السد العالي لتوفير الطاقة الكهربائية التي لابد منها لتصنيع البلاد. وأنشأت وزارة الثقافة المصرية عام 1958 فكانت أول وزارة ثقافة في تاريخ مصر وثامن وزارة من هذا النوع على مستوى العالم، وتم التوسع في مجانية التعليم في مراحله المختلفة. وباختصار كان يرفرف فوق مصر شعور ضخم بالنهوض والتقدم والتحرر، فلماذا تتجمع ببطء قطرة دم داخل قلب الزهرة الكبيرة؟

كنت أنتظر في مكان شبه معتم الزميل حسب الموعد، أتأمل ما يحدث دون أن أجد إجابة لأسئلتي. أخيرا ظهر الرفيق في نهاية الشارع وهو يتلفت خلفه ليرى إن كان أحد يراقبه أم لا. كانت تلك الأيام تستدعي الحذر بسبب نشاط الحكومة المحموم بحثا عن الشيوعيين، وهو بحث وصل إلى حد انتشار عمليات الاختطاف، وكانت دوريات المباحث تجوب المدن في سيارات خاصة وتختطف المواطنين، هكذا اختطف الكاتب فيليب جلاب وكان يعمل محررا في صحيفة المساء في 13 أبريل 1959، وفخري لبيب. وكان للحذر دواع أخرى بسبب الاختراق التنظيمي وقدرة المباحث على دس عملائها علينا، وكان الحذر لأن بعضنا كان وراء الأسوار، وبعضنا مازال خارجها، والصلات مقطعة، ونحن نقف في وجه العاصفة لا نلمح شيئا في الأفق سوى العاصفة ذاتها.

ما أن ظهر الرفيق حتى تقدمت خطوات نحوه في الشارع، وأقبلت عليه. وعندما اقتربت منه استدار وحث خطاه إلى الأمام. هرولت خلفه، فوجدته يسرع الخطى وأنا من خلفه. ضاعفت سرعتي فضاعف هو الآخر من سرعته هاربا مني. وعند مطلع الشارع الكبير رأيته يتابع الأتوبيسات بعينيه بقلق ويريد أن يقفز إلى أول أتوبيس. ولما أصابني اليأس زعقت عليه باسمه الحركي السري ليطمئن: يا محمود ماذا تفعل؟ أنا فلان! ذاكرا أسمي الحركي إلى متى أظل أطاردك هكذا؟. توقف الرفيق واستدار نحوي مذهولا، ثم اعتذر بأنه لم يتعرف إلي، وظن أنني مخبر ألاحقه! ودقق النظر إلى هيئتي قائلا: أنت متنكر جامد قوي!

وكما كنت التقي برفيقي من الخلية لنتدارس العمل معا في تلك الأحوال المأساوية.. كذلك كثيرا ما ألتقيت في تلك الفترة بأحد الزملاء المهندسين العاملين معي سياسيا وهو المهندس: عادل درويش بمصلحة التليفونات آنذاك لنتدارس خطوات العمل السري سويا بين المهندسين ولم يقبض عليه ولم يشرد من عمله..

بالرغم من كل ذلك الحرص إلا أن المباحث تمكنت من اعتقالي. حدث ذلك في ليلة 21مايو، وكنت أجرجر قدمي متعبا من المطاردة، ومن شوقي لأولادي، وقلقي على ثريا، ومتعبا من الصورة العامة القاتمة. كنت أسير نحو الغرفة التي استأجرتها حين فوجئت بثلة من المخبرين بقيادة ضابط يدعى البهي تنقض علي من الجانبين، وتقودني دون أن أنطق بحرف إلى سكني الذي تخيلت أن أحدا لا يعلم شيئا عن مكانه. فتشوا الغرفة بدقة، وحملوا معهم مجموعة كبيرة من الكتب الماركسية وغير الماركسية، كان من بينها كتاب يهاجم الشيوعية، لكنهم أصروا على ضبطه وتسجيله في المحضر لمجرد أن رسم المطرقة والمنجل على غلافه! وتمنيت في تلك اللحظة

لو أضافوا إلى المحضر ذلك الخطاب الذي كتبته لعبد الناصر أحتج فيه على ما فعلته مديرة المدرسة مع ممدوح ابني. لكنهم لم يفعلوا. وهبط المخبرون والضابط وأنا في وسطهم إلى الشارع، ودفعوا بي إلى خلفية «البوكس». كنت في ذلك الوقت من المدخنين، وكنت أدون المواعيد الحزبية والسرية على وريقات صغيرة أخفيها داخل علبة سجائري. كانت تلك الوريقات بحد ذاتها دليلا ضدي. أخرجت العلبة بهدوء، وسحبت سيجارة أشعلتها، ثم قدمت منها للمخبرين ليدخنوا، وألقيت بها بهدوء خارج السيارة، فتخلصت من دليل كان كافيا للحكم على بسبع سنوات أشغال شاقة.

كانت السيارة تمضي بنا وأنا أفكر: ماذا سيحدث؟ أين سيضعونني؟ هل يحاكمونني؟ أم يكتفون باعتقالي؟ وكيف سيصبح حال الأولاد وأنا وثريا وراء الأسوار؟ هل يسمحون لهم بزيارتي؟ هل أختفي دون أن يعلم أحد بمكاني إلى الأبد؟. تذكرت قصة الشهيد محمد عثمان والسيارة ترج بنا متقدمة بي إلى المجهول. كنت أثناء فترة اختفائي أتصل من حين لآخر بوالدة الرفيق محمد عثمان، لأعرف منها أي شيء عن أحواله. لكني لم أكن أرى سوى الدموع تسيل على وجنتيها وهي تغمغم بصوت مختنق: **لا أدري شيئا عنه. لا أعرف أين هو؟ وهل هو حي أم ميت؟. وتنخرط من جديد في بكاء حار.**

كان محمد عثمان من الرفاق الذين بدءوا طريقهم إلى الكفاح في الأربعينيات، وأسس مع رفاق نضاله الدكتور فخري لبيب، ومنصور زكي وآخرين تنظيم طليعة الشيوعيين الذي ساهم بقسط كبير في وحدة الشيوعيين، وحين بدأت حملة يناير 1959 ظل هاربا حتى أمسكوا به في طنطا، وهناك تولى البكباشي أنور منصور رئيس المباحث العامة تعذيب محمد عثمان تعذيبا وحشيا لكي ينتزع منه اعترافا بمواقع التنظيم الأخرى، ولكنه لم ينطق بحرف، فتضاعف عليه الضرب

بالعصي وكعوب البنادق إلى أن فقد النطق في الرابعة من صباح اليوم التالي. فوضعوه في سيارة أقلته إلى مبنى المباحث في القاهرة. وهناك في أحد أقبية المبنى لفظ أنفاسه. ونقلت المباحث جثته إلى مكان ظل مجهولا إلى الآن. ولم يعد لأمه من حديث خلال حياتها وقبل موتها سوى عبارة واحدة: **أين وضعوا جثة ابني؟ أريد أن أزور قبره؟**.

كانت السيارة تتوغل في شوارع القاهرة. وأنا ألقي بنظرات نهمة على المحلات والأضواء والبشر. كنت أشعر أنني أبدأ رحلة طويلة لا أعرف متى تنتهي. لأضم اسمي إلى سجل كبير من أسماء كل الذين كانوا يحلمون لمصر بالحرية والعدل والتقدم.

قطعت السيارة بنا الطريق إلى أعلى. نحو معتقل القلعة. وكانت العادة أن يوضع هناك المعتقل إلى أن يتم توزيعه على الأماكن الأخرى. القلعة التي بناها صلاح الدين الأيوبي في أول الأمر للدفاع عن مصر. حولها الفرنسيون لأول مرة إلى معتقل للوطنيين عندما غزا بونابرت البلاد عام 1798.

وصارت معتقلا منذ ذلك الوقت. ويشاء القدر أن ألتقي في القلعة بسعيد النحاس الذي ألقي القبض عليه هو وعامل نسيج يدعى أحمد عيد مع محمد عثمان. وكان الاثنان معه في قسم أول بوليس طنطا حيث تم تعذيبه. وأدلى إلى سعيد النحاس ببعض تفاصيل تلك الليلة المرعبة. وكيف أن البكباشي أنور منصور رئيس مباحث طنطا طلب منه أن يعترف بأن محمد عثمان هو المسئول الحزبي. فلما رفض أدخلوه هو وأحمد عيد إلى غرفة مغلقة وانهال عليهم العساكر بالضرب فلم ينطقا بحرف. وقال لي كيف شاهد بعينيه رجال الشرطة وهم يحملون محمد عثمان. ويلقون به وهو غير قادر على الحركة إلى أرضية إحدى سياراتهم. ثم لم يسمع عنه شيئا بعد ذلك.

في اليوم التالي تم نقلي إلى مقر النيابة لمباشرة التحقيق معي. وكان المحقق هو الأستاذ أحمد علي موسى، واستثرت فيه نخوة رجل القانون، وطلبت منه قبل التحقيق معي أن يحقق في واقعة اختفاء محمد عثمان. وعندما لمس إصراري على مطلبي، نقل ما دار بيننا إلى النائب العام حينذاك علي نور الدين. ثم عاد إلي بمناورة صغيرة. فقدم إلي ورقة بيضاء وقال لي: أكتب فيها ما تشاء وسننظر فيها، على أن نأخذ أقوالك الآن. وبالفعل بدأ التحقيق معي. ثم سجلت بلاغا مرفوعا إلى النائب العام أطلب فيه التحقيق في جريمة قتل متكاملة الأركان، ضحيتها هو محمد عثمان، والشاهد العيان فيها سعيد النحاس الموظف بوزارة الصحة والمعتقل حاليا بين يدي الحكومة في سجن القلعة في الزنزانة رقم كذا. سلمت البلاغ للأستاذ أحمد علي موسى، ثم خرجت ويداي في القيد الحديدي تحت الحراسة إلى ردهة مبنى النيابة، ووقفنا ننتظر المصعد. وفجأة ظهر النائب العام علي نور الدين شخصيا تحيطه حاشية من الموظفين والضباط. وإذا به يشير نحوي وهو يصرخ في الضابط المرافق لي:

- هو ده اللي طلب التحقيق في واقعة محمد عثمان؟

وأجابه المحقق وهو يمد إليه يده بالبلاغ الذي كتبته:

- أيوه يا أفندم.

وتناول علي نور الدين البلاغ بشكل هستيري، ومزقه أمامي، وألقى بقصاصات الورق في وجهي صائحا:

- شوف مين بقه اللي ح يحقق لك فيه!

وصحت بدوري مستنكرا أن تغيب العدالة إلى هذا الحد، وأن يختفي كل قانون في الدولة، فيصبح خطف البشر وقتلهم شرعا.

وسحبني الضابط الشاب من يدي وهو يغالب ابتسامة خفيفة على وجهه، كانت على ما يبدو نوعا من تشفي الصغار من غطرسة رجال الدولة الكبار. وأراد الضابط أن يعرب لي دون كلام صريح عن إعجابه بما قلت فدعاني إلى أن نشرب الشاي معا على أقرب مقهى

في باب الخلق. أية سعادة أحسستها وأنا جالس في خضم الحياة. على مقهى، وبيدي قدح الشاي، أتابع حركة البشر، وصياحهم، وأشعر بكل صخب الحياة وعنفوانها بعيدا عن الزنازين المغلقة والهواء الراكد!

من القلعة نقلت إلى سجن القناطر محبوسا على ذمة التحقيق، وكانت ثريا بجواري! أقصد أنها كانت سجينة غير بعيد عني، في سجن النساء بالقناطر! في تلك الشهور كان معنا المرحوم محمد حمام، المثقف اليساري، والمغني، وكان ينشدنا في الليل داخل الزنازين قصيدة لمحسن الخياط:

يا اللي أنت بيني وبينك سور
بكره العيون ح تشوف النور..
بكره شباب البلد
ح يهدوا أسوارنا
ولا يبقى بيني وبينك سور

كان صوته رخيما، جميلا، عريضا، نستمع إليه فنحس بموج من الضوء والهواء يغمر المكان. نستمع إليه، ثم نلزم الصمت فترة، وأخيرا أنتبه وأقول لنفسي: **ها هي ثريا غير بعيدة عني.**

وأمازح محمد حمام قائلا:

- بس مش سور واحد يا محمد، فيه سور سجن الرجال وسور سجن النساء!

كانت ثريا محبوسة مع عدد من زميلاتها منهن أسماء حليم التي أنجبت طفلا في قصر العيني أثناء اعتقالها، وأطلقت عليه ياسر، وظل معها في السجن حتى بلغ عمره سنة تقريبا. وكانت هناك زينات الصباغ التي اعتقلت ومعها ابنها الصغير طارق ومكث معها في السجن حتى أتم العامين! وعندما كنت أفكر في حالة ثريا، وفي أن نجوى الصغيرة ظلت مع جدتها في البيت، كنت أحمد الله في سري على أن

ابنتي لم تصبح هي الأخرى معتقلة وعمرها عام واحد! وعلى أنها لم تفتتح أولى صفحات طفولتها تحبو وراء القضبان.

في سجن القناطر أقمت في الطابق الثامن، حيث العنابر الكبيرة الرحبة التي يتسع الواحد منها للعشرات. وهناك علمت بوجود صديق قديم هو المهندس سعد بطرس الطويل يقيم انفراديا في زنزانة بالطابق السادس الذي يشتمل على الزنازين الضيقة للمغضوب عليهم. وكنت قد تعرفت إلى سعد منذ أيام كلية الهندسة، وسعينا معا لإقامة نقابة للمهندسين عام 1946، وعام 1947 كنا نتحرك معا لتحريض المهندسين وتشجيعهم على إضرابهم الشهير في ذلك العام. وظلت تربطني به مشاعر الصداقة رغم اختلاف طريقنا. فقد كان سعد عضوا في تنظيم «اسكرا» ثم حدتو، ثم خرج في انقسام سمي «صوت المعارضة» مع أوديت حزان وسليم سيدني، وانتهى به الأمر إلى الانخراط في «منظمة شيوعية مصرية» أو «م. ش. م». لكني لم أستطع إلا أن ألبي نداء الصداقة، أو قل واجب الصداقة. فقررت الهبوط إلى الطابق السادس لمصافحته وإحياء ذكرياتنا القديمة المشتركة.

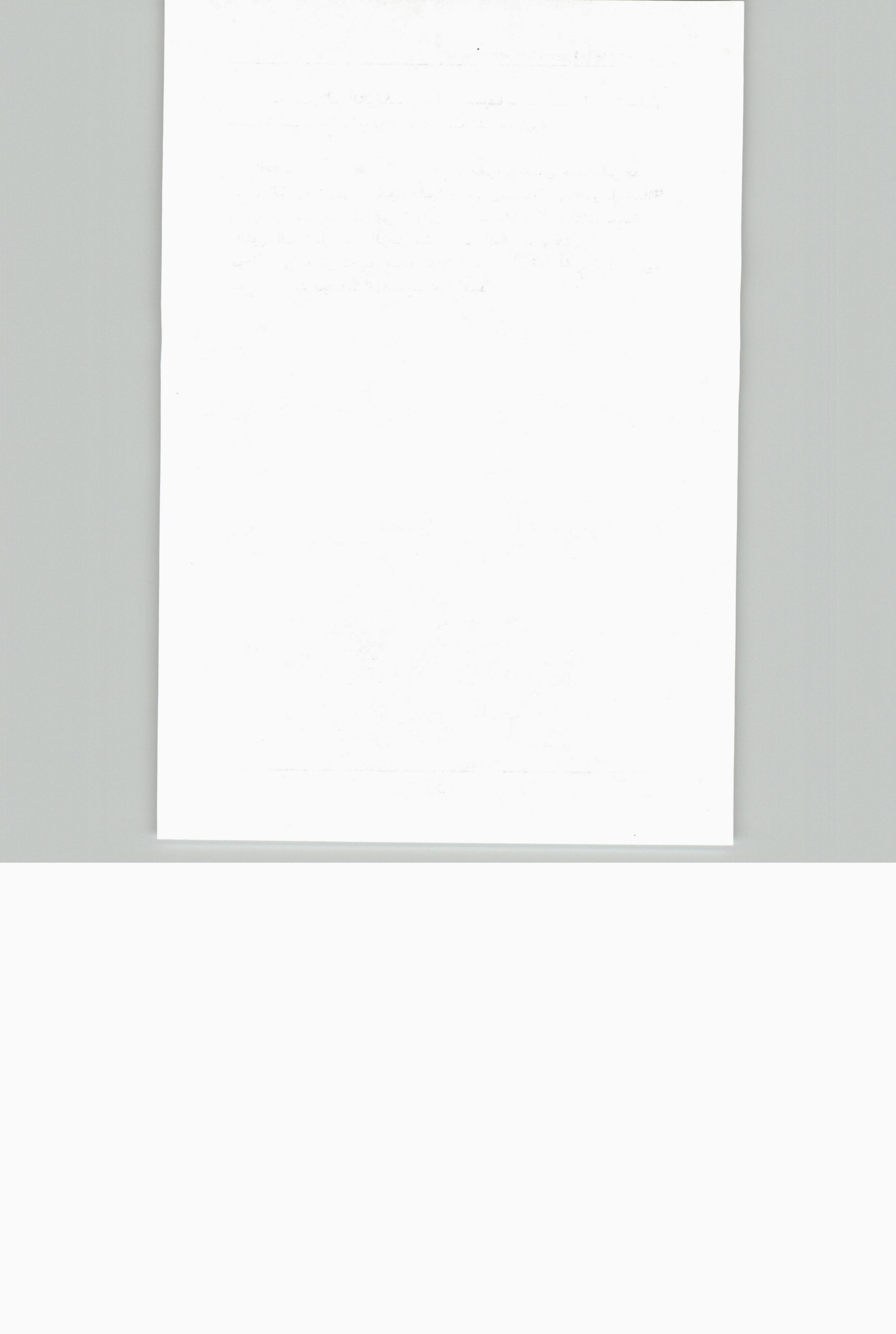
وحذرني البعض من مغبة الحديث إليه، لكني لم أهتم. وهبطت إلى حيث يقيم سعد، بينما وقف البعض يراقبون ما سيحدث بيننا من على بعد. في البداية صافحني سعد بحماس، وجاذبني أطراف الحديث في ود واضح، ثم سألني عن التهمة التي قادتني إلى السجن. فأجبته ضاحكا: الشيوعية! وهل هناك تهمة غيرها هنا؟!

وهنا حط الصمت عليه. وأدار وجهه عني ثم ظهره. وأردت أن أودعه لأضع حدا لهذا الموقف المحرج. لكن عز عليه أن يمد يده إلي مصافحا، وصاح:

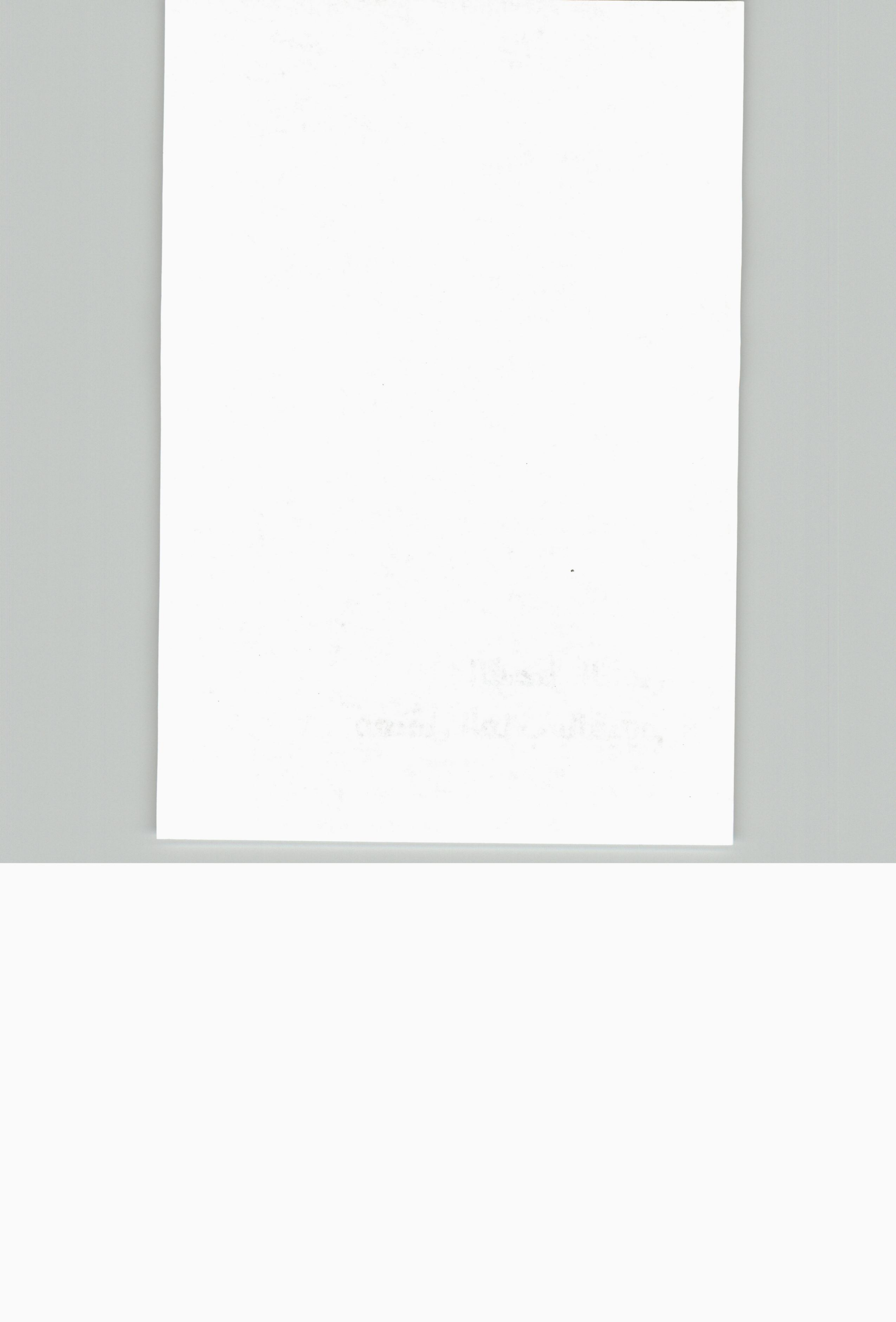
- أنا لا أضع يدي في يد البوليس!

كأنه يقول لي أنني كنت أصلح صديقا له لو أنني كنت لصا، أو مجرما، لكني لا أصلح لصداقته طالما أنني يساري!

تأملت الرجل لحظة، وكاد الدمع أن يفر من عيني حزنا على مصير الناس الذين تلتهم الشكوك قلوبهم، ويرون الدنيا كلها شوكا وخيانة وغدرا! وعدت إلى الطابق الثامن وهناك لاقاني أصدقائي بسخرية قائلين: ألم نقل لك؟ الرجل يشك في أصابعه، ويعتبر أنه الوحيد الوطني، والآخرين كلهم خونة! كان ذلك أحد أمراض الحركة اليسارية التي ضعفت في ذلك الوقت إلى حد بعيد.



الفصل الثامن
معتقل العزب بالفيوم



بعد حوالي شهر من وجودي في القناطر تم ترحيلي إلى معتقل العزب بالفيوم، الذي سمي هكذا نسبة إلى مكان في أطراف الفيوم بنفس التسمية. وكان الأجدر بهم أن يطلقوا عليه» معتقل التعذيب»، نظرا لما لاقيناه هناك من تعذيب ووحشية. وكان»العزب» مجرد معسكر أقامه الإنجليز خلال الحرب العالمية الثانية لأسرى الحرب الإيطاليين. ثم تحول بعد ذلك إلى معتقل لتجار المخدرات واللصوص والقتلة. وأخيرا أخلته السلطة لنا ولكل من يفكر أو يرى رأيا في أحوال بلاده.

كان المعتقل مكانا موحشا محاطا بأسلاك شائكة، وأكشاك حراسة خشبية مرتفعة مزودة بكشافات ضوء تتحرك طيلة الليل في كل رقعة يحمل حراسها المدافع الرشاشة ويزعقون ليل نهار: واحد تمام.. اثنين تمام. أما المعتقل ذاته فيتكون من مباني الإدارة التي تقع يمين المدخل، ثم ثمانية عنابر: أربعة في ناحية وأربعة في الناحية المقابلة، تفصل بينهما أسوار شائكة، ويمتد ما بين الأسوار طريق عريض تناثرت فيه الخيام التي يأوي إليها رجال الهجانة السود بكرابيجهم المعروفة.

العنابر ذاتها مستطيلة، أسقفها من الخشب المغطى بالصاج المموج الذي ينقل البرد والحر إلى الداخل فتصبح العنابر زمهريرا في الشتاء أو نارا موقدة في الصيف. ولم يكن بالمعتقل سوى دورة مياه واحدة تبعد مئات الأمتار عن العنابر وبها أحواض من الصاج لغسل الوجوه والملابس، وأدشاش ومراحيض لا تليق حتى بالحيوانات.

وفي داخل العنابر وضعت في صفين متقابلين الأسرة التي لم تكن سوى ألواح خشبية مرفوعة فوق حوامل من الحديد كما هي الحال في معسكرات الجيش، وفوقها مرتبة من قش الأرز، وعليها بطانيتان لكل فرد. داخل كل عنبر زير لمياه الشرب، وجردلان للتبول.

وقد أجبرت نخبة من خيرة مثقفي مصر وعلمائها وكتابها على العيش في هذه الظروف الكريهة، كان منهم د. عبد العظيم أنيس الناقد والكاتب وعالم الرياضيات، ود. لويس عوض الناقد، والدكتور عبد الرازق حسن الاقتصادي المعروف، والشاعر فؤاد حداد، والرسام حسن فؤاد، و نبيل زكي رئيس تحرير الأهالي، والكاتب أمير إسكندر، والدكتور فخري لبيب، وطاهر عبد الحكيم، وفوزي جرجس، ومحمد على فخري، وإبراهيم عامر، والسيد يوسف، وإسماعيل عبد الحكم، والمغني محمد حمام، والكاتب المسرحي ألفريد فرج، وحلمي ياسين، والدكتور محمد عجلان، وماجد عطية، والدكتور مختار السيد، وممدوح الجندي، والكاتب صبحي الشاروني، وفنان الكاريكاتير زهدي العدوي، والدكتور فائق فريد عضو مجلس الأمة في انتخابات 1957 التي زورتها السلطات في حالة د. عبد العظيم أنيس والحالات التي كان الديمقراطيون واليساريون فيها هم المرشحون للفوز.

كانت تحكم المعتقل عصبة من الضباط الجهلة الذين كرهونا لأنهم كانوا يستفيدون قبل مجيئنا من تجار المخدرات، بينما لم يكن لدينا شيء نعطيهم إياه: قائد المعتقل أحمد منير، وعبد المنعم التونسي وكيله، والشاويش محمد غطاس، والصول همام. وكانت العادة عند دخول أي معتقل أن يسألوه عن وظيفته ومهنته. وعندما دخل الرسام زهدي، وكان يقف خلفه الفنان الرسام حسن فؤاد، توجه قائد المعتقل بسؤاله لزهدي:

- ما وظيفتك؟

- رسام

نظر إليه قائد المعتقل بدهشة ثم قال:

- تقصد شاعر؟

- كلا. رسام يا أفندم.

احتد القائد دون أن يفهم ماذا يعني بكلمة رسام قائلا:

- يعني قصدك شاعر؟

أصر زهدي:

- لا. رسام يا أفندم. الشاعر شيء، والرسام شيء آخر.

غضب القائد وصاح:

- تناقشني يا ابن الكلب.

وكان يقف خلف زهدي الرسام حسن فؤاد. يتابع ما يجري. وعندما جاء دوره وسأله القائد:

- ما وظيفتك؟

أجاب على الفور:

- شاعر يا أفندم. شاعر!

في المعتقل جاء مكاني في العنبر رقم (4) الذي ضم نحو خمسين معتقلا، كان من بينهم بالمصادفة ابن عمي الدكتور لويس عوض، والصديق المشترك إبراهيم عامر صاحب كتاب «الأرض والفلاح»، والدكتور عبد الرازق حسن رئيس البنك الصناعي، وغيرهم. وكانت العنابر تتغلب على وقت الاعتقال بالنشاط الثقافي، وجلسات الحوار، وتقديم نبذة عن كتاب، أو ملخص لمسرحية أو رواية بحيث ينقضي الوقت في عمل مفيد أقرب للسمر. ورجونا نحن بدورنا الدكتور لويس عوض والدكتور عبد الرازق حسن وإبراهيم عامر أن ينظموا لنا محاضرات كل في اختصاصه.

وكانت محاضرات إبراهيم عامر في الصحافة مشوقة، وأذكر أنه حكى لنا أن هناك صحفيا بكل صحيفة مختص في باب «حظك

اليوم». يأتي ويجلس كل يوم، ومع فنجان القهوة والسيجارة يبدأ في فبركة التوقعات لمواليد الأبراج المختلفة. فهذا ينتظره مستقبل سعيد، وذاك ينبغي أن يتخذ حذره من غدر الحبيب، إلى آخر هذه الخزعبلات التي يطالعها الكثيرون بلهفة كل صباح. أما الدكتور عبد الرازق حسن الذي أفادنا بدورة مبسطة في علم الاقتصاد، فقد وقعت له قصة غريبة داخل المعتقل أدهشتنا جميعا. فقد فوجئنا ذات يوم بإدارة المعتقل تطلب الدكتور عبد الرازق بالاسم، فتوجه إلى مبنى الإدارة، ولم يعد إلا في المساء؟! أين كنت يا دكتور؟ ماذا حدث؟. وحكى لنا أنه كان في منزله!. الله؟! كيف؟ وبالفعل اتضح أن الإدارة أخذته تحت حراسة مشددة إلى بيته لكي يعثر بين أوراقه على مذكرة اقتصادية هامة كان الرئيس عبد الناصر بحاجة إليها. أخذوها منه وأعطوها للجهة المختصة لتحملها للرئيس، ثم عادوا بالدكتور عبد الرازق إلى المعتقل من جديد!

الدكتور لويس عوض كان موقفه غريبا بعض الشيء، فحين طلبنا منه أن يلقي علينا بسلسلة محاضرات في النقد والأدب، وافق، لكنه اشترط ألا يحضر هذه المحاضرات سوى المثقفين! أثار لويس دهشتي البالغة بشرطه ذلك. فقد كان هدفنا أن يرتقي العلماء منا بمستوى معارف الآخرين، وأسجل في هذا السياق حادثة أخرى توضح أثر التثقيف في حياة الآخرين. فقد كان معنا عامل شيوعي بسيط يدعى فكري الخولي، جاء إلى المعتقل أميا بالكامل، لا يقرأ ولا يكتب، لكنه ممتلئ بالحماس لفكرة العدالة. وبفضل المثقفين المتطوعين الذين كانوا يعلمونه خرج فكري الخولي وقد كتب كتابا كاملا عن سيرته الذاتية بعنوان«الرحلة» من أمتع الكتب التي سجلت تلك المرحلة!

كانت الحياة داخل«العزب»أقرب ما تكون لحياة معتقلات النازية الشهيرة. كانت أبواب العنابر مغلقة تقريبا طيلة اليوم بأكمله، ولا تفتح سوى ساعة واحدة. والممنوعات تبدأ من الأوراق والأقلام وتنتهي بتحريم تبادل الحديث بين المعتقلين خلال ذهابهم وعودتهم من دورة المياه.

وكان جلد أي معتقل إجراء شبه اعتيادي يتم بأية ذريعة كالادعاء بأنه أومأ برأسه لزميل له في إشارة ذات معنى سياسي. وكانت الحكومة ترصد لطعام المعتقل الفرد 56 مليما في اليوم لثلاث وجبات، فتتولى الإدارة سرقة نصف المبلغ الهزيل أصلا. لم تكن تلك معتقلات، لكنها كانت معامل لتجربة طحن البشر وتحويلهم إلى مسحوق للهمس. وكنت ضمن المندوبين الذين يخرجون من العنابر لاستلام الأغذية من المتعهد، وكانت لدينا معلومات تسربت إلينا من بعض الحراس الذين لم يفقدوا آدميتهم تماما عن كميات ونوع الطعام الذي ينبغي أن يصرف لنا، فكنا نحتج ونصيح في وجه المتعهد بأن الطعام أقل، ونوعه أردأ. ثم اتضحت لنا علاقة المنفعة بين قائد المعتقل ومتعهد الأغذية حين رفض القائد استلام أية شكوى مكتوبة بهذا الشأن ضد المتعهد. وفي هذه الظروف زادت حالات المرض داخل العنابر، وحين طلب بعض المعتقلين عرضه على الطبيب قام قائد المعتقل باستدعاء أولئك المرضى وأمر بجلدهم!

في شهر يونية قررنا في مواجهة ذلك المعتقل النازي أن نمتنع عن استلام الطعام للضغط على الإدارة لوقف عمليات الجلد وتحسين الأكل والسماح لنا باستلام رسائل الأهل وغير ذلك. وكان كل عنبر معزولا عن الآخر، وكانت هناك منطقة فاصلة بين العنابر الأربعة التي تقع في الجهة الأمامية، والعنابر الأربعة الأخرى. وكان الاتصال بيننا صعبا وتنظيم الاتفاق على رفض الطعام شبه مستحيل. ومع ذلك فقد تفتق ذهن الرسام المبدع زهدي العدوي عن طريقة. فخرج متجها إلى دورة المياه وهو يحمل جردل البول وقد كتب عليه بالميكروكروم القاني أنهم سيمتنعون عن استلام الطعام، وكتب أيضا تاريخ البدء في تلك العملية.

وهكذا فوجئت إدارة المعتقل برفض العنابر كلها في صباح أحد الأيام إرسال مندوبيها لاستلام الطعام! وجن جنون قائد المعتقل، وأخذ

يسمع من كل عنبر نفس العبارات: نطالب بوقف الجلد، وزيادة الطعام وتحسينه، وتوفير الصحف، وحق الاستماع للإذاعة، ومطالب أخرى. ولم يستطع المقدم أحمد منير غالي أن يعرف: كيف استطعنا رغم كل تلك الحواجز أن ننظم معا في وقت واحد تلك العملية؟! ورضخت الإدارة مرغمة لمطالبنا.

من بين سكان العنبر رقم (4) كان ثمة خمسة أعضاء في خلية منظمة داخل الحزب الشيوعي. وكنت مسئولا سياسيا عن الخلية. وكنا نعقد بين الحين والآخر اجتماعات مغلقة علينا. وفي حينه كان مجرد حديث متبادل بين معتقلين عبر الشباك يؤدي إلى جلد كل منهما. أما الكلمة المكتوبة فكانت ذروة الممنوعات، ولذلك كثيرا ما كنا نكتب على ورق البفرة، ونتبادل الرسائل السرية على ورق علب الدواء. ونخفي كل ذلك في أماكن مختلفة لتصبح بمأمن من أعين وأيادي الحراس والضباط. كان أحد الخمسة الأعضاء في الخلية طالبا جامعيا يدعى حمدي الحناوي. وفي التاسع من سبتمبر 1959 ضبط الحراس حمدي وهو يخفي تقريرا حزبيا في دورة المياه بالمعتقل. فجرجره، ومعه التقرير، ووضعوه في زنزانة في الحبس الانفرادي. وهناك انهالوا عليه بالضرب والتعذيب إلى أن اعترف لهم بأن فوزي حبشي هو المسئول السياسي عن الخلية الحزبية داخل العنبر. كان حمدي شابا، ولم يكن ذا خبرة، وربما لم يكن صلبا ليحتمل صنوف العذاب التي تعرض لها.

وبعد أيام قليلة، وتحديدا في 9 سبتمبر استدعتني إدارة المعتقل وقت الغروب، وأوقفني الحرس في الحوش الخلفي للمعتقل في مركز قوس من دائرة، اصطفت عنده كراسي جلس عليها الضباط: الصاغ أحمد منير غالي قائد المعتقل، ووكيل القائد اليوزباشي عبد المنعم التونسي، وملازم شاب يدعى حمدي شارك بنفسه في الضرب، وتوسط الجميع شخص بملابس مدنية علمت فيما بعد أنه البكباشي عبد العزيز شاكر أحد مجرمي المباحث العامة جاء خصيصا لتلقين المعتقلين درسا لا

ينسونه حسبما تخيل. وخاطبني الملازم الشاب حمدي بقوله:

- أنت المهندس اللي نجاك زملاؤك في السكك الحديدية من قضية 955؟

كان ذلك الملازم شابا صغير السن بحيث خطر لي أن القصة لابد أن تكون قد نقلت إليه في صورة أنني الشخص الذي استطاع أن يفلت بحكم براءة. رغم الأدلة التي قدمها الضابطان حسن المصيلحي وعشوب واثقين أنني سأنال العقوبة الرادعة. كانت البراءة صفعة على وجه المباحث العامة وجهودها ورجالها. فبيتوا النية على الانتقام. جردوني بالقوة من ملابسي إلى أن صرت عاريا تماما بين الذئاب. وفي غمضة عين كان نحو ستة أو سبعة من الجنود ينهالون على ضربا بالكرابيج السوداني في كل الاتجاهات وعلى كل أجزاء الجسم والوجه دون تمييز وبشكل عشوائي وعنيف.

لم أكن ألاحق الضربات التي كانت تهوي من كل ناحية. وكنت كلما لا مست موضعا بيدي. عادت إلى يدي ملطخة بالدم. لم يعد ثمة مكان في جسمي إلا وقد أصبح زلقا من الدم. لم أعد أرى شيئا أمامي. بينما يأتيني صوت الضابط عبد العزيز شاكر يسألني: «من هو المسئول الحزبي في المعتقل؟». «من هو المسئول الحزبي؟ تكلم». وتدخلت مع الكرابيج العصي والشوم وجريد النخيل. لم أدر كم استمر الضرب. نصف الساعة؟ أو أكثر؟ أو أقل؟ لكنه استمر بحيث شعرت بقواي تخور وبضربات قلبي تتلاشى. وأنني على حافة الموت. هوت إحدى العصي بضربتها العنيفة على منتصف ساقي. فسقطت على الأرض. ورأيت بصعوبة نظارتي الطبية ملقاة بعيدة. وأحسست أنها النهاية. والصوت مازال يأتيني كالطنين: «من هو المسئول الحزبي؟ تكلم». خلعت الدبلة من إصبعي وأعطيتها لليوزباشي عبد المنعم التونسي الذي ميزت وجهه بصعوبة. وقلت له: أعطها لزوجتي وأولادي. ولمحت في خضم الدم والتعب بريق دموع يلمع في عينيه قبل أن يخطو

بعيدا عني والدبلة في يده. غامت كل الأشياء في نظري، ولم يعد عقلي قادرا على متابعة ما يحدث، ولم أعد أشعر بأطرافي. وجاءوني بالشاب حمدي الحناوي ليفل عزيمتي بهمس كلماته: "**لقد اعترفت لهم بكل شيء، فاعترف باسم المسئول وأنقذ حياتك**". بآخر ما تبقى من قوة في جسدي وبآخر شعاع من نور في عقلي أشحت عنه بوجهي في صمت.

تأكد ضابط المباحث عبد العزيز شاكر بعد محاولته الأخيرة من أنني لن أتكلم. فصاح في العساكر:

- جروه على الزنزانة.

تخيلتهم يسحبون جسمي على الأرض، وتصورت الألم الذي سيحل بي من الجروح المفتوحة. فتمالكت نفسي بصعوبة وقمت متكئا على أحد العساكر لأسير إلى الزنزانة، وما أن رآني عبد العزيز شاكر واقفا حتى هتف:

- هوه لسه فيه الروح؟ إجري يا ولد وهات كيس من العربية.

كان الكيس الذي جاء به أحد الجنود يحتوي على ملح طعام. أذابوا الملح في جردل مياه، ثم غمروا في الجردل ملابسي الداخلية، وأخذوا يعتصرون الملابس فوق كل جروحي المفتوحة ويبللون بها كل موضع يسيل منه الدم. اندلعت النار في جسمي كله. وأحسست بصدمة رهيبة كأني دخلت إلى جهنم. وقادوني وأنا أغالب سكرات الموت إلى زنزانة انفرادية، وألقوا بي على الأرض. وهناك أغشي علي، وظللت هكذا لا أدري كم من الزمن، إلى أن بدأت أسمع صوت رفيق من الزنزانة المجاورة هو المرحوم الصيدلي محمد الخفيف، الذي نصحني بعدم الحركة قدر الإمكان، وقال لي:

لقد ظنوا أن قلبك سيتوقف من صدمة الماء المالح.
الآن لا تتحرك، ولا تبذل أي جهد.

والحقيقة أنني لم أكن قادرا على فعل أي شيء، كنت أحاول أحيانا أن أرفع رأسي قليلا لأعلى فأجدها تهوي على الأرض.

علمت فيما بعد أن الزملاء المعتقلين قد امتنعوا عن استلام الطعام مطالبين بحضور النيابة للتحقيق، أو على الأقل للسماح للأطباء من زملائي بمتابعة حالتي وعلاجي. وبالفعل، جاءني ظهر اليوم التالي الطبيبان مختار السيد وممدوح الجندي، ومعهما طالب اسمه منجد توفيق، وكانوا يحملونه مواد الإسعافات الأولية من شاش وخلافه. أذكر أن منجد توفيق هذا سقط على الأرض مغشيا عليه حين شاهد وجهي وقد مزقته خطوط الجراح بالطول والعرض. وقال لي الدكتور ممدوح إنهم أرادوا بغمر جروحي بالماء المالح أن أصاب بسكتة قلبية نتيجة الصدمة الشديدة، فلا يحاسبهم أحد على موتي. إلا أن الملح قد طهر الجروح ولم يدعها تتقيح! وحكي لي الزملاء جانبا من مشهد التعذيب لم أشعر به، فقالوا لي: إن يد الكرباج تحطمت في يد أحد العساكر وهم يضربونني، فاتجه إلى عسكر الهجانة في خيامهم بين الأسلاك الشائكة يطلب منهم كرباجا، فرفضوا ونهره أحدهم قائلا:

- إيه ده؟ الراجل مات في إيديكم وأنتم لسه بتضربوه!

ظلت آثار هذا التعذيب ظاهرة على جسدي، حتى أنني حين رفعت قضية على الحكومة عام 1975 كان المحقق معي وقتها الأستاذ قراعة، فأحالني للطبيب الشرعي الذي أثبت في تقرير وضوح كل آثار التعذيب بعد انقضاء خمسة عشر عاما عليه! وهي باقية حتى اليوم؟!..

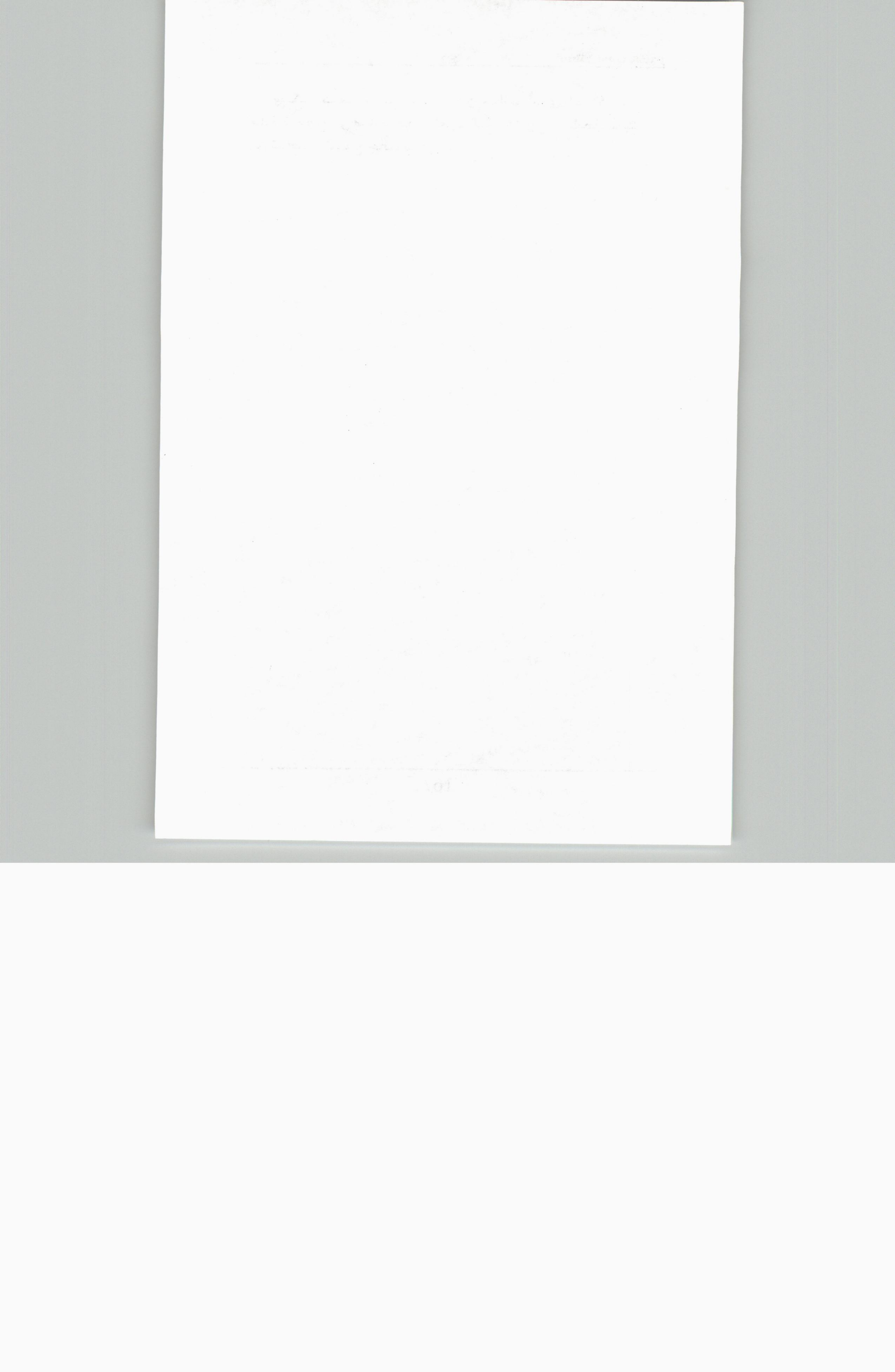
فيما بعد أشار عدد من الرفاق إلى تلك الحادثة في مذكراتهم عن تلك الفترة. كان منهم طاهر عبد الحكيم الذي جاء في كتابه «الأقدام العارية»:

"بلغ الإرهاب ذروته حينما عثر مع أحد المعتقلين على رسالة مكتوبة في ورقة صغيرة، وتحت إشراف رجال المباحث العامة تم جلده مائتي جلدة فانهار وأدلى باسم واحد من المعتقلين هو المهندس فوزي حبشي باعتبار أنه هو الذي سلمها له، فاقتادوا المهندس فوزي إلى مبنى الإدارة وطلبوا منه أن يدلي بمعلوماته عن التنظيم السري في المعتقل، ولما لم يتكلم انهالوا على جسده العاري بالسياط، حتى تمزقت على جسده ستة كرابيج، وكلما أغمى عليه ألقوا على جسده المثخن بالجراح ماء مشبعا بالملح، إلى أن يفيق فيستأنفوا جلده.. والمرء لا ينسى للعساكر السود أنهم رفضوا إعطاء كرابيجهم لرجال المباحث ليواصلوا بها ضرب المهندس فوزي الجريح, بعد أن تمزقت الكرابيج التي كانت في حوزة الإدارة"

وقد أشار السيد يوسف إلى قصتي في كتابه الهام «مذكرات معتقل سياسي» قائلا:

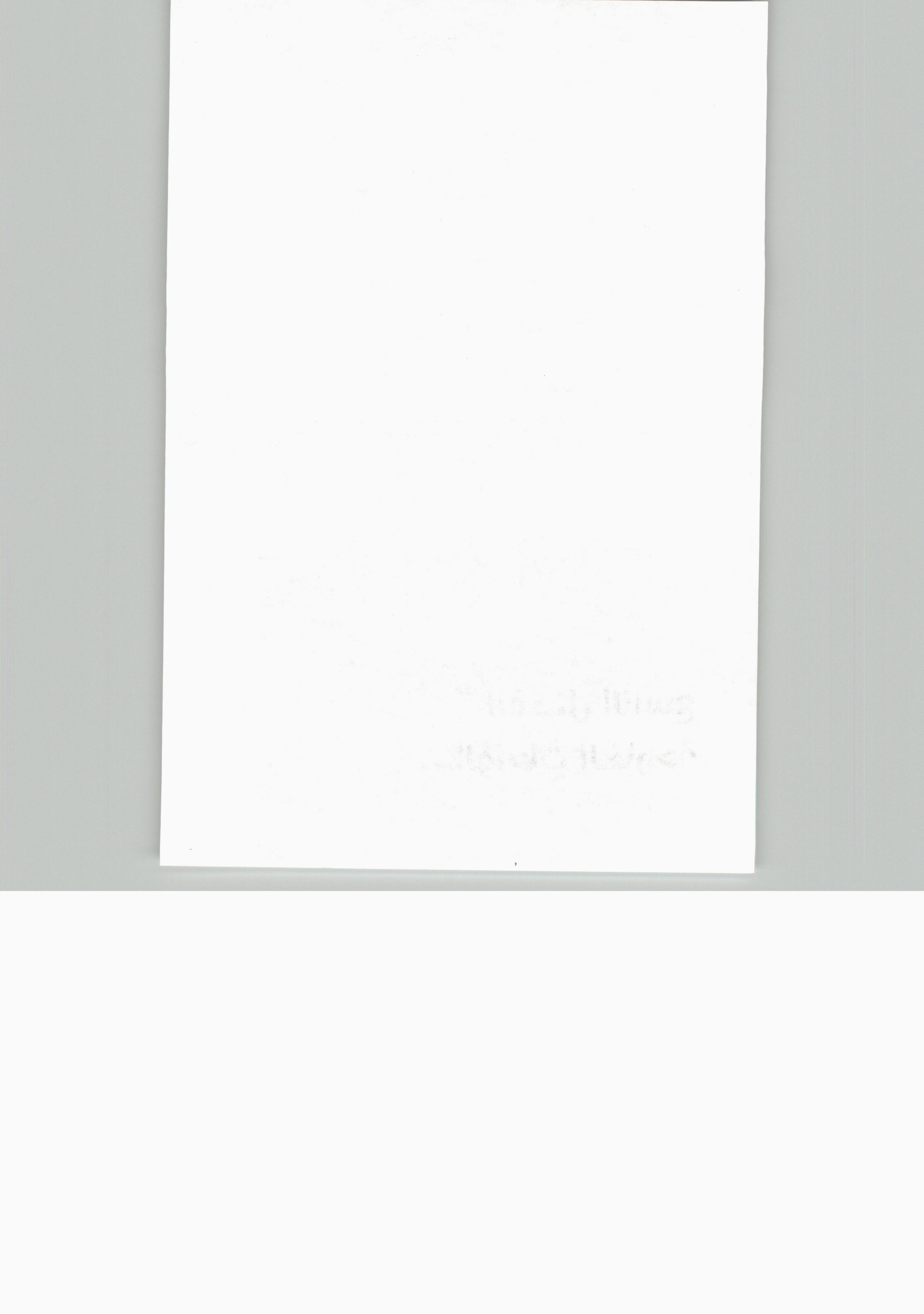
"عثر أحد الضباط على بعض الأوراق فقام ومعه مجموعة من العساكر بضرب المهندس فوزي حبشي بالشوم وجريد النخل وجلدوه على العروسة حتى فقد الوعي ووصل إلى حافة الموت"

وهكذا كانت الصورة تعرض من جوانب أخرى. لم أكن في حالة تسمح لي بمتابعتها حينذاك. لكن التاريخ لا يهمل شيئا من تفاصيل تصنع جانبا من روحه.



الفصل التاسع

الواحات الخارجة



وأنا في حالتي الصحية السابقة تلك منهكا وجروحي لم تلتئم، أمرت المباحث العامة دون سبب منطقي بنقلي فورا إلى معتقل الواحات الخارجة! ربما أرادت المباحث التخلص مني بتلك الرحلة المنهكة من معتقل العزب إلى معتقل الواحات الرهيب، الذي يقع في قلب الصحراء الغربية بعيدا عن القاهرة بمئات الأميال.

وقد فهمت فيما بعد أن المعتقلين قد رفضوا المغادرة إلا إذا أصطحبونى معهم خوفا على حياتى .

ودعني زملائي، وتطوع الكاتب الصحفي الراحل إبراهيم عامر فمنحني روب حرير، ليكون ملمسه ناعما على جروحي.

وبدأت الرحلة من مدخل معتقل العزب. كانت سيارة ترحيل تقف في انتظار عشرات المعتقلين، ضخمة، لا يكاد يوجد بها فتحات للهواء إلا أقل القليل. وحشروا الزملاء داخل السيارة، وترفقوا بي، فسمحوا لي بالجلوس بين السائق والضابط المرافق الذي حدثني في الطريق عن سخطه على أولئك الذين عذبوني بهذه الوحشية. انطلقت بنا السيارة إلى محطة القطار.

وتذكرت ما جرى في يونيو 1959 حين تم ترحيل مجموعة مماثلة من الشيوعيين من ذات المعتقل «العزب» إلى الواحات، وكان عليهم أن يتوقفوا في«المواصلة» ليركبوا القطار إلى الواحات. وكان جميع المعتقلين مربوطين بالحجلة. والحجلات لمن لا يعرفها هي سلاسل حديدية بطول عشرات الأمتار يربط بها المساجين أو المعتقلون

على مسافات متقاربة بحيث يسهل قيادتهم كالعبيد. وحين وصل القطار بدأ المعتقلون يصعدون إليه، بعضهم كان داخل عربة القطار، وبعضهم مازال على الرصيف لم يصعد بعد. وفجأة تحرك القطار، وهو يجذب المعتقلين المربوطين الذين لم يصعدوا خلفه. فتساقطوا على الأرض وبدأ جنزير الحجلات يسحلهم، وخطر الموت يتهددهم. لولا أن أحد ضباط الحرس تنبه لما يجري فأطلق أعيرة نارية في الهواء سمعها السائق فأوقف القطار. وتحطمت أذرع وسيقان عدد منهم كان من بينهم الأستاذ الجامعي المعروف د. فائق فريد. وفيما بعد كتب المهندس الظريف المرحوم محمود المستكاوي قصيدة طويلة بعنوان» رحلة الحجلات» يصف فيها ما حدث بقوله:

"وانتهت رحلتنا في قطر الصعيد
نزلونا في المواصلة وانتقلنا من جديد
مرة تالته بالعدد، العدد مضبوط أكيد
كل عشرين لهم جنزير يشخلل من بعيد
زي طابور المواشي زي طابور العبيد
بالحجلات اللعينة إيد في إيد جوه الحديد"

حين بلغنا ميدان محطة السكك الحديدية وجدناه خاليا من البشر ما عدا صفوف العسكر المتماسكة المتأهبة كأنها ستخوض معركة مصيرية ولكن الجماهير خلف صفوف العسكر كانت تهتف ضد الظلم والوحشية التى رأوها.

هبطت من السيارة بصعوبة، وأخذت أتحرك بخطوات صغيرة لا تزيد خطوتي عن بضعة سنتيمترات قليلة من شدة الألم. عبرت الميدان إلى المحطة فيما يشبه الساعات الطويلة. وأذكر أن كان يمشي بجواري أحد ضباط المدينة، وهو صعيدي من لهجته، وحين رأى الأقطان تغطي جسدي من تحت الروب همس في أذني بصوت خافت.. «دول مش بني أدمين.. دول وحوش؟! ورفعت هذه الكلمات من روحي المعنوية كثيرا؟!.. وعلى

رصيف المحطة فرش لي زملائي بطانية استلقيت عليها. وحين وصل القطار حملني زملائي بالبطانية إلى أعلى، وأنا بين الصحوة والإغماء. يقطع القطار بي مئات الكيلومترات دون أن أشعر بشيء إلا حركة الارتجاج التي تهيج آلام جروحي. وحين بلغنا معتقل الواحات، خرج قائد المعتقل ونظر إلي وأنا على بطانية فوق الرمال، ورفض استقبالي قائلا «إنه بين الحياة والموت، ولست مستعدا لتحمل مسئولية وفاته عندي». واتصل القائد برؤسائه في القاهرة فأمروه بإدخالي المعتقل، والسماح لي بوصف حالتي الطبية في دفتر الأحوال. أدخلونا إلى المعتقل وهناك تولى زملائي الأطباء عني وصف حالتي بدقة في الدفتر. فيما بعد، أثناء محاكمتي طلبت العودة إلى هذا الدفتر دليلا على تعذيبي، فلم يستدل عليه ضمن أوراق المصلحة!

في تلك الأيام كانت النشرات الإذاعية العالمية وخاصة في شرق أوروبا تتابع وتبث أخبار ما يحدث داخل المعتقلات، وكانت حادثة موت أو قتل،

في نوفمبر 1959:

د. فريد حداد قد شدت الأنظار بقوة إلى الانتهاكات التي تتم. وحدث أن إحدى الإذاعات نقلت خبر ما جرى لي في «العزب» واختتمت الخبر بأنني فارقت الحياة نتيجة التعذيب. وسمع الخبر أخي د. فتحي حبشي الأستاذ بجامعة لافال بكويبك بكندا، فأرسل مبلغا بالدولارات لوالدتنا مساهمة منه في مصاريف جنازتي! وتلقت والدتي الشيك وصرفته دون أن تفهم سببا لإرسال ذلك المبلغ. وكان عدد من الأصدقاء داخل مصر قد سمعوا الخبر ذاته، فقرر بعض زوجات وأمهات المعتقلين أن يقدمن واجب العزاء لأمي، واتجهن إليها في الملابس السوداء والحزن على وجوههن. ورحبت أمي بهن، وقدمت لهن الشاي والحلوى كالمعتاد، وتبادلت النساء النظرات وأدركن أن أمي لا تعلم شيئا عن وفاتي بعد، وفضلوا ألا يقولوا لها شيئا. ثم اتجهن بعد تلك الزيارة إلى السيدة

نادية كمال التي ترعى الأولاد، يستفسرن عن الأمر. واستشاطت نادية كمال غضبا، وهي تردد:

أيعقل أنهم قتلوه؟

وفي صباح اليوم التالي اتجهت نادية إلى مصلحة السجون تستفسر بانفعال عن الأقاويل التي تتردد بشأن مقتلي، أو موتي، وطالبت بإجابة صريحة. ولطمأنتها طلب منها طرد أدوية لكي يرسلوه إلي ويحصلوا مني على توقيع باستلامه لترى نادية توقيعي وتطمئن أنني حي. وقد كان. فقد فوجئت ذات يوم بقائد المعتقل يستدعيني ويسلمني طردا من الأدوية ويطلب توقيعي على استلام الطرد. وكان ذلك الطرد أول بادرة اتصال بيننا وبين العالم الخارجي بعد فترة طويلة لم نسمع فيها شيئا عن الخارج أو منه! الأكثر من ذلك أن المعتقلات والسجينات مع ثريا زوجتي سمعن الخبر من أجهزة الراديو الترانزستور المهربة، ولم يستطعن نقل الخبر إلى ثريا، لكنهن كن يسألنها من وقت لآخر: "**أخبار فوزي إيه؟**" فتتعجب ثريا من كثرة السؤال عني وعن صحتي دون أن تدرك السبب. وهنا أحب أن أشير إلى موقف هام كان بيني وبين ثريا بعد أن أعتقلت هي وكنت أنا مطاردا من الأمن ولا أرى الأولاد إلى نادرا فقد تشاورنا في أمر رعايتهم وأرسلت لها اقتراحا بتوزيعهم على منازل أخرى.. وجاء ردها حاسما مقنعا في نفس الوقت إذ قالت:

"يكفيهم فقداننا ولا داعي ليفقدوا المكان الذي يعيشون فيه أيضا..؟! من يقبل برعايتهم في مكانهم فليتفضل؟!.."

وهنا تقدم المهندس رمزي شاكر أخو ثريا وبعض الأصدقاء بالدعم المادي وتقدمت السيدة: نادية كمال بالإشراف الاجتماعي اليومي مع بقاء والدتي التي جاوزت السبعين عاما في نفس مسكنهم.



السيدة: نادية كمال راعية أطفالى الثلاثة
مع إبنها هشام

وصلت الرحلة إلى سجن الواحات الذي يبدو قد بني حديثا بعنابره المتباعدة ذات الزنازين الواسعة بشبابيكها التي تقارب السقف.

من شباك الزنزانة ذي المربعات الحديدية أرسل الشاعر فؤاد حداد بصره إلى السماء وكتب:

بطول الليل
أشوف البدر متقسم
أشوف البدر متقسم ورا قضبان
أشوف البدر متقسم ورا قضبان وليله طويل

كنا جميعا نرى البدر مقسوما والسماء معتقلة وراء القضبان.

لكننا كنا بحاجة لذلك الشاعر الكبير لكي يطلق الأسماء على مشاعرنا فتنمو في الزمن ولا تموت داخل صدورنا. كنا نرى أن البدر مقسوم، ولكن حين كتب فؤاد حداد ذلك أدركنا أنه سيظل مقسوما هكذا للأبد، شاهدا على تلك اللحظة.

كان سجن الواحات مكونا من عنابر متراصة في مباني كاملة التشطيب.

بكل عنبر دورة مياه خاصة به، وكل عنبر ينقسم إلى زنازين كبيرة تسع كل واحدة نحو عشرة نزلاء، أبوابها مصفحة، لكن بها فتحات واسعة بقضبان، وكنا نضطر لتغطيتها بالبطاطين في الشتاء اتقاء للبرد القارس، ونغطيها في الصيف اتقاء لأعين الحراس. أما حوش السجن فكان كبيرا تصلح مساحته ملعبا لكرة القدم، وفي آخر الحوش يقع مبنى الإدارة، متواضع ولكنه أنيق.

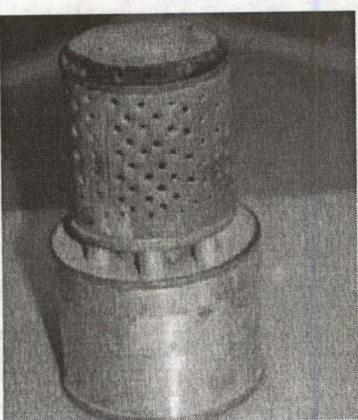
كان أحد العنابر مخصصا لـ«الإخوان المسلمين»، والثاني للشيوعيين المحكوم عليهم في قضايا، والثالث لنا نحن المعتقلين الذين حبسنا من دون محاكمة أو أحكام.

الإخوان كان محكوما على بعضهم بعشرات السنين، وقد تصادقنا بالرغم من حظر الاتصال بين العنابر المختلفة، فقد جمعتنا المحنة المشتركة، وكان من بينهم الدكتور كمال خليفة الذي عاصرته أستاذا بكلية الهندسة جامعة فؤاد الأول (القاهرة) ثم أصبح وزيرا فيما بعد. أحدهم كان نجاراً ماهرا، وحينما تصادقنا، أهداني من صنعه مثلثا خشبيا مما نحتاجه للوحة الرسم، وكان المثلث مصنوعا بدقة شديدة لافتة للنظر حتى أنني مازلت أحتفظ به إلى يومنا هذا.

في العنبر الثاني استقر الشيوعيون المحكوم عليهم وكانوا يرتدون زياً معروفا أزرق اللون كثيرا ما كانوا يحولونه بمهارة وذوق إلى ملبس أنيق، وكانت لهم حقوق ثابتة كزيارات الأهل لهم، والتعامل مع البوفيه لشراء الأطعمة والسجائر والتنقل خارج الزنازين وأحيانا الحركة خارج

العنابر ذاتها.

أما عنبر المعتقلين التابع للمباحث العامة فلم تكن له أية حقوق، ومنها التعامل مع«الكانتين»أو البوفيه. وسميت إحدى زنازين ذلك العنبر: «مستشفى». وبالطبع لم يكن لها أية علاقة بالمستشفى، فلم تكن سوى زنزانة لا تزيد على باقي الزنازين شيئا، سوى أنه بدلا من الأبراش (جمع برش) وضعت سرا ير سفاري صغيرة عليها مراتب نحيفة متهالكة. وقد سكن في تلك «المستشفى» أحد المعتقلين وهو الدكتور حمزة البسيوني الذي كان يلقى مرضاه ببشاشة ولا يخلو حديثه من النكات والقفشات الظريفة التي تهون على المتعبين. جاء مكاني إذن وحالتي على ما كانت عليه في هذه «المستشفى»! وعلى السرير السفري بدأت نسبيا أشعر بالراحة بعد ما عانيته من عذاب السفر الطويل بالسيارة أولا ثم القطار.



التوتو

في الواحات استقبلنا مأمور المعتقل فريد شنيشن، وكان يحلو له أن يقف فينا ليقوم بدور الخطيب المفوه مسترسلا في حديث بلا معنى محدقا فينا كأنه يخاطب قوافل أسرى حرب. ولم يكن شنيشن هذا ليتردد في توقيع العقوبات الجماعية على قاطني أية زنزانة إذا خالفوا

تعليماته الخرقاء التي يصدرها. ذات يوم أصدر أوامره بأن يقف المعتقلون داخل الزنزانة بمجرد سماعهم كلمة«انتباه» التي تعني أن سيادته أو أحد ضباطه في طريقه لدخول الزنزانة أو العنبر. فإذا دخل ولم يجد الجميع واقفين، هجم العشرات من جنوده بالعصي تضرب المعتقلين. وفي صباح اليوم التالي يأتي الشاي إلى العنبر مشوبا برائحة المياه التي سلق فيها البيض، أو غيره. أما شاي المساء فكان يأتينا مخلوطا برائحة الجاز!

كانت الزنازين مغلقة علينا طيلة الوقت، ما عدا طابور للفسحة لمدة نصف ساعة. وغارات التفتيش المفاجئة مستمرة فإذا تم العثور على ورقة أو قلم لدى أحد المعتقلين مزقوا جسده بالعصي وجريد النخيل. وكنا نخرج من الزنازين صباح كل يوم حفاة شبه عراة في طوابير تتعرض للضرب والشتائم القذرة من كل الأنواع في عملية قصد بها إذلال البشر وتحطيم كرامتهم. ونتجه إلى قطع الأرض الجرداء، الخالية من أي شيء ما عدا العقارب والثعابين السامة و «الطريشة» وهي شبيهة بالثعبان لا يزيد طولها على قدم بشرية، لها رأس فأر أو قط صغير، وذيل دقيق. كنا نحرث الصخر، وننقل الأتربة، كأنما لنشق الطريق لقناة سيأتي الماء عبرها يوما! وفي واقع الأمر كنا -تحت ضربات العساكر- نزحزح الأتربة بالفؤوس وننقلها في مقاطف من مكان لآخر دون أي جدوى لذلك العمل، أو أي هدف، كان المقصود مجرد إذلال البشر وإشعارهم بأن جهدهم وعرقهم ووقتهم بلا معنى.

وخلال ذلك كانت الطريشة تدفن نفسها في التراب وتقلص جسمها ثم تقفز فجأة للخارج لتلدغ لدغة قاتلة، لا شفاء منها. وأذكر أننا ذات يوم تمكنا من اقتناص واحدة، وسلمناها لإدارة المعتقل لتدرك خطورة إجبارنا على عمل بلا طائل في تلك البقع من الأراضي. كان الطعام قليلا ومن أنواع رديئة حتى أصبح معظمنا يعاني من هزال وضعف من شدة الجوع وقلة وسوء التغذية، فلم يكن الإفطار يزيد

على قطعة جبن قريش وعسل أسود. ثم كمية من الفول على الغداء. وفي العشاء مجرد مياه يسمونها شوربة مع قطعة من الجلد يدعون أنها تنتسب إلى اللحوم. وقد حدث أننا خرجنا صباح أحد الأيام كما هي العادة للعمل في تطهير مجاري المياه. وكان الرفاق ينقضون على أي شيء أخضر مما ينبت على حواف القنوات. فوجدوا حبوبا متناثرة على الأرض وتناول ظريف عبد الله واحدة منها تذوقها على مهل ثم أفتى بأن طعمها يشبه طعم اللوز! ولم نفكر كثيرا. فاندفعنا نأكل ونحمل ما نستطيع حمله إلى العنابر من تلك الثروة التي هبطت علينا فجأة. مساء نفس اليوم أخذت حالات الإسهال تتزايد. وصيحات الألم ترتفع. واتضح أن تلك ثمار شجرة خروع سامة! واضطرت إدارة المعتقل لفتح أبواب الزنازين. وبتنا تلك الليلة نتنقل بين الزنازين ما بين مصاب يستغيث إلى آخر يتناول الدواء من الطبيب. وكانت حالة أحدنا من الخطورة بحيث اضطرت الإدارة لنقله إلى القاهرة. وكان طبيبنا اللطيف الزميل مختار السيد يكرر كلما رأى واحدا منا: «مش مشكلة». فأطلقنا عليه فيما بعد «الدكتور مش مشكلة»!

كانت هناك محاولة متكاملة لتحطيم إرادة البشر وتصفية قدرتهم النضالية. وبرغم الظروف القاسية التي عشنا فيها في معتقل الواحات فإنها أظهرت المدى الذي قد يبلغه احتمال الإنسان. وبطولته. إلا أن وحدة الشيوعيين في حزب واحد من 8 يناير 1958 كانت قد بدأت في الانهيار. إلى أن بدأت محاولة إقامة الوحدة المصرية السورية في فبراير من نفس العام وزار الرئيس شكري القوتلي القاهرة ليستنجد بعبد الناصر خوفا من تنامي نفوذ الحزب الشيوعي السوري قدبت خلافات سياسية هامة داخل الحزب وراحت كل الفرق بكافة اتجاهاتها وتنظيماتها السابقة تنشط بشكل جانبي مع أعضائها. وبرز تيار سياسي داخل المعتقل يرى أن هناك مجموعة اشتراكية داخل السلطة الناصرية ولابد من تأييدها. واعتبر آخرون أن الحكومة

تمثل مصالح البرجوازية الوطنية. ورأى فريق ثالث أن الحكومة لا تمثل سوى مصالح البرجوازية الكبيرة والاحتكار. وانتشرت حالة من البلبلة الفكرية بين المعتقلين.

في ليلة 31 ديسمبر 1959:

ذهبت مع الصديقين محمود المانسترلي، وسيد عبد الله. لتهنئة المأمور فريد شنيشن بليلة رأس السنة ومطلع العام الجديد. دخلنا إليه وقد رسمنا الابتسامات على وجوهنا أملا في أن تهنئتنا له بهذه المناسبة ستخفف من غطرسته وتدعوه إلى تحسين معاملة المعتقلين. ولكننا فوجئنا به ينهض واقفا ويغمغم بكلمات غير مفهومة خرج بعدها ليصدر تعليمات عاد بعدها ومن خلفه سيارة لوري محملة بعشرين عسكري مزودين بالعصي والشوم. ووسط ذهولنا انهال علينا العسكر بالضرب دون تمييز. وتحطمت ذراع سيد عبد الله. وأثخن بدن المانسترلي وهو ضابط سابق بالجراح حتى لم يعد قادرا على الحركة. وتحطم مشط رجلي اليسرى في الضرب إلى درجة أنني مازلت أعاني منه إلى اليوم. ما الذي جرى؟ أي جنون هذا؟ وهكذا ألقوا بنا داخل عنبر المستشفى ونحن مازلنا غير مصدقين!

في المساء دخل علينا فريد شنيشن وزادت دهشتنا حين أخذ يواسينا ويهون علينا ما جرى وقد قال لي بسخف: **"هي جت فيك أنت كمان؟!"**.

وكأننا ضربنا بتعليمات من شخص آخر؟! وبرر سيادته الهجمة التتارية علينا بأن جنوده اكتشفوا أوراق بفرة عليها بيانات سياسية مخبأة في دورة المياه!.

ذات يوم فوجئنا بحالة طوارئ في المعتقل. فقد وصلت من القاهرة بعثة من الضباط العظام على رأسهم اللواء إسماعيل همت. وهو شخص لم يفق تفاهته الشخصية سوى حبه لتعذيب الآخرين حتى

طار صيته في كل المعتقلات رمزا للإجرام. ونصبت لسيادته منصة مرتفعة في فناء المعتقل واصطف حولها صفان من الجنود في وسطهم فخامة اللواء. وأخذ العسكر ينادون أسماءنا فنخرج واحدا بعد الآخر فيفاجئنا صفين من الجنود يشبعوننا ضربا بالعصي والجريد حتى يصل الفرد منا إلى المنصة. فيأمرنا إسماعيل همت جلاد السجون بخلع ملابسنا تماما لنصبح كما ولدتنا أمهاتنا. فيهجم علينا حلاق شعر من الدرجة الثالثة ويشرع فورا في جز الشعر بطريقة همجية ولا يتردد في الوصول إلى شعر الأماكن الحساسة. ويرجع كل منا بين صفي الجنود وهم يشبعوننا ضربا في رحلة العودة. مذهولا. دامي الرأس. هكذا رأيت بعضا من كبار أساتذة الجامعات والتعليم والثقافة والفكر. يدخلون علينا الزنزانة عراة حفاة شاردين من الصدمة حاملين بين أياديهم السراويل والقمصان يرتدونها ببطء.

أقفلت الزنازين تماما بعد زيارة إسماعيل همت. ولم تعد تفتح إلا دقائق معدودة مرة في الصباح وأخرى بعد الظهر للذهاب إلى دورة المياه. وتفريغ جرادل البول التي تظل داخل الزنازين حتى تملأ رائحتها العطنة الجو. ولا يفوتني هنا أن أذكر أنه كلما قام زميل بالتبول في المساء والدنيا ظلام أن يصيح أحدنا «نشن» لم تكن ثمة حياة أخرى. سوى أحلامنا الباطنية. وذكرياتنا التي نجترها ليلا. في السر. والبدر المقسوم وراء القضبان.

إلا أن حادثة عارضة غيرت ظروف معيشتنا. حادثة لم تكن متوقعة. ففي ذات مساء أحد الأيام دخل علينا مأمور المعتقل فريد شنيشن. وقد انقلب إلى شخص آخر. يفتح العنابر وهو مذعور ويجول بعينيه بيننا سائلا بجزع وخوف:

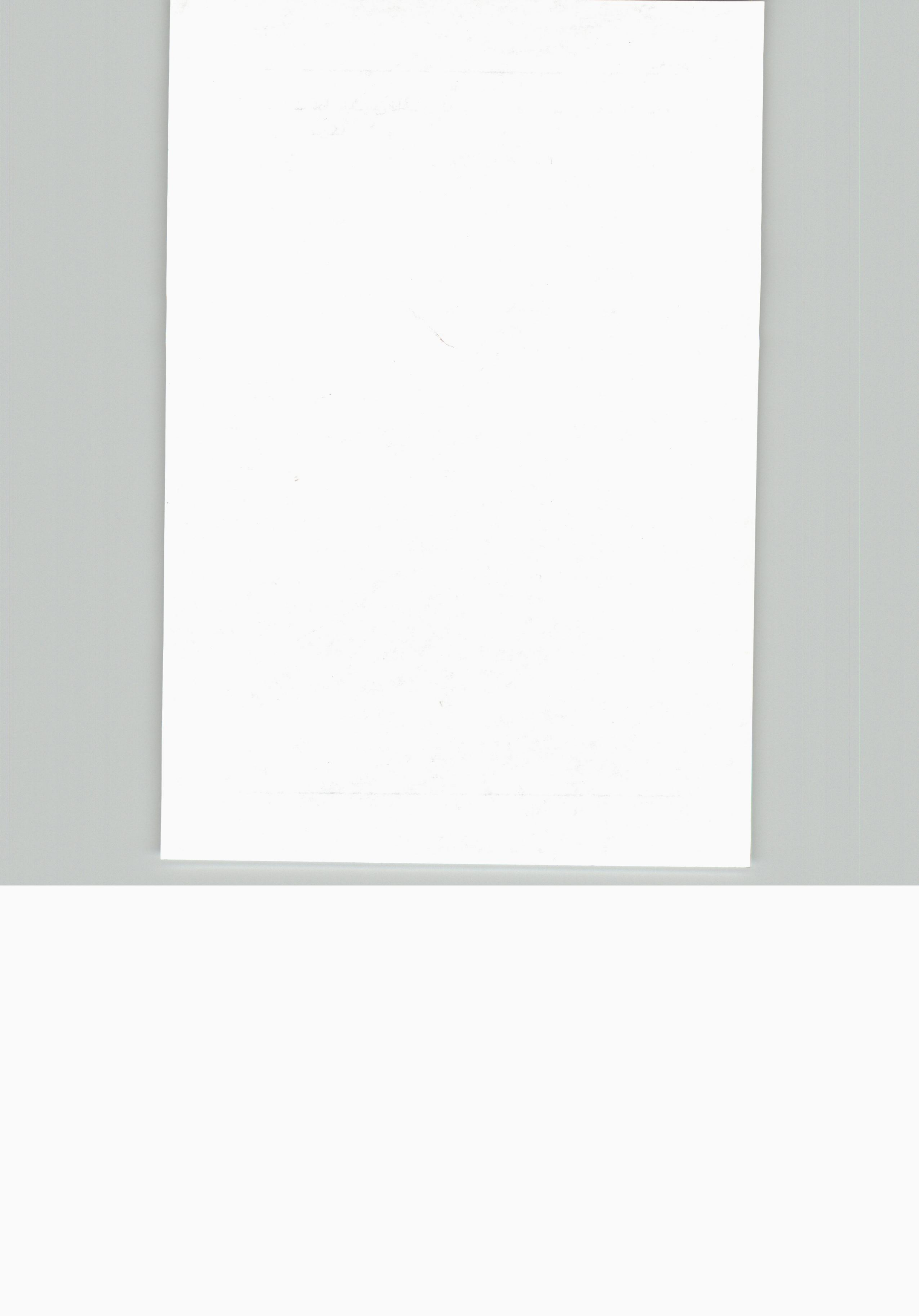
- عندكم دكتور؟ عاوز دكتور حالا؟!

واتضح أن حرارة ابنه الطفل ارتفعت فجأة نتيجة تسمم. وكان طبيب المعتقل في إجازة. ونهض الأطباء من زملائنا: صلاح حافظ، ومختار السيد، وحمزة البسيوني واتجهوا معه على الفور إلى الفيلا التي يسكنها على بعد كيلومترات من المعتقل. وظلوا هناك طيلة الليل مع الطفل حتى أنقذوه من براثن الموت. ورأى المأمور الحياة تدب في جسد ابنه، والدماء تعود إلى وجنتيه. فأصبح شخصا آخر تماما غير «شنيشن الوحش» الذي عرفناه من قبل. وغدت تلك الحادثة نقطة تحول ليس في سيرة شنيشن فقط بل وفي حياة المعتقل أيضا. فقد اختلفت معاملته لنا، واختلفت حياتنا. وأخذنا نتمتع ببعض الحريات النسبية في التنقل والحركة، كما قلت عمليات التنكيل والتفتيش المفاجئة.

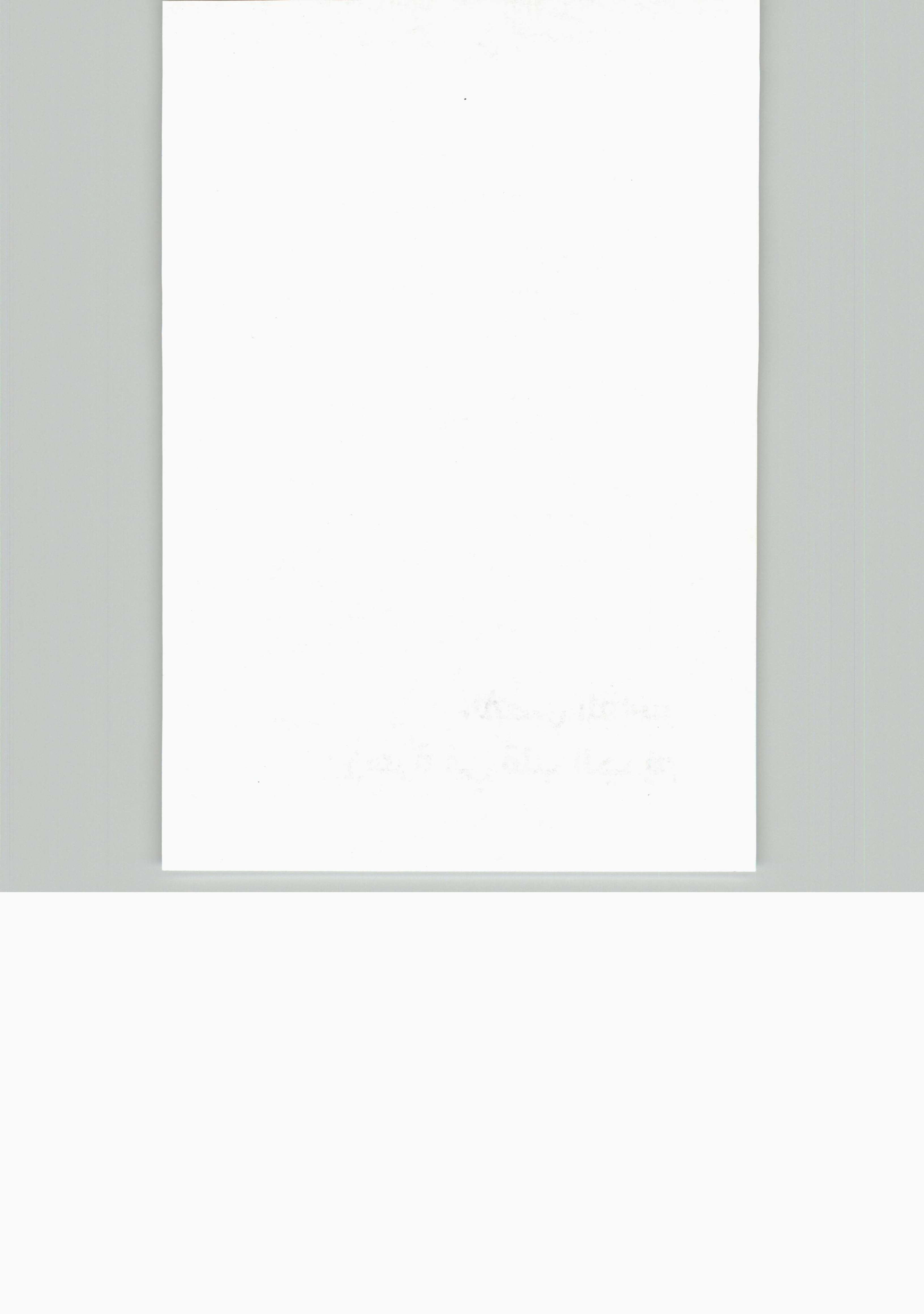
وكانت هناك قطعة أرض تسمى المزرعة يقوم المسجونون بزراعتها بشكل غير مثمر فسمح لنا فريد شنيشن بالمشاركة في استصلاح تلك الأرض المجاورة لعين ماء تبعد عن المعتقل بضع مئات من الأمتار، وبها بدأت قصة المزرعة العجيبة التي استنبتنا فيها بالصحراء مختلف أنواع الخضروات مثل البامية والبقول وخلافه. وإحقاقا للحق كان للزميل عبد المنعم شتلة فضل كبير في نجاح هذه التجربة، لأنه كان مهندسا زراعيا ذا خبرة. كما قام الزملاء: السيد يوسف، وأحمد سليم، وعبد السلام خشان، وغيرهم بتشكيل لجنة قيادية تشرف على استصلاح الأرض، وحرثها وبذرها وريها.

وكلفني الزملاء بتولي عين المياه المهملة بالرعاية، وبرزت فكرة أن نقيم خزانا للمياه، قمت بتصميمه وتولينا جميعا بالمقاطف والفؤوس حفر قاع للخزان يصل إلى عمق مترين بحيث يكون سطحه على مستوى الأرض المزروعة، ثم فتحنا مجرى لتصل مياه العين إلى الخزان. واستخدمنا الخزان كحمام للسباحة، كنا نهرب إليه من قيظ الصيف الحار. ومع استصلاح الأرض وظهور الخضروات في المزرعة أخذنا نأكل

وأخذ الضباط والحراس يأخذون نصيبهم هم أيضا. وكيف لا؟ أليست الحكومة شريكا بالأرض!



الفصل العاشر
زهرة في قلب الجحيم



كنت أنزل إلى القاهرة خلال وجودي في الواحات للمثول أمام النيابة والتحقيق معي في القضية. بطبيعة الحال كان الخروج من المعتقل ورؤية الشوارع ونزول القاهرة عيداً أحس فيه بالحياة، وأختلط بالبشر، وأخرج من وراء القضبان ولو لساعات معدودة. وكانوا بعد انتهاء التحقيق معي يضعونني في سجن القناطر لحين الانتهاء من التحقيق فأعود ثانية إلى الواحات.

في يونية 1960 تواترت الأنباء عن مصرع شهدي عطية الشافعي على أبواب سجن أبي زعبل. وحط على الجميع حزن وغم شديدان من خبر مصرع شهدي عطية، لكنه كان حزنا ممزوجا بنوع من الفخر لصمود شهدي إلى النهاية في وجه الجلادين. كان ذلك هو العزاء الوحيد. وهزت الجريمة الرأي العام. وكان شهدي أول مصري يشغل منصب مفتش اللغة الإنجليزية في وزارة المعارف، وكان قائدا ومثقفا ومؤرخا معروفا ترك لنا إلى اليوم كتابه الهام: «تطور الحركة الوطنية المصرية -1882 1956». قتله الضابط عبد اللطيف رشدي وزبانيته في 15 يونية 1960 في ليمان أبي زعبل بالطريقة المجربة والمعروفة: **الضرب الذي لا يتوقف في مواجهة الكرامة التي لا تنحني.**

وأرسلت زوجته برقية إلى عبد الناصر في 1 يوليو 1960 تقول له فيها:
"قتل زوجي بلا رحمة في ظل النظام الاشتراكي الديمقراطي. قتل ليس في عهد الملك، أو في ظل الاحتلال البريطاني ولكن في عهد الثورة".

وكان شهدي متهما حوكم أمام محكمة عسكرية، ومن ثم لا يمكن إنكار وجوده في السجن، أو إخفاء جثته كما فعلوا مع محمد عثمان. وتسرب خبر قتله إلى الخارج، وكان عبد الناصر في تلك الأثناء في لقاء مع الرئيس تيتو في بريوني يشهد جلسة لمجلس النواب اليوغسلافي، وهناك وصله الخبر حين فوجئ بالمجلس يقف دقيقة حدادا على استشهاد شهدي عطية الشافعي، ووضعت تلك الحادثة كل أقاويل عبد الناصر عن الاشتراكية موضع الشك، ولم يكن أمامه سوى أن يأمر النائب العام بإجراء تحقيق في الجريمة ووقف التعذيب في السجون. وأرادت المباحث العامة خلال التحقيق أن تصور الأمر وكأن تمردا وقع في السجن. واشتمل التحقيق على شهادة محمد يوسف الجندي، الذي سأله المحقق:

– قرر مأمور وضباط سجن أبي زعبل أنكم تمردتم وهتفتم هتافات عدائية ورفضتم دخول السجن واعتديتم على المأمور؟

وأجاب محمد الجندي:

- محصلش. لأنه من المعروف موقفنا المؤيد لسياسة الرئيس جمال الذي أعلناه في المحكمة واحنا نؤيد كل الخطوات التي يسير عليها ولا يوجد ما يدعو للهتاف ضده.

وأصدرت محكمة جنوب القاهرة الابتدائية حكمها في 28 نوفمبر عام 1974 بتعويض أسرة الشهيد باثني عشر ألف جنيه حيث إنه: «قد ثبت في يقين المحكمة أن رجال الشرطة وحرس ليمان أبو زعبل قد تجردوا من القيم الإنسانية والأخلاقية.. واتخذوا معه (شهدي) صنوف العذاب التي لا يقرها شرع أو قانون ولا يحكمها دين أو خلق، وتجردوا من آدميتهم في الانتقام من هذا المخلوق الضعيف الذي ساقه القدر إلى قلوب غلاظ تجردت من معاني الخلق وقيم الإنسانية وانقلبوا وحوشا آدمية ترتكب من صنوف العذاب ما تقشعر منه النفس ويشيب من هوله البدن».

أدى اغتيال شهدي عطية الشافعي لصدور الأوامر بوقف كل أشكال التعذيب داخل السجون والمعتقلات. واستدعى المأمور فريد شنيشن قسما منا ليخبره صراحة أن تعليمات جديدة صدرت بتحسين المعاملة، والسماح بتلقي رسائل الأهل، وشراء ما نحتاجه من» الكانتين» وغير ذلك. وأخذت الحياة تصبح أهون مما كانت وتراخت القيود المختلفة داخل الواحات. لقد افتدى شهدي عطية جميع رفاقه.

في يوليو 1961:

أصدر جمال عبد الناصر مجموعة من القرارات الخاصة بالتأميم، والتي عرفت بالقرارات الاشتراكية. وأعقبها في 28 سبتمبر 1961 الانفصال السوري عن جمهورية مصر العربية على يد ضابط يدعى مأمون الكزبري، وألقى عبد الناصر خطابا دان فيه الانقلاب لكنه في الوقت ذاته قدم فيه نقدا ذاتيا معترفا بأن ثورة يوليو لم تكن يقظة للفئات اليمينية ومؤامراتها وسعيها لضرب الوحدة، وقال ما معناه إن الوحدة لا يمكن أن تكون إجبارية. وهكذا اعترفت السلطة رسميا بأن الشيوعيين المصريين كانوا على حق حين حذروا من مخاطر إنجاز الوحدة المصرية السورية من أعلى وبشكل فوقي. وبالرغم من ذلك ظل الشيوعيون داخل المعتقلات عقابا لهم على موقف أثبت الزمن أنه موقف صحيح!

وأدت قرارات التأميم إلى اشتداد الخلافات داخل صفوف الشيوعيين بشأن الموقف من الثورة. فبينما رأى البعض خاصة "حدتو" أن تلك القوانين إشارة واضحة إلى اتجاه عبد الناصر نحو الاشتراكية، رأى آخرون أنها - وإن مست قطاعا واسعا من البنوك والشركات والمؤسسات - فإنها لا تبدل شيئا من جوهر العلاقات الرأسمالية الاستغلالية. وزادت البلبلة بسبب أحاديث السلطة عن الاشتراكية التعاونية، والديمقراطية، والوحدة العربية، وقام كمال رفعت ذات يوم بتعريف خصائص تلك الاشتراكية المقصودة بقوله في مقال له إنها

مذهب مكتمل له جذوره: «في طبيعة الشعب العربي الذي يتميز بعدة خصائص أهمها الكرم والنبل وحب الخير»!

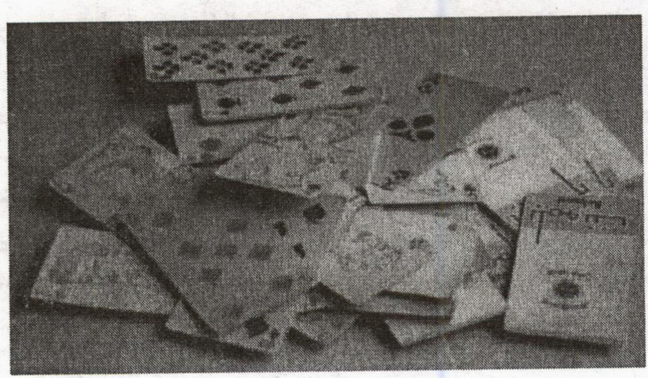
ومع اشتداد الخلافات كان المعتقلون يوزعون أنفسهم حسب التنظيمات التي ينتمون إليها، أو التي انتقلوا إليها، وشغل كل أعضاء تنظيم زنزانة مشتركة. أما غير المنظمين فكانت لهم زنزانة أخرى مستقلة. وأذكر أنني انتقلت إلى تلك الزنزانة بعد أن شاركت في إرسال برقية إلى الرئيس جمال عبد الناصر عن طريق إدارة السجن تأييدا لموقفه الذي هاجم فيه أمريكا حين منعت تحميل شحنة من القمح مرسلة إلى مصر على الباخرة «كيلوباترا» وقد خلا خطابه من التشجنج السابق ضد الشيوعيين. وقد وقع معي تلك البرقية عدد من الزملاء منهم: عبد الله الزغبي المحامي، والدكتور مختار السيد، ومحمد مستجير مصطفى.

وهنا أحب أن أسجل أنني اتهمت نتجية توقيعي هذا بالخيانة من بعض الرفاق الفلسطينين الذين كانوا معنا بالسجن، فحين خرجت أودعهم بصفتي مندوبا عن الشيوعيين رفض أحدهم وهو «معين بسيسو» أن يصافحني صارخا: "**أنت الذي أيدت عبد الناصر أمس ببرقيتكم الخائنة**" وكلنا يعرف مواقفه بعد ذلك من التأييد اللامحدود؟!

في تلك الفترة كانت مجموعة «حدتو» قد بدأت تركز في بياناتها وقراراتها على الجوانب الإيجابية في ثورة يوليو، باعتبارها سلطة العناصر الوطنية والتقدمية، وأخذت نبرة الانتقاد للسلبيات تخفت شيئا فشيئا، ثم راحت تنتشر فكرة أن تأثير الاشتراكية العالمي المتزايد يسمح بالانتقال للاشتراكية دون حاجة لحزب الطبقة العاملة، وأخذ البعض يردد أن عبد الناصر سيكرر تجربة الزعيم الكوبي كاسترو في الانتقال إلى الماركسية.

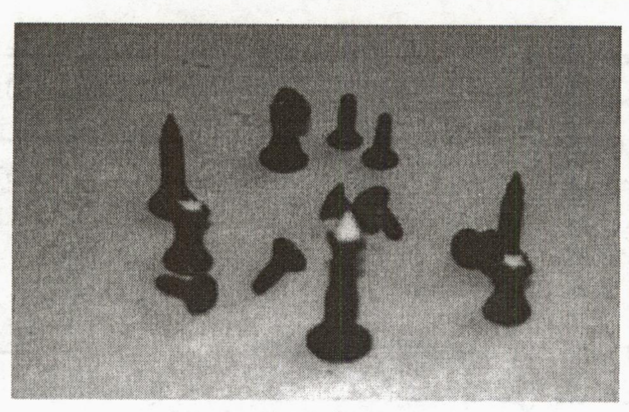
أدى اغتيال شهدي عطية والضجة التي أثارها إلى وقف التعذيب، وأعقب ذلك صدور قرارات التأميم التي ارتبطت بتعليمات بتحسين أوضاع المعتقلين، فأصبح المعتقل منذ أواخر 1961 أقرب ما يكون إلى مجرد منفى، تراخت فيه قبضة المباحث العامة، واتسع هامش الحريات النسبية داخل تلك البقعة من جهنم، وظهرت تجربة الواحات الثقافية.

وكانت تلك التجربة دليلا على أن بوسع الإنسان أن يظل رافع الرأس في أشد الظروف قسوة ووحشية، كانت ومازالت آية في دفتر الثقافة المصرية على أن شيئا مهما عظم لا يسعه تحطيم الإنسان. فلقد حولت مجموعة من العراة الحفاة الجائعين المعزولين قطعة نائية من جهنم، أطبقت عليها الجنود والقضبان والأشواك، إلى بؤرة للثقافة والتعليم والمعمار والفن والخضرة! كانت برهانا على قدرة الإنسان على التقدم ليغرس زهرة في قلب الجحيم!



كوتشينة من أغلفة علب السجائر

وقد صنعنا من أوارق علب السجائر أوارق اللعب ومن لبابة العيش بعد عجنها قطع الشطرنج وكنا نحيلها إلى اللون الأسود ببقايا أعقاب السجاير؟!.



شطرنج من لبابة الخبز

كيف بدأت عملية غرس الزهرة في جحيم الواحات؟ من أين بالضبط؟ لا أحد يذكر. ربما بدأت القصة من وكالة الأنباء التي اخترعها الزميل الراحل عبد الستار الطويلة وأطلق عليها «واس» أي وكالة أنباء ستار تشبها باسم وكالة «تاس» السوفيتية. ولم تكن تلك كما قد يخطر للبعض وكالة أنباء بالمعنى المعروف. فقد اقتصر دورها وما أكبره من دور حينذاك على تجميع الأخبار من راديو ترانزستور مهرب، ثم نقلها إلى الآخرين. ومع وقف التعذيب وتحسين المعاملة انتشر الراديو الترانزستور المهرب داخل الزنازين وأصبح من المألوف أن نرى الزملاء جلوسا يلتقطون موجات الإذاعات الأجنبية مستندين بظهورهم إلى جدران الزنازين وقد غطوا أنفسهم بالبطاطين لكي لا يتسرب صوت الراديو. فيما بعد كانت الأخبار من مختلف المحطات الإذاعية تصب عند عبد الستار طويلة، فيحذف منها ما يتكرر، وينسق تسلسلها حسب الأهمية، ثم يعلنها علينا حين نتجمع في حوش المعتقل. وكانت تلك وكالة» واس» في ظل منع الصحف والمجلات عنا حدثا ثقافيا ضخما. وأصبح من المألوف أن نسمع زميلا يمر بين الزنازين يصيح "**واس يا زملاء.. واس كمان نص ساعة**"!

داخل الواحات ظهرت أعمال فنية كبيرة كاملة، برزت فيما بعد فشغلت قلوب الناس حين نفذت أو أذيعت أو ظهرت على المسارح. ذات ليلة من ليالي شهر رمضان فوجئنا بالشاعر الكبير فؤاد حداد يخرج دفتره ويقرأ علينا:

اصحى يا نايم.. وحد الدايـــــم
مسحراتي.. منقراتي
ياسيداتي.. وسادتي،
بعد التماسى.. أنا التماسي
يدوم حماسي وعادتي،
أنا قلب أخضر.. بفروع تجرجر
من الشجرجر.. مودتي،
من غير أذيه.. صاحب مزية
وأستاذيه.. في مادتي،
وأنا في انسجامي.. ما أنساش لجامي
تحكم كلامي.. إرادتي،
وباقول يا قافيه.. المعنى أفيد
ولا حرف أزيد.. من حاجتي،
كأني من يوم.. ولادتي
المشي طاب لي
والدق على طبلي
ناس كانوا قبلي
قالوا في الأمثال:
الرجل تدب مطرح ما تحب.

كان ذلك جزءا من العمل الكبير «المسحراتي» الذي قدمه الشاعر الكبير فيما بعد للإذاعة فاحتل مكانه كأحد أنجح وأجمل البرامج المسموعة. كان معنا أيضا الشاعر محسن الخياط الذي كتب الكثير من أجمل قصائده خلف القضبان، ومنها:

مدي إيديك ليه..
في المنفى البعيد،
من بين الحديد،
واحضني بنورك جروحي،
قبل ما تميل بروحي للغروب
قبل ما تدوب الأماني بين ضلوعي
وتشوفيها لحن تايه
لحن أنغامه ف دموعي.

العجيب أن محسن الخياط بعد أن خرجنا من المعتقل ونشر ديوانه «ناى وشموع» عن دار الكاتب العربي أخفى -ربما لاعتبارات الرقابة- بعض العبارات التي تشير إلى أن القصيدة كتبت في السجن وعن السجن فأصبحت:

"مدي إيديك ليه..
ع الشط البعيد.

وفقدت هذه القصيدة الجميلة عبارتي «في المنفى البعيد. من بين الحديد» فضاعت حرارة معناها السابق المبني على شوق الإنسان في المنفى للحبيبة، وندائه لها أن تمد يديها إليه من بين القضبان لتنقذ عمره قبل أن يغرب!



مجلة حائط

في الواحات أيضا كتب الشاعر مجدي نجيب قصيدة كنا ننشدها للزملاء الذين يفرج عنهم. جاء في مطلعها:» قولوا لعين الشمس ما تحماشي» وهي نفس الأغنية التي ترنمت بها المطربة الكبيرة شادية فيما بعد. ومع ذلك لم يذكر بدقة أين ومتى شدى بها في ديوانه المطبوع؟!..

ولم يبخل علينا سمير عبد الباقي ببعض من أبياته ونحن نعمل في معجنة الطوب, لكي نبني مسرحا نعرض عليه المسرحيات العالمية والمحلية. في أحد أعداد مجلة الحائط فأتحفنا بمقطوعة عنوانها «جدعان»:

جدعان
وإيد على إيد
تبري وتفري الحديد
زي العجين
وأشكال بقى لو طين...
يادي العجب
فرسان غريبة الشان
كأنهم من الجان
لكن بشر طالعين
من دنا الملايين
دا مش عشان الرهان
دا الفن
هو اللي طالع
من المعجنة كسبان.

وفي الواحات كتب الكاتب المسرحي الكبير ألفريد فرج مسرحيته «حلاق بغداد» المستلهمة من إحدى حكايات ألف ليلة وليلة. وعرضت فيما بعد مرات كثيرة على مختلف مسارح الدولة. وبدأت تصدر بانتظام

مجلة ثقافية سياسية باسم الثقافة الجديدة كان يكتب فيها د. عبد العظيم أنيس، وفيليب جلاب رئيس تحرير الأهالي فيما بعد، وألفريد فرج، وأديب ديمتري، ود. فؤاد مرسي، وإبراهيم فتحي، وغيرهم. لكن تلك المجلة التي كانت تحتوي على مختلف المقالات والإبداع القصصي والشعري كانت تصدر في نسخة واحدة تنتقل بين أيدي الزملاء.



مجلة حائط "يوم المسرح العالمى"

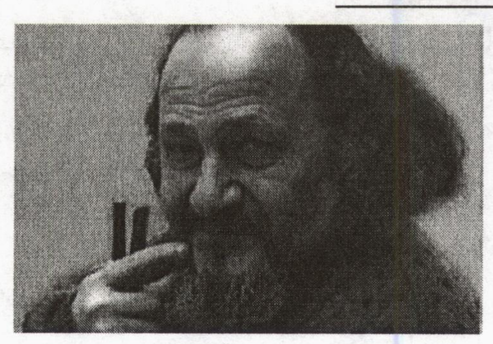
في الواحات أيضا ظهرت موهبة الروائي الكبير عبد الحكيم قاسم حين فاز بالجائزة الأولى في مسابقة القصة القصيرة وكانت الجائزة علبة سجائر كاملة! وهناك أيضا ظهرت رواية محمد خليل قاسم «الشمندورة» التي نشرت فيما بعد في روزاليوسف. ونشطت حركة ترجمة كان أبرز أشخاصها محمد مستجير، وآخرون. وفي الواحات ظهرت موهبة الممثل السينمائي علي الشريف الذي أدى دور سيدة في مسرحية «عيلة الدوغري» لنعمان عاشور فأثار إعجاب المشاهدين وضحكهم الشديد بسبب خشونة ملامحه التي لا تمت بصلة لجمال ورقة المرأة. وفي سجن الواحات أنشأنا أتيليه للفن صقلت فيه مواهب فنانين عظام أمثال حسن فؤاد وداود عزيز والمهداوي وصبحي الشاروني وعبد الوهاب الجريدلي.. وآخرين..واحتفظ ببعض أعمالهم عندي حتى اليوم وقدعرضت في بعض المعارض... وعن الأخير «الفنان عبد الوهاب الجريدلي» الذي فقدناه وهو في ريعان شبابه، في أوائل العقد الثالث

من عمره. يروقني أن أسجل الواقعة التالية التي أرى فيها «الفن للحياة»؟!..

لقد نشأت صداقتي مع الفنان جورج البهجوري منذ حوالي نصف قرن فقد تلاقينا في حديقة لندن الشهيرة هايدبارك سنة 1969 فجمعتنا الغربة واللغة مصادفة.وقد أخذت لنا صورة مشتركة في ذلك المكان ليعيد فزادت صداقتنا بعد أن أعطيته تلك الصورة عند العودة للوطن وأصبحت لا تخلو مناسباتنا السعيدة من تواجده لدرجة أن حفيدتنا الفنانية /نانسي هاني سليم قد اختارت أعماله لمشروع تخرجها في كلية الفنون الجميلة فنالت تقدير جيدا جدا. في إحدى تلك المناسبات ذكر اسم الفنان: عبد الوهاب الجريدلي فما كان من الهجوري أن سرح بقلمه فيّ اعماق التاريخ وفاجأني برسم صغير دقيق يصور الجريدلي حاملاً حمامة السلام بيديه ولما كانت اللوحة معبرة عن ملامحة فقد أثارت في الاشجان لأنها أعادت إلى مخيلتي صورة صديق فقدته منذ نحو نصف قرن وهو في ريعان الشباب.

كان الجريدلي أحد أهم فناني النحت في ذلك الأتيليه بالواحات الخارجة وقد احتفظت بثلاث قطع له أعتقد أن حمامة السلام أهمها..؟!)

بحث فى مادة تاريخ الفن
عن الفنان جورج البهجورى



رسام الكاريكاتير المصري جورج البهجوري واحد من أبرز فناني الجيل. ولد في قرية (بهجورة) التابعة لنجع حمادى بصعيد مصر عام 1932 وتخرج من كلية الفنون الجميلة بالقاهرة عام 1955 وكلية الفنون الجميلة بباريس قسم الرسم عام 1971.

عمل كرسام كاريكاتير منذ عام 1953 وحتي عام 1975 في مجلتي روز اليوسف وصباح الخير. وهو الآن يعيش متنقلاً بين باريس ومصر منذ عام 1975.

حصل على 4 جوائز عالمية في فن البورتريه في ايطاليا. المصنف رقم 1 في العالم لفن البورتريه أسبانيا 1990. الجائزة الثانية من يوغسلافيا و 3 ميداليات في جنوب فرنسا.

حصل على الجائزة العالمية الأولى في الكاريكاتير عام 1985 وعام 1987 في روما. وقد ظهر البهجورى كرسام كاريكاتير متميز في مناخ كان عامراً بإنجازات إبداعية هائله.

وأهم مايميز هذا الفنان أنه لايتوقف عن الرسم. فهو يحمل أوراقه حيثما ذهب ليرسم. وعندما تلتصق ريشته بالورق فهي لاتغادرها ولا ترتفع عنها قبل انتهاء الخطوط بشكل. وهي علامة مميزة لفن جورج البهجورى ..

وتنتشر أعماله في كل مكان. فقد أقام أكثر من 100 معرض فى أغلب العواصم العالمية. وله 15 لوحة في متحف الفن الحديث. ولوحتين في متحف لومان بفرنسا. و 5 لوحات في المتحف القومى بعمان و 3 لوحات في متحف أسيلا بالمغرب.



لوحة زيتية على ورق مقاس 70سم × 70سم

اللـوحه التي يتنـاولـها هذا البحـث هي لـوحة زيتيـة على ورق مقـــاس 70سم × 70سم . وقد أهدى البهجورى هذه اللوحه لصديق له في مناسبة عيد زواجه الخمسين وهي مأخوذة عن صورة زفاف هذا الصديق.

تنتمى هذه اللوحة للمدرسة التعبيرية. فهنا يرمز الفنان لقدسية الزواج ويوضح ذلك من خلال الهالات المرسومة على رؤوس العروسين. وقد يكون السبب في رسمه لهذه الهالات أنه ينتمى إلى أسرة قبطية متمسكة بالكنيسة وتأثر كثيراً في صغره بأيقونة العذراء والطفل.

النقطة:

تعتمد فلسفة البهجورى على أسلوب الرسم من نقطة معينة. فهو يبدأ من هذه النقطة ويرسم بقية تفاصيل اللوحة بحيث تتصل الخطوط فى النهاية بالنقطة التي بدأ منها. فنجد في هذه اللوحه كل الخطوط الرأسية والأفقية والمائلة متصلة بنقطة واحده عند قلبها وهذا يرمز إلى الحب والفرح في قلبها. وخط الأكس (المحور) للأشخاص أفقى وليس مائل. كما اهتم بالتفاصيل ولم يعتمد على

التلخيص، فنجد التفاصيل فى ملابس العروسين والإكسسوارات مثل قرط العروسه. تنتمي هذه اللوحة أيضاً إلى المدرسة التكعيبة وذلك يظهر في طيات الملابس اليابسة وفي الورد.



النقطة والخط



الاسلوب التكعيبي الموجود في اللوحة

يعتمد البهجوري على خط واحد يربط به شخص الموضوع بالخلفيه. فالخط عنده هو بناء اللوحة على عكس فنانين كثيرين نجد أن النور والظل هما اللذان يظهران الشكل ولا نجد خطاً واضحا يفصل الحدث عن الخلفية. وهذا الأسلوب يذكرنا ببيكاسو الذى غير كثيراً من مفاهيم الفن واعتبر الخط كل شيء. كما كان بيكاسو متأثراً بالفن

المصري القديم، فالعين عنده مثل السمكة والوجه بروفيل وأصابع اليد ضخمة مثلما رسم ونحت القدماء المصريون.



صوره سيدة فى المرآه لبيكاسو

أيضاً فالبهجوري ينتمي فنيا للثقافة الفرعونية التي بلغت ذروتها في فنون الرسم والنحت. وتأثره بهذه الثقافه يظهر مثلاً في رسمه لعيون الأشخاص مثل عين السمكة التي تمثل نافذة الروح. فهو يورد في كل أعماله عيناً شاخصة تسأل وتشغل البال ولكنها تكشف أيضاً عن حزن شديد. ويقول بعض النقاد أن العين فيتوقيع بهجوري ترمز إلى حورس إله الشمس في الفن المصري. أيضاً رسم البروفيل والخط الواحد الجانبى والتبسيط والتلقائية الموجوده في فن المصرى القديم موجودة إلى الآن في أعماله.

والبهجوري لا يبحث عن التعقيد الموجود فى فن النهضة وإنما هو ينتمي إلى الفن البدائي الفطري حتى أن الفن الأفريقي ينعكس في بعض لوحاته.



صورة تفصيليه للوجوه في لوحة الزفاف

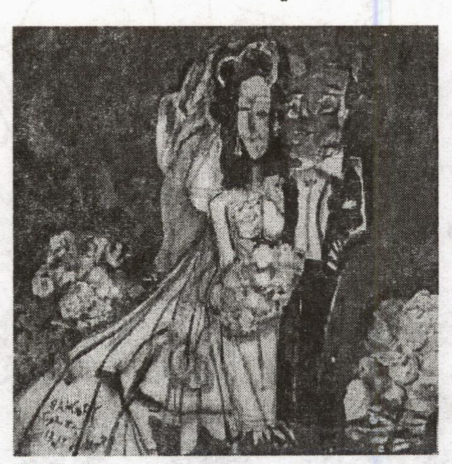
والبورتريه عند البهجوري هو رؤيته الخاصة للشخص من الداخل، فهو يقرأ ما بداخل الإنسان أولاً ثم يرسم إحساسه الخاص بهذا الشخص حتى وإن كان به مبالغه. فمبالغات البهجورى وسخريته كانت وراء منعه من دخول مصر فترة من الزمن لرسمه الرئيس أنورالسادات بأسلوب تهكمي.

ونعود للوحتنا فنجد أن ملامح الوجه غير واضحة لكنها معبرة. فهو يرسم بعض ملامح الوجه التي تلفت نظره وليس الوجه كله فتصبح هذه الملامح عنواناً للوجدان الداخلي للشخصية. فوجه العروس الباسم يعبر عن الفرحة التي تشعر بها. أما تعبير وجه العريس فهو جاد وصارم. وبالنسبة للملمس الخارجي للوجه فهو خشن متمزق وسميك ومشقق، إلا أن هذه التشققات بيضاء وخالية من خشونة مظهر المادة فهي توحي بالصفاء.

اللون:

أما الألوان ففيها تضاد واضح ما بين الخلفية والأشخاص لإظهار الحدث وتأكيده.

فاستخدام الابيض فى فستانها مع اللون الغامق فى الخلفية هو الذى أحدث هذا التضاد الشديد.



التضاد فى الألوان

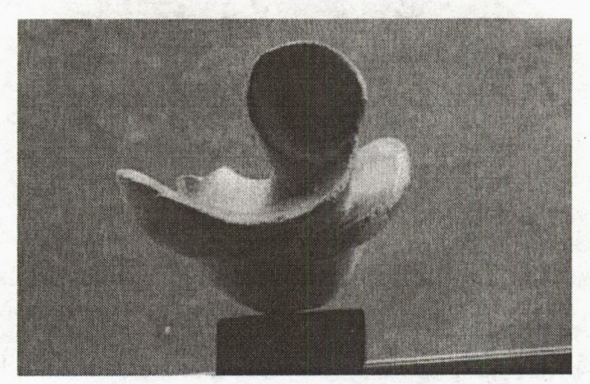
لا يوجد في هذة اللوحة ظل ونور ولا هاف تون. فالمساحات اللونية كبيرة والالوان صريحة؛ فنجد هنا أن ألوان الملابس صريحه مثل الأبيض والأسود. أما الخلفية فلا يوجد بها تفاصيل لعدم أهميتها في الحدث فهى مكونة من لون واحد.

ويلاحظ أن أركان التصميم مترابطة ومتحدة فالرابط بين الخلفية والحدث هي الورود الموجودة فى الجانبين. وهذا الترابط يعطي إتزان للوحة ويريح العين.

وظهرت أيضا موهبة الأستاذ نبيل الهلالي المحامي الذي قام ذات مرة بتمثيل دور الوزير نيكراسوف في مسرحية تأليف جان بول سارتر! وبينما احترف علي الشريف التمثيل فيما بعد فأثرى السينما المصرية بالعديد من الأدوار، فإن الأستاذ الهلالي لم يكرر التجربة.



الجريدلي مع حمامة السلام



تمثال حمامة السلام للفنان الجريدلي

في الواحات قرر الزملاء عام 1962 إقامة جامعة باسم الشهيد شعبان حافظ العامل الذي كان أحد قادة حزب1923، ولم يتخل عن الكفاح حتى توفي داخل المعتقل، فأقيمت له جنازة بين الأسوار أحاط فيها الزملاء نعشه ببطانية حمراء وطافوا به داخل السجن ودموعهم تسبقهم، وحين نقل جثمانه إلى الخارج أصدر مأمور السجن أوامره لستة من الجنود بإطلاق ثلاث رصاصات في الهواء تحية للفقيد، واصطف الضباط والجنود يقدمون لجثمانه التحية العسكرية!. في تلك الجامعة بدأت الدراسة على كافة المستويات، من محو الأمية، إلى محاضرات

الدكتور عبد العظيم أنيس في طرائف علم الإحصاء، والرياضيات، ومحاضرات الدكتور فائق فريد في علم كنا نسمع عنه لأول مرة هو علم «السيبرناتيقا» أي علم «الأتمتة»، واستفدنا جميعا من خبرات وثقافة أساتذة كثيرين منهم د. فخري لبيب، ومحمود أمين العالم، ود. فؤاد مرسي، ود. إسماعيل صبري عبد الله، وغيرهم ممن قد لا تحضرني هنا أسماؤهم. ولن أطيل على القارئ لكني أود التوقف قليلا عند تجربة المسرح في الواحات، لأنني ساهمت فيها بقسط، ولأنها تحتل مكانة خاصة عندي.

في مقدمة كتابه الجميل «مدرسة الثوار - الحياة الثقافية في الواحات» توجه العزيز الراحل على الشوباشي بكلمة شكر إلى شخصي جاء فيها: **في ختام هذه المقدمة أريد أن أوجه شكري العميق للصديق العزيز المهندس فوزي حبشي على ملحوظاته القيمة على مخطوط الكتاب والتي أخذت بها جميعا، وعلى تصويبه لبعض ما كان قد جاء به من هنات وأخطاء، كما أشكره أيضا على الصور التي أمدني بها لكي يرى القارئ بنفسه الأشياء التي تحدثت عنها في الكتاب**".

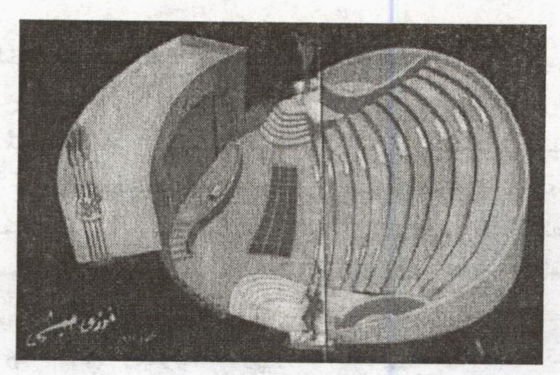
وحين أتعرض الآن لهذه التجربة فإنني أسجل جزءا هاما من حياتي، ومن شعوري بما كان، من زاوية أخرى.

يقول الكاتب المسرحي الكبير آرثر ميللر: "**المسرح لقاء الإنسان بالإنسان**".

وقد انطبق هذا القول بمعناه المباشر على تجربتنا في الواحات بعد أن بدأ تخفيف القيود علينا، فقد التقى الجميع بفضل المسرح، أو حول تجربة بنائه وعروضه: الشيوعيون المسجونون الذين صدرت أحكام بحقهم، والشيوعيون المعتقلون بلا أحكام، بل وحتى الحراس. ولاحت الفكرة كالحلم حين شرع المهتمون منا بالفن المسرحي أواخر عام

1962 في عرض بعض الأعمال المسرحية العظيمة العالمية أو العربية أو تلك التي كتبها المبدعون المعتقلون مثل ألفريد فرج، وصلاح حافظ، وغيرهما. لكن تلك العروض كانت تقدم في ممر ضيق ممتد بين الزنازين بطول العنبر لا يزيد عرضه على ثلاثة أو أربعة أمتار. وكانت ليلة العرض ليلة مبهجة لا تنسى، رغم أننا كنا نتكدس ونحشر حشرا في الممر. إلا أن استمرار العروض مع تكدس المشاهدين من المعتقلين والمسجونين دفعني للتفكير في بناء مسرح، خارج الزنازين، في الفناء الفسيح الذي يتسع للمئات بكل راحة. لم أحدث أحدا عن هذا الخاطر إلا بعد أن أمعنت النظر فيه. إنها تجربة غير مسبوقة، فهل تسمح لنا الإدارة ببناء مسرح داخل السجن؟ ثم هل نستطيع بالفعل أن نبني مسرحا؟ ولماذا؟ هل لأننا نرتب حياتنا على أننا سنعيش هنا طيلة العمر؟. دارت هذه الأسئلة وغيرها برأسي، إلى أن قررت أنه لابد من ذلك، لأن بناء مسرح كهذا سيكون كفاحا معنويا ضد الصحراء، والرمال، والمنفى، حتى لو قام بناؤه لساعة واحدة، وعرضت مسرحية واحدة فقط، فإننا سنظل نعتز دائما بأننا استطعنا أن ننتصر بالثقافة والفن على الاستبداد ولو للحظة عابرة.

جال بخاطري أن بناء المسرح لابد أن يتم بالشكل الروماني الذي يتكون من مصاطب مستديرة متدرجة الارتفاع على شكل نصف دائري، تحيط ببقعة للعرض على طرفيها حجرات للممثلين. ذلك أن تلك المصاطب وحدها تسمح للجميع بالمشاهدة، كما أن بقعة العرض لا تستلزم إقامة منصة بكل توابعها. عرضت الفكرة على المعتقلين فوجدت منهم حماسا غريبا، كأن الجميع متلهفون للمشاركة في عملية بناء تعيد إليهم شعورهم بأن لوجودهم معنى، وأن أيامهم لا تتدفق فوق الرمال بلا جدوى أو نفع. وعرضنا الفكرة ورسوم التخطيط الأولي على إدارة السجن، فوافقت، إذ كانت الواحات قد أمست منفى مفتوحا لا أكثر.



تصميم المسرح

كانت الموافقة بحد ذاتها إشارة إلى إمكانية الانطلاق. لكن المسرح يحتاج إلى بناء حيطان ساندة بين كل مصطبة وأخرى. وبحسبة أولية وجدت أننا نحتاج إلى مئات الآلاف من الطوب. من أين لنا بهذه الكمية من الطوب؟. وعدت لدراسة الموضوع بمزيد من الدقة فاكتشفت أن الحل الوحيد هو تصنيع الطوب,أي ضربه من المواد الطفلية المتوفرة في الأرض تحت طبقة الرمال الصفراء. لكن صناعة الطوب عملية مركبة من عدة مراحل: عجن الطفل بعد إضافة قليل من التبن والرمل، ثم تشكيله، وتجفيفه على مسطح تحت حرارة الشمس يسمى «مفرش» وأخيرا رصه بطريقة تحفظ شكله لحين استخدامه.

تفجر فكرة البناء، وتفجر الحماس للعمل. فأقمنا حفرة بعمق متر، ومساحة حوالي عشرة أمتار لننقل إليها الطفل المأخوذ من تحت الرمال، ونسبة معينة من الرمل. هكذا أقمنا «معجنة»، واندفع الجميع للمساهمة في عجن الخامة بأقدامهم أخص بالذكر منهم الزميل أحمد فؤاد بلبع الذي وعدته حينذاك بدجاجة كاملة محمرة له وحده نظير ما بذله من جهد! وإذا كنت لم أف بوعدي لبلبع حتى الآن، فلا أقل من الاعتراف بأن له في ذمتي دجاجة مضى على وقتها أكثر من نصف قرن زالت فيه دول ونشأت دول أخرى!

أما زميلنا النجار -غير المحترف- محمد حسن جاد الشهير ببرق،

فقد صنع لنا القوالب الخشبية التي نحتاج إليها لنصب فيها عجينة الطوب على مساحة متسعة من أرض الحوش هي «المفرش». ورغم اختلاف الخطوط السياسية، والاشتباكات النظرية بشأن طبيعة الثورة، والموقف من قرارات التأميم، وخروج سوريا من الوحدة، إلا أن عملية البناء وحدت الجميع من كل التنظيمات، وكان الجميع من مختلف الزنازين والخطوط السياسية يتنافس على ضرب الطوب، وأجج التنافس مجلة الحائط التي بادر إليها الفنان حسن فؤاد وأسماها«مجلة المسرح» وساعده فيها عدلي برسوم وفكري رفاعي، حين صارت المجلة تعلق يوميا لتغطي أنباء إعداد الطوب، والكميات التي ضربت، والكميات المتبقية، والاستعداد لبناء المسرح، فتستثير حماسة الكل وتسخر من الكسالى بالزجل والكاريكاتير والنكتة، وتثني على جهود الآخرين المضنية، وترسل تحياتها لهذه الزنزانة النشطة أو توجه سهام نقدها لزنزانة أخرى. هذه المجلة البسيطة الجميلة هي التي أطلقت شعارا جميلا: "**فلننتهي من بناء المسرح قبل 27 مارس -1963 يوم المسرح العالمي**". اندفعنا إلى العمل. كنا نبني المسرح ونقيمه، وكان البناء يقيمنا ويشد أزرنا فقد وجدنا فيه وسيلة لتأكيد قدرتنا على هزيمة الصحراء والمنفى.

كنا نضرب آلاف قطع الطوب يوميا دون توقف. وكما هي الحال في كل الأعمال الكبيرة فإن الأمور لا تخلو من دناءة صغيرة. هكذا استيقظنا ذات صباح، لنجد أن مفرش الطوب الذي قمنا برص عشرات الآلاف من الطوب عليه خال من أية طوبة! ماذا حدث؟ أين اختفى الطوب؟. واتضح أن نجاحنا أغرى مأمور السجن بالسرقة والسطو! فأمر بعضا من العساكر في الليل بنقل (أي سرقة) عشرات الآلاف من الطوب المرصوص على المفرش ليستكمل بها بناء سور فيلته الخاصة! استشاط المعتقلون غضبا بعد أن شاهدوا أن عملهم طيلة اليوم السابق قد ضاع هدرا، وتعالت صيحات بعضهم بوقف العمل في بناء سور المسرح نهائيا. أحسست باليأس وأنا أنظر إلى ثمرة جهدنا وقد سطا عليها المأمور. وعدت بعد تفكير فاتجهت إلى مكتب المأمور حانقا،

ووقفت أمامه أعنفه بشدة، وشبهت له عمله بعمل طفل ألقى بحفنة تراب على مكنة منتجة تعمل بسرعة فعطلها وأوقف عملها. وتضاءل الرجل أمامي خجلا، وأخذ يعتذر وقد أحس بدناءة سلوكه، وبلغ به الخجل درجة أنه عرض على أن يساعدنا بالسماح لنا باستخدام عربة السجن الحكومية لنقل الطوب من المفرش إلى موقع البناء بدلا من نقله حملا على الأكتاف كما كنا نفعل!

وفي الأول من يناير عام 1963 تصدر مجلة الحائط ملاحظة بمانشيت كبير بعنوان «تقرير المهندس» جاء فيها:

1- انتهت الأزمة الطارئة تقريبا (أي أزمة سرقة الطوب)

2- العمل في البناء يسير ببطء نسبيا

3- سنوالي ضرب ونقل الطوب إلى موقع البناء بعربة السجن ثلاث مرات في الأسبوع.

واستغرق العمل نحو أربعة شهور انتهينا خلالها من بناء المسرح في الجانب الشمالي الشرقي من حوش السجن، ثم تم طلاؤه بالجير، وأصبح مبنى المسرح فجأة شامخا أمامنا حقيقة لا حلما. وبدأت العروض التي كانت بهجة للمعتقلين، والضباط وأسرهم، والجنود، ولم يكن يعتذر عن الحضور سوى الإخوان المسلمين. وقدمنا مسرحيات لشكسبير منها مسرحية «ماكبث»، وأخرى لجان بول سارتر، و«حلاق بغداد» لألفريد فرج، و«عيلة الدوغري» لنعمان عاشور وغيرها. وقرر مأمور السجن ذات يوم من فرط إعجابه بالعروض المسرحية التي رآها أن يدعو محافظ الواحات الخارجة لحضور«عيلة الدوغري»، وكان مخرجها هو الفنان حسن فؤاد. وعقب المحافظ على العرض بعد انتهائه بقوله:» لقد أمتعني هذا العرض أكثر بكثير من عرض نفس المسرحية الذي شاهدته على مسرح الجمهورية في القاهرة»!

كان اسم تلك الزهرة التي غرسناها في الجحيم «مسرح الغد».

وقد زار المنطقة الصحفي: جمال محمد غيطاس مندوبا عن مجلة

«نصف الدنيا» وقام بكتابة ريبورتاج عن «باستيل مصري اسمه سجن المحاريق» مسجل فيه روائع الفن المشيد هناك بواسطة نزلاء ذلك المنفي من الشيوعيين. نشر بالمجلة العدد 96 في 15/12/1991 والغريب أن الصديق الأستاذ: نبيل زكي قد قام بزيارة المكان نفسه فيمابعد فوجد أن السلطات قد نسفت المبنى عن آخره وسوته بالأرض؟! ياللعجب؟!..



باستيل مصري
اسمه سجن المحاريق !!

ريبورتاج جمال محمد غيطاس بمجلة "نصف الدنيا"

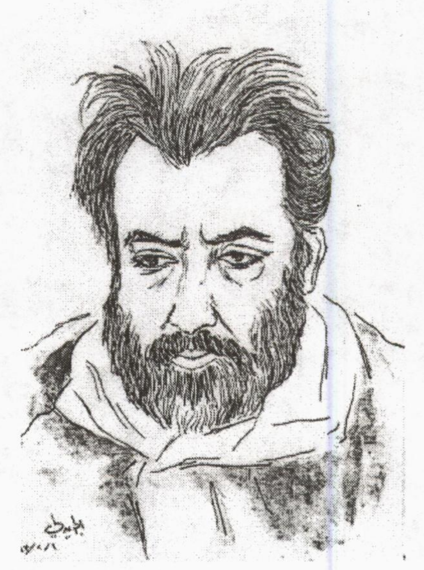


لوحة لمحمد عباس سيد أحمد



مجلة المسرح

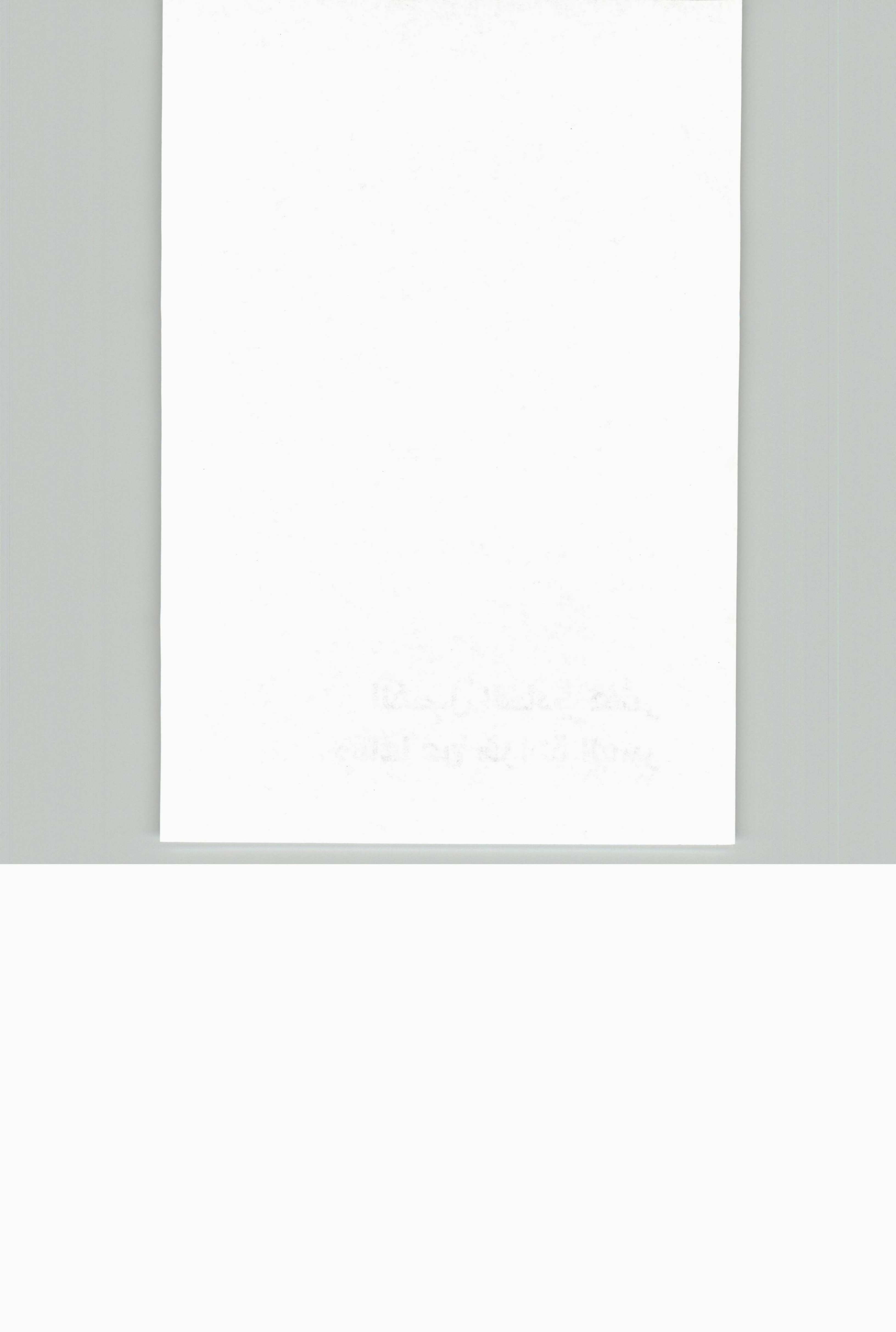




لوحتين بريشة الجريدلي



الفصل الحادي عشر
دفاعا عن كرامة البشر



خلال وجودي في الواحات كنت أهبط إلى سجن القناطر في القاهرة للتحقيق معي من وقت لآخر، وفي نوفمبر 1961 تم تقديمي إلى المحاكمة العسكرية. وكانت جريمة قتل الشهيد الطبيب فريد حداد قد وقعت داخل السجن في 28 نوفمبر 1959، وأعقبتها جريمة قتل شهدي عطية الشافعي في يونيو 1960وقد أشرت إلى ظروفها. أما عن فريد حداد فكان شخصا وطبيبا نادر المثال، له عيادة في مصر الجديدة، وأخرى للفقراء في شبرا يكشف عليهم مجانا. متزوجا وله ثلاثة أولاد صغار: وديع، وسامي، وزهرته الصغيرة منى التي لم تتجاوز الخامسة من عمرها حين قتل والدها. اعتقلوه ونقلوه إلى ليمان أبي زعبل. وهناك كان في انتظاره المجرمون: حسن منير، ويونس مرعي، ومرجان اسحق، والصول أحمد مطاوع. وصاح به اليوزباشي يونس مرعي وفي يده المرفوعة عصا غليظة:

- اسمك إيه يا ولد؟
- اسمي الدكتور فريد حداد.
- دكتور إيه يا ابن القحبة؟ أنت شيوعي يا ولد؟
- أنا مصري مؤمن بالاشتراكية
- بترد علي يا ابن الوسخة!

وانهال العسكر بالضرب بلا رحمة وبلا توقف بالعصي وكعوب البنادق. وسحبته العساكر إلى الزنزانة فلفظ أنفاسه بعد ساعة كاملة. وسلمت جثته إلى زوجته تحت حراسة بحيث لا يفتح أحد التابوت، ومع الجثة تقرير أعده أحمد كمال طبيب مصلحة السجون

قال فيه إنه توفي بسكتة قلبية. وحين طلبت زوجته توقيع الكشف الطبي على الجثة رفضوا طلبها.

وفي صباح 30 نوفمبر 1959 خرجت جريدة الأهرام بالنعي التالي:
"إيدا وأولادها وعائلات حداد وكاري وحنا بمصر والأردن ولبنان ينعون بمزيد من الأسف والأسى المأسوف على شبابه الدكتور فريد حداد زوجها ووالدهم وشقيقهم المنتقل إلى الأمجاد السماوية صباح الأحد 29 نوفمبر 1959".

وفيما بعد بعث رئيس الجمهورية بمندوب عنه لتقديم العزاء إلى زوجته «إيدا» فرفضت قبول العزاء وطلبت منه أن يغادر المكان.

كانت جرائم اغتيال الشيوعيين وتعذيبهم ماثلة في ذهني وأنا أستعد ليوم محاكمتي، وكان لابد لمذكرة الدفاع التي تقدمت بها أن تتضمن احتجاجي على كل ذلك، وأن تتضمن أيضا كل ما أتخيله لنفسي، ولأولادي، ولمستقبل بلادي، وكان دفاعي المسجل في أوراق القضية على النحو التالي:

الدفاع في المحاكمة:

"الجناية رقم 635 لسنة 1961
كلي شمال القاهرة
أمن دولة عليا رقم 418 سنة1960"

«إن الاستعمار رغم أنه يتلقى اليوم الضربات العنيفة من حكومتنا ومن كافة الدول المحبة للسلام إلا أنه وهو يترنح أشد ضراوة ومازال يجد من العناصر الرجعية في كل البلاد من يلعب لعبته..

إنني أعلنها عالية أن في مصر مازالت ترتع الكثير من العناصر

الرجعية في بعض أجهزة الحكومة إن لم تكن عميلة للاستعمار بالمال فهي عميلته في الأسلوب. ولن يستقيم الطريق أمام هذا البلد الأمين إلا إذا امتدت يد العدالة فقبضت على تلك العناصر لتسألها الحساب.

وأنا وإن كنت قد نجوت من الموت بأعجوبة، فقد ذهب غيري إلى الأبد تحت عصي وكرابيج تلك العناصر. وعلى سبيل المثال لا الحصر: لقد قتل الدكتور فريد حداد وهو مساق إلى معتقل أبي زعبل يوم 28 نوفمبر 1959، وقتل بنفس الخسة الأستاذ شهدي عطية الشافعي وقبل أن يصدر عليه أي حكم في 15 يونية 1960 وهم وإن كانوا قد سلموا جثتيهما لأهاليهما فقد أخفوا جثة محمد عثمان منذ أبريل 1959.. ولكن ماذا عساهم يصنعون بجسم آخر مازال ينبض ويتحرك وعليه بصمات الكرابيج؟.. هاكم شاهدوا تلك الأخاديد التي صنعتها على جسدي عصيهم وظلت ظاهرة رغم مرور الزمن.

لحساب من يا حضرات المستشارين أسلم بلاغا للسيد وكيل النائب العام أحمد على موسى باليد في 25 مايو 1959 مسجلا فيه تلك الوقائع فيمزق البلاغ ويلقيه في وجهي على مرأى ومسمع من العشرات؟ ولحساب من أسلم بلاغا مكتوبا للسيد الملازم عبد العال سلومة البري في أكتوبر 1959 قائد عنبر سجن الواحات الخارجة الذي كنت فيه حينذاك راجيا التحقيق معي وإحالتي إلى الطبيب الشرعي فلا تحرك النيابة ساكنا؟

ولحساب من يقوم السيد المحامي بإبلاغ النائب العام في أكتوبر الماضي للتحقيق في وقائع تعذيبي المحددة، فلا تفيق النيابة من سباتها العميق حتى هذه اللحظة؟

إنني أستنجد بكم إن كانت النيابة لم تقو على التحقيق في هذا

الشأن أن تبدءوه فورا.. إنني أناشد ضمائركم أن تحيلوا شخصي ولا تكتفوا بإحالة خطي إلى الطبيب الشرعي، ليتضح لكم كيف اقتربت من الموت على أيدي تلك العناصر الرجعية المخربة إبان تلك الفترة التي قال عنها الرئيس عبد الناصر إنه أخطأ وهادن فيها الرجعية..

ها أنا ذا أضع أيديكم على بعض من تلك العناصر فحققوا معي لتنال القصاص.

وقد تساءل الرئيس عبد الناصر في أحد بياناته الهامة عقب انفصال سوريا عن مصر، لماذا هناك من اكتفوا بالسلبية ولم يأخذوا مواقعهم في الصف الوطني؟.. حقا إن أخطر شيء على تاريخ البلاد أن يغلب عليه طابع السلبية وأنا هنا أحدد أن سياسة العصي والكرباج هي التي تدفع إلى المواقف السلبية.

وإذ أنادي الملايين أن تخرج عن سلبيتها وتلتف في جبهة وطنية تحمي الثورة ومكاسبها وتسير بها للأمام، ألمح في نفس الوقت الى ذلك الصراع الرهيب داخل جهاز الحكم بين العناصر الساعية للتقدم والأخرى الرجعية التي لن ينتج عن أعمالها سوى الانتكاس.

واليوم أضع بين أيديكم قضية التعذيب المنصرمة. فبخلاف الضرب المبرح الذي كسرت على أثره ساقي في إحدى المرات، وبخلاف حادثة الضابط عبد العزيز شاكر مفتش مباحث الفيوم وآخرين، وأضع أمامكم قائمة بأسماء شهودها، والتي أوصلتني إلى حافة القبر، أقول بجانب هذا كله كنت أساق مسخرا الشهور الطوال مع مئات المعتقلين في أسمال بالية حافي القدمين في قيظ صحراء الواحات الخارجة لأعبئ الرمال في مقاطف وأنقلها من مكان إلى آخر بشكل مضحك مبك.

وأين لوائح مصلحة السجون؟ ولماذا لم تطبق على طوال الشهور الماضية التي أنا فيها محبوس احتياطيا تحت التحقيق وعلى ذمة

النيابة؟ لقد مر على في السجن في يوم من أيام الشهر الماضي أحد حضرات وكلاء النائب العام، ولما طالبته أن يصدر أوامره بالتصريح لي بالصحف والاستفادة من مكتبة السجن والسماح بارتداء ملابسي الداخلية الخاصة هز كتفيه وضحك قائلا: أنتوا مش تبعي. يالها من سخرية!

أهناك استقلال للقضاء ونحن على هذه الصورة؟ ورغم أننا على ذمة النيابة تتحكم فينا المباحث العامة بهذا الشكل؟

وهاكم واقعة أخرى تحققوا من صدقها إن أردتم. لقد أنزل السجين الشيوعي تحت التحقيق كمال صديق إلى تأديب سجن القناطر يوما لمدة أسبوع. ولم يتورع السيد مدير السجن أن يسجل في دفاتره عبارة» لضبطه ومعه جريدة» علما بأنه في نفس السجن يعطي القتلة وتجار المخدرات ومحترفي الدعارة حق الإطلاع على الصحف والاستعارة من المكتبة.

وأنا أتساءل هل يعامل معتقلو الجزائر الأبطال مثل هذه المعاملة في سجون فرنسا؟ وأخيرا اسمحوا لي بالحديث عن شخصي، وما أبغض هذا الحديث إلى النفس: لقد كنت أعادي الاستعمار وأنا طالب بالجامعة سنة 1946، وبسبب ذلك اعتقلت وبقيت في معتقل الطور عامين، وفصلت من عملي بهندسة السكك الحديدية، ولم أعد إليه إلا بعد أن ألغيت المعتقلات سنة 1950، وحاولت المباحث العامة التنكيل بي سنة 1954 عقب توقيع معاهدة «جمال - هيد».. ظللت بسببها في السجن حتى آخر عام 1955، ثم عدت ثانية إلى هندسة السكك الحديدية مرفوع الرأس وقد برأتني ساحة المحكمة العسكرية العليا.. ولن أذكر دوري ودور السيدة ثريا شاكر موسى زوجتي، والمعتقلة منذ حوالي ثلاث سنوات تاركة وراءها أطفالنا الثلاثة وأكبرهم في العاشرة.. ولكني أشير إلى دورنا في المقاومة الشعبية أثناء العدوان

الثلاثي الغاشم بحي القبة وكيف كنا نشحذ الهمم بين أهالي الحي وندعوهم للتدريب على السلاح حتى أني فتحت منزلي حينذاك كمركز للتجمع وبث الحمية في النفوس.

إنني لا أدعوكم لتبرئتي فحسب، بل أدعو للإفراج عني وعن كل المعتقلين الوطنيين الشرفاء، حتى نأخذ مكاننا في الصف الوطني ونبني جبهة وطنية صلبة تعرف كيف تحمي مكاسب الثورة وكيف تجتث الاستعمار والعناصر الرجعية من جذورها».

نوفمبر 1961
فوزي حبشي

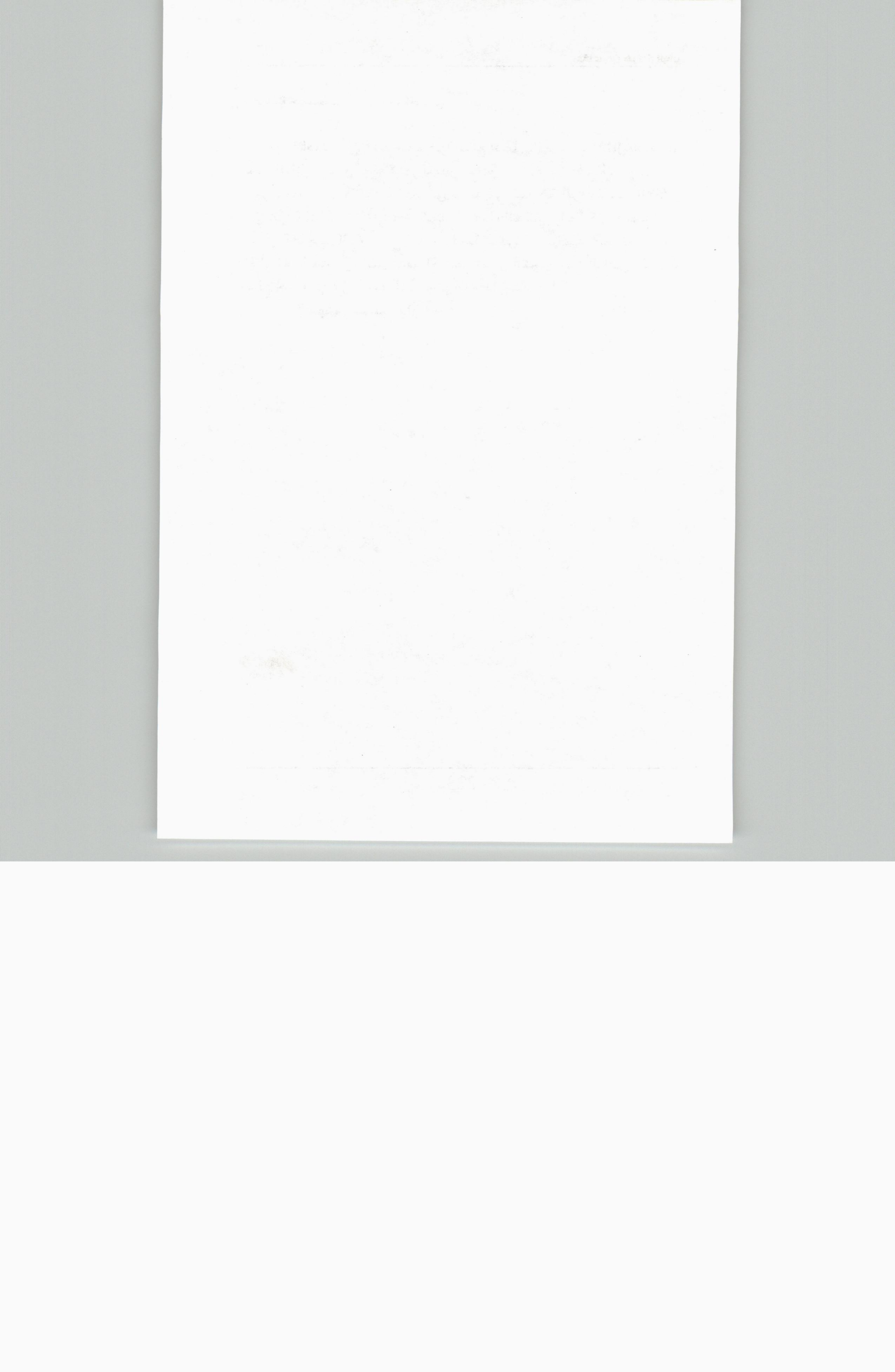
صدر حكم المحكمة بسجني ثلاث سنوات، وكنت فعليا قد قضيت هذه المدة من مايو 1959 إلى مايو 1962، ولهذا تم ترحيلي مرة أخرى بعد صدور الحكم إلى الواحات الخارجة بصفتي معتقلا هذه المرة لأمكث هناك نحو عامين آخرين.

وكانت هناك ذيول أخرى لموضوع آخر صغير. ففي أثناء جلسة المحكمة هممت بإظهار آثار التعذيب الذي تعرضت له بأن رفعت جزءا من قميصي، وبانت علامات التعذيب وندوبه واضحة غائرة في بدني، فصرخ القاضي، ودق بمطرقته بقوة معلنا سرية الجلسة التي كانت علنية. أراد القاضي بذلك أن يخفي همجية ووحشية السلطة عن أعين الجمهور، وكنت قد طالبت بتخصيم النائب العام، وهو إجراء قلما يحدث في القضاء المصري.
وكان ذلك الطلب في اعتقادي سببا من الأسباب التي دعت أجهزة الأمن لمحاولة التخلص مني نهائيا، وتصفيتي بدنيا بالتعذيب. إلا أنني تمسكت بذلك الإجراء، رغم علمي بنفقاته ورسومه الباهظة التي

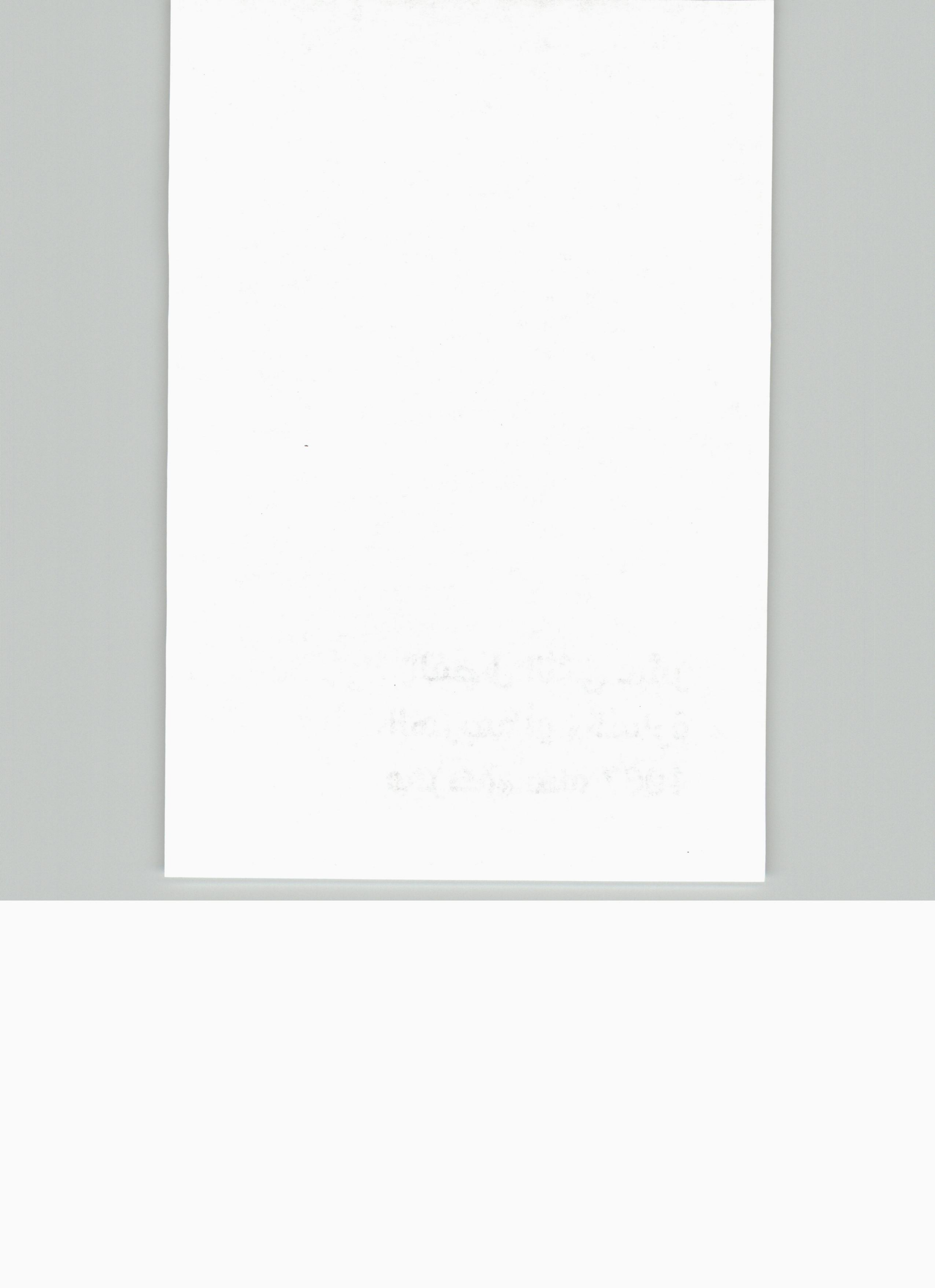
وصلت حينذاك إلى مئات الجنيهات.

وإحقاقا للحق، فقد جمع هذا المبلغ الأهل والأصدقاء أمثال الدكتور عبد الرازق حسن، والدكتور لويس عوض، وغيرهما. وفي اليوم التالي على محاكمتي وتقديمي لدفاعي، كنت في الساعة الرابعة بعد الظهر في غرفة المكتبة التابعة لمحكمة القضاء العالي، ولم يكن هناك أحد سوى الحاجب الذي فتح باب الغرفة على مصراعيه معلنا علنية الجلسة والقاضي الذي أعلن الحكم برفض التخصيم وإلزامي بغرامة مائة جنيه لإقلاق السلطات! وهو ما يطلق عليه الناس:

"موت وخراب ديار"!



الفصل الثاني عشر
الهزيمة أو «خسارة معركة» سنة 1967



كانت نذر العدوان الأمريكي الإسرائيلي الجديد تتجمع في سماء مصر. فقد أغارت إسرائيل عام 1966على قرية السموع في الأردن، ثم على سوريا في أبريل 1967، ونشبت معركة جوية بين الطيران السوري والإسرائيلي. وقبل حرب 67 بعدة أسابيع اتجه أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل إلى واشنطن حيث التقى بالرئيس الأمريكي جونسون وقبل أربعة أيام فقط من العدوان كان مائير آميت رئيس المخابرات الإسرائيلية (الموساد) في واشنطن لوضع اللمسات الأخيرة. وبالرغم من تلك المقدمات لم يكن بوسع أحد أن يقطع بشيء إلى أن فوجئنا في 5 يونيو 1967 بالحرب.

ورحنا نتابع في البيوت لحظة بلحظة أنباء جبهات القتال، ونسمع المذيع أحمد سعيد من صوت العرب وهو يعلن الانتصارات تلو الانتصارات، وسقوط الطائرات الإسرائيلية المغيرة فنثب من أماكننا، ونعانق بعضنا البعض وكأننا كسبنا الحرب أو على الأقل في طريقنا إلى ذلك. وسرعان ما داهمتنا الحقيقة، وشاهدنا جنودنا ينسحبون من شرق قناة السويس بشكل مؤلم، والإشاعات تروج كالنار في الهشيم عن الجنود الذين عادوا حفاة، والجنود الذين حصد تهم طائرات إسرائيل في سيناء، والطائرات التي ضربت في مواقعها دون أن تحلق. وجاء خطاب التنحي الذي أذاعه عبد الناصر عبر شاشة التليفزيون، وكل ذلك الحزن المكثف في عينيه، وقوله إنه وحده المسئول عن النكسة.

وقع الخبر علينا وقوع الصاعقة. لم أشعر بنفسي ولم تشعر ثريا بنفسها ونحن نعدو من بيتنا إلى الشوارع كمن يريد إطفاء حريق شب

فجأة، لم نكن ندري إلى أين نسير، ولا حتى ماذا نريد. كانت دموعنا تسيل أحيانا، ونحن نشعر دون تفكير أن مصر قد تهاوت وترنحت وأنها أعز وأغلى من كل شيء. وفي عدونا المحموم كنا نكبر لحظة بعد أخرى بالعشرات والمئات بل والألوف من البشر الذين خرجوا لإحساسهم أن الوطن صار في مهب الريح. وامتلأت شوارع القاهرة بالجموع الهادرة، الغاضبة، الجريحة، تسير نحو شارع قصر العيني، وهي تهتف لكي يبقى عبد الناصر مكانه. وضاقت الشوارع بالجموع من كل الأعمار: أطفال ونساء مسنات وشيوخ وشباب إلى أن توقف حشدنا الضخم أمام مجلس الشعب. وبعد منتصف الليل أطل علينا أنور السادات من شرفة المجلس وطمأن الناس أن عبد الناصر قد تراجع عن قراره بالتنحي، وأنه سيظل في موقعه. وفي صبيحة اليوم التالي ألقى عبد الناصر خطابا أكد فيه على معاني التصدي للعدوان، واتهم أمريكا علنا بأنها ساعدت إسرائيل على التخطيط والعدوان في 5يونيو.

وجاء في أحد خطاباته:

"إن الولايات المتحدة مطالبة بالضغط على إسرائيل لكي تنسحب من الأراضي العربية التي احتلتها، فإذا لم يكن هذا الضغط ممكنا فالممكن بعده أن تتوقف الولايات المتحدة عن استمرار تزويد إسرائيل بالسلاح، وإلا فهي شريك في استمرار احتلال الأراضي العربية بقوة هذا السلاح".

وكان الرئيس الأمريكي جونسون قد ترك إسرائيل تفعل ما تريد، أو ما تراه مناسبا والمضي فيما تشاء ولو إلى حد الحرب كما يقول وليام كوانت في كتابه عن النزاع العربي الإسرائيلي. وتأججت الأجواء في مصر بالرغبة في الصمود. ونادى عبد الناصر بأن: «ما أخذ بالقوة، لا يسترد إلا بالقوة»، وعادت الأغاني الحماسية إلى الإذاعة، الجديدة مثل:"**ابنك يقول**

لك يا بطل هات لي انتصار.. ولا فيش مكان للأمريكان بين الديار" والقديمة مثل: "مصر التي في خاطري وفي دمي"وغيرها.

بالرغم من ذلك كله، كان ثمة شيء قد انكسر. شيء يتعلق بثقة الناس المطلقة في قدرة النظام السياسي. كيف أمكن لنكسة - أو هزيمة - كتلك أن تقع هكذا في ستة أيام؟ وكيف وجدت مصر نفسها مضطرة لقبول وقف إطلاق النار غير المشروط في 8 يونيو 67؟ وانتشر في الجو لون قاتم مرير من الأسئلة، وراجت قصائد تستفسر عما جرى، وكتب نزار القباني «هوامش على دفتر النكسة» يقول:

أنعي لكم يا أصدقائي، اللغة القديمة
والكتب القديمة،
أنعى لكم:
كلامنا المثقوب كالأحذية القديمة
ومفردات العهر، والهجاء، والشتيمة،
أنعى لكم..
نهاية الفكر الذي قادنا إلى الهزيمة
إذا خسرنا الحرب لا غرابة..
لأننا ندخلها بكل ما يملكه الشرقي من مواهب الخطابة
بالعنتريات التي ما قتلت ذبابة
لأننا ندخلها
بمنطق الطبلة والربابة.

كانت الأسئلة المريرة معلقة في الجو بلا إجابات. وكان الأمر بحاجة إلى معجزة تنتشل الناس من حيرة التساؤلات. وظهرت المعجزة عندما أشاع الكثيرون أن السيدة العذراء قد لاحت بنورها فوق كنيسة الزيتون! وخرجت جريدة أخبار اليوم بمانشيت ضخم بذلك المعنى، وكان رئيس تحريرها هو الرفيق الكاتب محمود أمين العالم. وأذكر أنني قمت بزيارة له

في مكتبه بالجريدة وعاتبه على الترويج لهذه الخزعبلات. وراجت في ذلك الوقت أيضا اكتشافات مماثلة، حين راح البعض يرى ورقة شجر وقد كتب عليها اسم الجلالة وما شابه. كان الناس بحاجة إلى شيء قوي، قادم من أعلى يهبهم الشعور بأن القدر يقف في صفهم في تلك المحنة.

وفي فبراير 1968 أعلنت الأحكام التي أطلقت عليها الدولة «أحكام الطيران» ضد من أسمتهم «المسئولين عن النكسة». وكانت الأحكام متهاونة إلى درجة أنها استفزت عمال حلوان فقاموا بمظاهرات، ومن بعدهم طلبة جامعة الإسكندرية ثم جامعات القاهرة، يطالبون بأحكام جادة للمسئولين عن هزيمة بلد بأكمله. وتم قمع المظاهرات بعنف وطالت حملة اعتقال عددا قليلا من اليساريين كان من بينهم الكاتب أحمد الخميسي، ومحمد عبد الرسول، والكاتب صلاح عيسى، وعدد آخر من شباب التنظيم الطليعي في حلوان ظلوا نحو عامين داخل المعتقلات. وكرد فعل على المظاهرات أصدرت السلطة الوثيقة الشهيرة ببيان 30مارس التي حاول النظام بطرحها أن يستعيد شرعيته الثورية وثقة الشعب فيه. وطرح البيان الذي صاغه محمد حسنين هيكل برنامجا من عشر نقاط بعضها يتعلق بحشد كل الطاقات المادية والاقتصادية من أجل المعركة وإطلاق الطاقات الخلاقة للنقابات، وكل ذلك بعبارات فضفاضة،

لا تحدد كيف يمكن حشد الناس للمعركة، ووجد البيان انتقادات شديدة تركزت على أن العبارات العامة تفتح الباب للتناقض المعروف بين تصريحات السلطة وأفعالها على أرض الواقع، وطرح النقاش العام داخل الجامعات وخارجها اقتراحات محددة لتطوير البيان بدلا من عبارات هيكل الفضفاضة، وكان من تلك الاقتراحات:

تشكيل اللجان الشعبية، وإطلاق حرية الحركة والتنظيم وتشكيل ميليشيا مسلحة تتعاون مع القوات المسلحة في حماية مواقع الإنتاج والأهداف الحساسة، والسماح بالعمل الفدائي الشعبي خلف

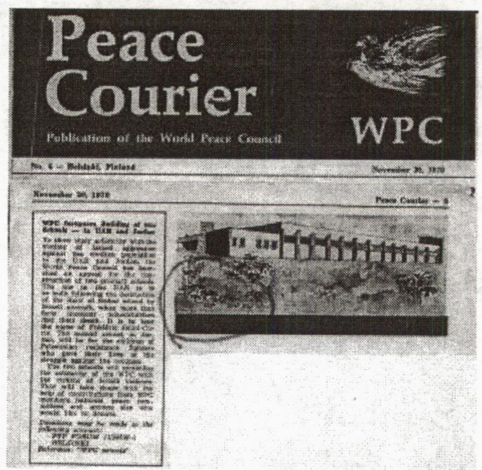
خطوط العدو في سيناء، والأخذ باقتصاد حرب يتحمل فيه أصحاب الدخول المرتفعة العبء الأكبر.

لكن السلطة لاحقت تلك الاجتماعات الجماهيرية، ومنعت اللقاءات، وراحت تهدد الداعين إليها، وأغلقت المراكز الثقافية في السويس والزقازيق وكفر الشيخ، وفي كل مكان اتسع للنقاش الشعبي الحر حول تطوير بيان 30مارس. لم يكن إطلاق طاقة الجماهير لتكون طرفا فعالا في حماية الوطن أمرا واردا. ولهذا أجهض البيان، ولم يبق منه سوى عبارات إنشائية مطاطة.

وفي تلك الفترة لمع في سماء النضال أسماء عزيزة: الشاعر أحمد فؤاد نجم، والمغني الضرير الشيخ إمام، والفنان عدلي فخري وكانوا ينشدون أحلام الناس بالتصدي، والمقاومة، وكانوا يسخرون من كل مساوئ النظام، وكنا ندعوهم إلى كل مكان ونقيم لهم الحفلات في شتى أحياء القاهرة، وقد استضفتهم أكثر من مرة في بيتي، وكنا نسهر حتى الفجر نردد مع حشد من الأصدقاء تلك الأغنيات الجميلة **"رجعوا التلامذة يا عم حمزة للجد تاني"، و"الفلاحين بيغيروا الكتان.. با لكاكي"**

وكانت تلك الأغاني تلهب النفوس وتشحذ الهمم والإصرار على أن الشعب لن يدع خسارة المعركة (النكسة) تقضي عليه. إلا أن السلطة في نوفمبر من نفس العام قبلت بقرار مجلس الأمن 242 الذي نص على الاعتراف بإسرائيل «وحدودها الآمنة» التي لم تحدد حتى الآن بكل ما انطوى عليه ذلك من خطر تصفية القضية الفلسطينية. وفي نوفمبر 1968 تحركت الجامعات المصرية في مظاهرات جديدة، ترفض الحل السلمي وتطالب بالمشاركة الشعبية في تقرير مصير الوطن. وأعلن عبد الناصر في واحد من خطاباته عبارته الشهيرة المريرة «إذا لم نستطع أن نقود فسوف نحكم» وكرر العبارة عدة مرات في إشارة واضحة إلى أن

السلطة قررت أن تعوض بالحكم ما فقدته بالهزيمة من زعامة شعبية.



Peace Courier

Publication of the World Peace Council

WPC

تصميم مدرسة بحر البقر المنشور
فى مجلة حركة السلام العالمى

في أواخر عام 1969 طرحت أمريكا ما سمي بمشروع روجرز. الذي قال عنه عبد الناصر في وقتها «إنه غير مقبول». لكن إسرائيل أخذت توجه الضربات العسكرية إلى العمق المصري، ومازال الكثيرون يذكرون عمال مصنع أبي زعبل، وتلاميذ مدرسة بحر البقر التي راح ضحية لقصفها أربعون طفلا بعمر الزهور ويومها تبرع الأستاذ: أحمد مجاهد المحامى من دكرنس بقطعة ارض وتبرعت بعمل التصميم لمدرسة بديلة. وفي حينه كتب صلاح جاهين قصيدة في الأهرام ينعي بها الأطفال يقول مطلعها:

اكتب يا ضمير البشرية..
ولف العالم يا عزيزي
الطفلة مصرية وسمرا
كانت من أشطر تلاميذي!

وفي يناير 1970 قام عبد الناصر برحلة سرية إلى موسكو يطلب العون لصد العدوان بعد أن أصبح عمق مصر مفتوحا. وكان العون

السوفيتي غامرا إلى درجة تدفعني للاستشهاد بما ذكره محمد حسنين هيكل في كتابه «المفاوضات السريةِ بين العرب وإسرائيل» بذلك الشأن:

"إن الوجود العسكري في مصر بعد الزيارة السرية التي قام بها عبد الناصر في يناير إلى الاتحاد السوفيتي أدى إلى وضع بالغ الحساسية في المنطقة، وعلى سبيل المثال يوم أول يناير سنة 1970 قبل الزيارة- كان عدد الخبراء السوفيت في مصر طبقا لتقديرات المخابرات الإسرائيلية يتراوح بين2500 إلى 4000، وفي 31 مارس سنة1970 وبعد الزيارة وصل إلى ما بين 6560 إلى 8080 خبيرا سوفيتيا، كما ظهرت 22 بطارية دفاع جوي من طراز سام 3 لم تكن موجودة من قبل، وكان واضحا من هذا الحجم من الرجال والمعدات أنه يضمن تشكيلات مقاتلة جاهزة لحماية العمق".

وعاد عبد الناصر من زيارته، وأمر بإخلاء مدن القناة من المدنيين، ثم وصل الخبراء السوفيت، وأقاموا «حائط الصواريخ» الذي اشتمل على المئات من وحدات الدفاع الجوي بطول البر الغربي للقناة، وبدأت مصر تصد الطائرات الأمريكية المغيرة التي بحوزة إسرائيل وتسقطها، مما أثار الذعر داخل القيادة الإسرائيلية، واستشهد في تلك الفترة البطل الفريق عبد المنعم رياض بين جنوده، وضرب مثالا نادرا ملهما بعد النكسة للقائد العسكري المخلص، وكان الناس في أمس الحاجة لاستعادة ثقتهم في روح القتال، فشيعوا جثمانه في جنازة مهيبة تنطوي على كل معاني التقدير للتضحية بالنفس في سبيل مصر.

وفتحت نوادي للتدرب على إطلاق النار في أنحاء مختلفة. وكنت قد تجاوزت الخمسين من عمري. ولكنني قررت مع ثريا بعد نقاش غير طويل أن نذهب معا إلى نادي بنك مصر بامبابة. وهناك بدأنا من جديد نتدرب على استخدام السلاح. وكانت الجنزرات والعربات المصفحة قد بدأت تنتشر في الشوارع تغطيها أفرع الشجر استعدادا لأي طارئ. وارتفع الشعار الشهير: «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة». وكنت أهبط من منزلي صباحا مع أحد جيراني من الضباط نحفر في الشارع الذي نسكن فيه خنادق بسيطة متعرجة تأهبا لحرب الشوارع.

قبل عبد الناصر في 7 أغسطس 1970 بمشروع روجرز تحت عنوان آخر هو مبادرة روجرز. واعتقد أن من الفروق بين "مشروع روجزر ومبادرة روجرز" أن في الأول تحديد الانسحاب من جميع الأراضي العربية المحتلة بما فيها أراضي سوريا أما في المبادرة فقد ذكر تعبير مطاط هو الانسحاب من "أراضي محتلة" بعد حرب 1967وكان تركيز المبادرة على أن أمريكا هي التي ستتولى القيام بالدور الرئيسي في التسوية وليس أي طرف آخر. أو جهة دولية كمجلس الأمن. أو الدور المشترك للقوتين الأعظم. وطالبت المبادرة بإنهاء الوجود الفلسطيني المسلح. وأعطت المبادرة الضوء الأخضر لتصفية الفلسطينيين الذين وقعوا بين المطرقة الإسرائيلية وسندان الملك حسين. فلم يتردد الأخير في القيام بمذبحة أيلول الأسود لقوات منظمة التحرير الفلسطينية

في سبتمبر1970:

ولم يتدخل عبد الناصر تدخلا حازما خلال المذبحة. لكنه دعا بعد ذلك إلى عقد مؤتمر قمة عربي للمصالحة في القاهرة بعد المذبحة. وعندما انفض المؤتمر ودع عبد الناصر الملوك والرؤساء المشاركين وكان آخر من قام بتوديعه في مطار القاهرة أمير الكويت. وعاد بعدها إلى منزله وأسلم الروح في 28 سبتمبر وعمره لم يتجاوز الثانية والخمسين. ويهمس لي قلبي أن ضمير عبد الناصر هو الذي قتله.

بينما يحدثني عقلي بأنه قد قتل بطريقة علمية خبيثة. وقد نشرت صحف إيطالية وأخرى أجنبية ذلك المعنى، وقالت إنه مات بسم وضع بجرعات مخففة في المراهم التي كانت تستخدم يوميا في التدليك. الأكثر من ذلك أنني التقيت فيما بعد في سجن طرة بأحد أولئك الذين كانوا يقومون بتدليك بدن عبد الناصر يوميا. ولم أفهم لماذا كان مسجونا؟! لكنني أتصور الآن أن بعضا من وصفوا بمراكز القوى قد دفع إلى السجن لفترة وأفرج عنه بعدها حين حلت بمصر الانتكاسة الحقيقية؟!

أيا كان الأمر، فإن مشهد جنازة عبد الناصر كان شيئا أسطوريا ممتلئا بدموع وحب وعرفان الشعب المصري كله. ولم يمض موكب جنازته كما كان مقررا له. فقد حملت الملايين ذلك النعش وطافت به شوارع القاهرة التي لم يعد بها مكان لقدم واحدة. مشهد لا نظير له إلا مشهد رفع الجماهير لسيارة عبد الناصر وهو داخلها في دمشق أيام الوحدة المصرية السورية. وفي الجنازة انبثق الإبداع الشعبي تلقائيا في أغنية لا يدري أحد من صاغها؟ ولا من وضع لحنها؟ أغنية تهز القلب وتغمره بطوفان من العاطفة الجياشة:

الوداع يا جمال يا حبيب الملايين
ثورتك ثورة جياع عشتها طول السنين،
الوداع

كان صوت الجماهير المودعة يرتفع من الأرض إلى السماء، كأنه صوت قادم من كل عصور الظلم. كان ذلك هو حكم الشعب المصري الأخير على عبد الناصر وثورته رغم كل شيء. فقد أدرك الشعب أنه بالرغم من كل الأخطاء فإن سنوات عبد الناصر القليلة كانت زمنا خصبا من تحدي الاستعمار والإنجازات والبناء والتعمير مشبعة بأحلام قائد وطني عظيم.

الفصل الثالث عشر
الانتكاسة «أو الوجه» الحقيقي للهزيمة



برحيل عبد الناصر تولى أنور السادات الحكم في أكتوبر 1970، وكان الجميع يظن أنه سيحكم فترة مؤقتة وقصيرة للغاية لمجرد استيفاء الشكل الدستوري لأنه كان نائب الرئيس. وكانت نكات كثيرة تشيع حول دور السادات السلبي خلال سنوات الزعامة الناصرية، ودوره الغريب قبل ذلك في الحرس الحديدي زمن الملك فاروق. وكان تعليق الكاتب الساخر محمود السعدني على وصول السادات للحكم هو قوله الشهير: «رئيس موتنا من الخوف والثاني ح يموتنا من الضحك». وبسبب تلك النكتة وغيرها ألقى الرئيس السادات بالسعدني إلى غياهب المعتقل خلال» ثورة 15 مايو» عام 71 والتي تخلص فيها من طاقم جمال عبد الناصر ورجاله الذين لم يقبلوا بزعامة السادات. وكانت ما سمي ثورة التصحيح في 15 مايو 71 في حقيقة الأمر مضيا بأسوأ جوانب ثورة يوليو إلى نهاياتها المنطقية، وفتح السادات بها الأبواب على مصاريعها لعملية مضادة شاملة في السياسة والاقتصاد وكل مناحي الحياة. وكان يردد خلال ذلك أنه يسير على خط عبد الناصر «أعظم الرجال، وأشرف الرجال»حتى شاعت نكتة شهيرة أن السادات يمشي على خط عبد الناصر حقا لكن بأستيكة!

ومنح السادات التيار المتأسلم حرية حركة ضخمة في الجامعات لتصفية اليسار، وأطلق سراح عدد كبير من المعتقلين من الإخوان المسلمين مستغلا الدين في السياسة لأقصى درجة حتى أنه أعفى الملاك من بعض رسوم المباني إن هم أقاموا بالعبارات زوايا للتدين...

بوصول السادات للحكم أصبح واضحا تماما أن مصر ستمضي إلى عالم آخر مجهول، وحافل بكل الاحتمالات. وكان الشيوعيون قد أدركوا

مع هزيمة 67حجم الكارثة وافتقدوا حزبهم. ومازلت أذكر بعد خروجنا من المعتقلات كيف جاءني محمد علي عامر وهو كهل يقترح علي أن نعيد تأسيس الحزب، ورحبت بدون تردد. هو ذاته محمد علي عامر الذي كان يمضي في شوارع القاهرة خلال العدوان الثلاثي متباهيا بمدفعه الرشاش. وبدأت مختلف الاتصالات واللقاءات، وأخذت الثمرة تنضج، وتشكل الحزب مرة أخرى، واختارني الرفاق عضوا بالمكتب السياسي في الحزب الجديد.

عام 1971 كان ابني حسام قد أنهى تعليمه الثانوي. وفي تلك الفترة جاءني مسئول سوفيتي يحقق في موضوع رشوة وسرقات مالية قام بها الدبلوماسيون السوفيت في القاهرة في فترة سابقة. وكنت قبل ذلك قد وضعت لهم تصميما هندسيا لدار عرض في شارع عماد الدين، ولاقى التصميم إعجابهم الشديد فاقترحوا علي عمل تصميم آخر لمبنى المركز الثقافي بالدقي، وحينما أنجزت التصميم أخذوه مني بدعوى إرساله إلى موسكو للحصول على موافقة لتنفيذه. وانتظرت الرد طويلا بلا جدوى إلى أن مررت ذات يوم بالمصادفة أمام الموقع فوجدت آلات البناء والحفر تعمل في المكان! واتضح بعد ذلك أنه تم إسناد تنفيذ المشروع بنفس التصميم الذي قدمته لآخرين؟! لمن؟ على الأرجح لأولئك الذين دفعوا شيئا، أو قاموا بمجاملة كبيرة. سألني المسئول السوفيتي عن تلك الوقائع، واعتذر عما حدث معي، واقترح كنوع من التعويض أن يوفر منحة دراسية لابني حسام لدراسة الهندسة في الاتحاد السوفيتي، وهو ما حدث. وسافر حسام بالفعل، وهناك تعرف إلى زوجة المستقبل ماجدة التي أضاءت بوجودها حياتنا، وأتقنت اللغة المصرية وهي المجرية الأصل والنشأة.

في فبراير من نفس العام 1971 طرح السادات مبادرته الأولى للحل الثنائي الجزئي التي نصت على فتح قناة السويس مقابل انسحاب إسرائيلي محدود. والغريب أن تنص معاهدة الصلح المنفرد بينه وبين

إسرائيل سنة 1973 على فتح القناة في نفس توقيت هزيمة «أو انتكاسة» ه يونية سنة 1967 وأعتقد أن اختيار التوقيت له معنى هو إظهار الفرق بين السياستين؟! وفي يوليو 1971 بدأ حملة مسعورة ضد ما أسماه «الخطر الشيوعي» وأقدم على التدخل العسكري السافر ضد حركة هاشم العطا في السودان، وفي سبتمبر أصدر قانون «تشجيع استثمار رأس المال الأجنبي والعربي» الذي منح رأس المال الأجنبي امتيازات غير محدودة. وبدأت سياسة الانفتاح، ثم تفكيك القطاع العام، وتصفية النظام التعاوني في الزراعة، وترافق ذلك كله مع صدور قانون «السلام الاجتماعي» الذي نص على حق «المدعي العام الاشتراكي» في إصدار مختلف القرارات، بالإضافة إلى شبكة محكمة من القوانين الأخرى التي تحرم الإضراب والاعتصام وتجعل عقوبة ذلك الأشغال الشاقة المؤبدة. وفي أعقاب «ثورة التصحيح في مايو 71» أنهى السادات على نحو مفاجئ مهمة الخبراء السوفيت في مصر، وكان ذلك مؤشرا واضحا على أن مصر تلقي بكل أوراقها في السلة الأمريكية.

كان عام 71 هو أيضا عام الحسم كما أطلق عليه السادات. وحين لم تشهد مصر لا حسما ولا يحزنون، عم السخط، واتخذ الغضب شكلا أكثر وضوحا لدي طلبة الجامعات، وانتشرت مجلات الحائط والملصقات وشاعت حلقات النقاش. وفي خطاب له في 13 يناير 72 برر السادات عدم خوض معركة الحسم بحكاية الضباب السياسي الناجم عن الاشتباكات الهندية الباكستانية!. وأصبح خطاب السادات مادة وهدفا لكل التعليقات الساخرة في مجلات الحائط في مختلف الكليات، وتزاحم الطلبة الغاضبون في ردهات وطرقات الكليات بحثا عن حل. وقررت الغالبية عقد جمعية عمومية في 15يناير 72 في كلية الهندسة. وكانت تلك الجمعية شرارة أشعلت الحريق. وكان ابني المهندس ممدوح حبشي أحد أولئك الطلاب. وفي 21 يناير عقدت جمعية أخرى موسعة حضرها عشرة آلاف طالب وشكلوا لجنة وطنية عليا

قررت الاعتصام لحين الاستجابة إلى مطالبها. وطالبت بيانات للجنة بـ:

- وقف كل المحاولات لعقد حلول سلمية مع العدو الأمريكي الصهيوني وسحب الموافقة على قرار مجلس الأمن 242، ومبادرة روجرز.

- البدء فورا في تعبئة جماهيرنا في شكل جيش شعبي قوامه فرق الطلاب والعمال والفلاحين لمواجهة احتمالات الحرب الطويلة الأمد ضد العدو، وفتح معسكرات التدريب.

-تعديل هيكل الاقتصاد المصري ليصبح اقتصاد حرب مع التركيز على الإنتاج الحربي.

- دعم المقاومة الفلسطينية

- تبني سياسة إعلامية جادة ومسئولة تجاه قضايا الوطن.

وأصدر عدد من الأدباء والفنانين بيانا أكدوا فيه رفضهم للحلول السلمية وتأييدهم لكل مطالب الطلبة.

وفي صباح الاثنين 24 يناير اقتحمت قوات الشرطة مبنى كلية الهندسة وألقت القبض على عدد كبير من الطلاب كان من بينهم ابني ممدوح حبشي. وحاولنا أن نزور ممدوح فلم نستطع، وكان أقصى ما بوسعنا هو أن نراه من وراء شباك السجن، وهو يهتف بنا: «ما فيش حاجة.. ما تقلقوش، إحنا كويسين قوي». كنت أنظر إليه مع ثريا ولا ندري هل نتألم من أجله أم نحس بالفخر لأن لدينا ولدا كهذا مشحونا في شبابه بالحماس والاستهانة بالخطر من أجل بلده؟

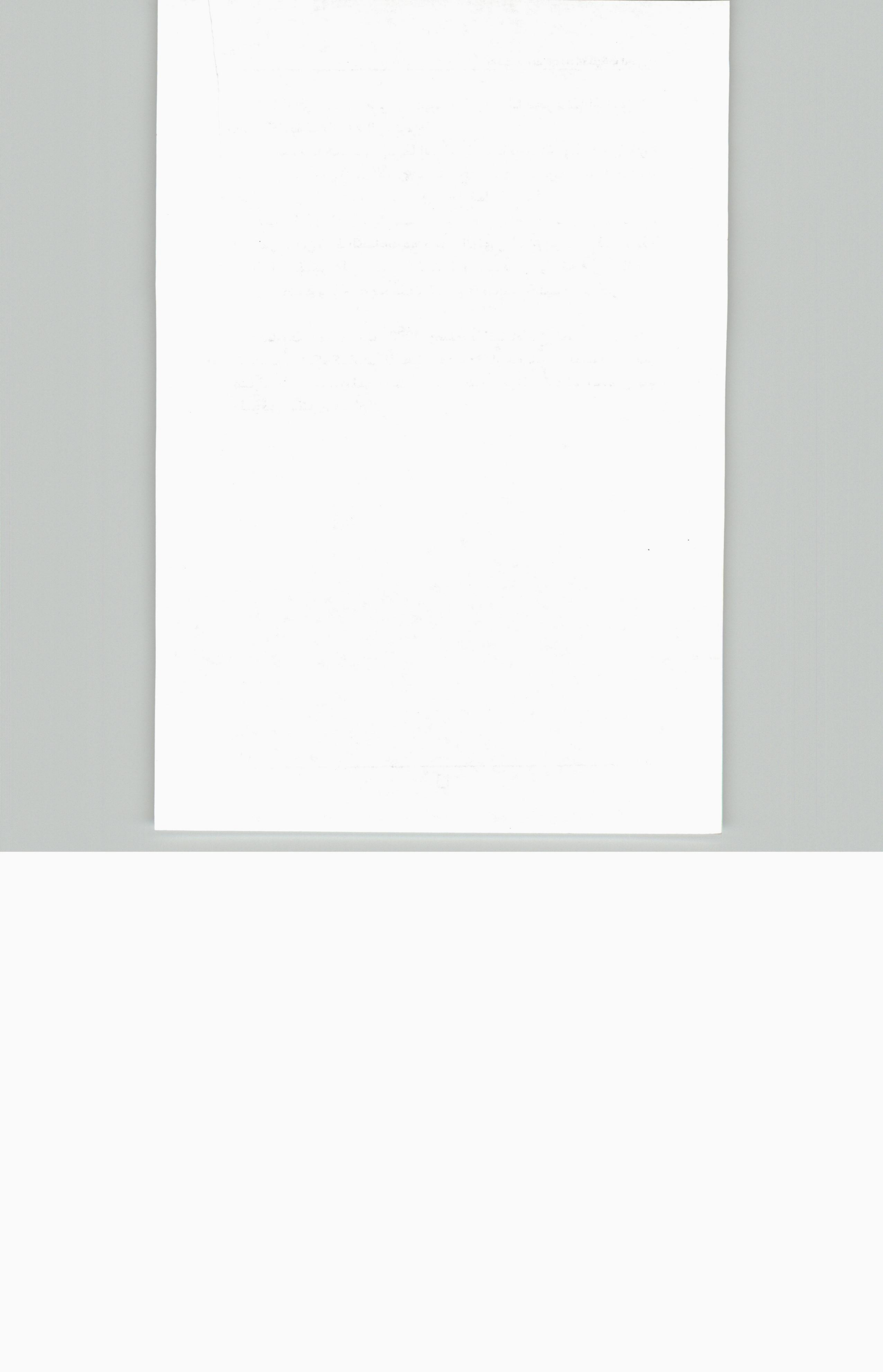
جال بخاطري وأنا أرى ممدوح أنني أعيش لحظة غريبة، ألم تكن مهمتي طيلة عمري دعوة الناس للكفاح؟ فلماذا إذا أتألم؟ هل لأنه ابني؟

وما الذي ينبغي على أن أقوله له؟ وهل أنا قادر على أن أقول له: واصل طريقك واندفع إلى الأمام؟.

جذبت ثريا من يدها وعدنا إلى المنزل. كنا صامتين ونحن في طريق العودة. أكانت ثريا هي الأخرى تسترجع رحلتها الطويلة وراء القضبان وتطرح على نفسها ذات السؤال: ماذا أقول لولدي؟

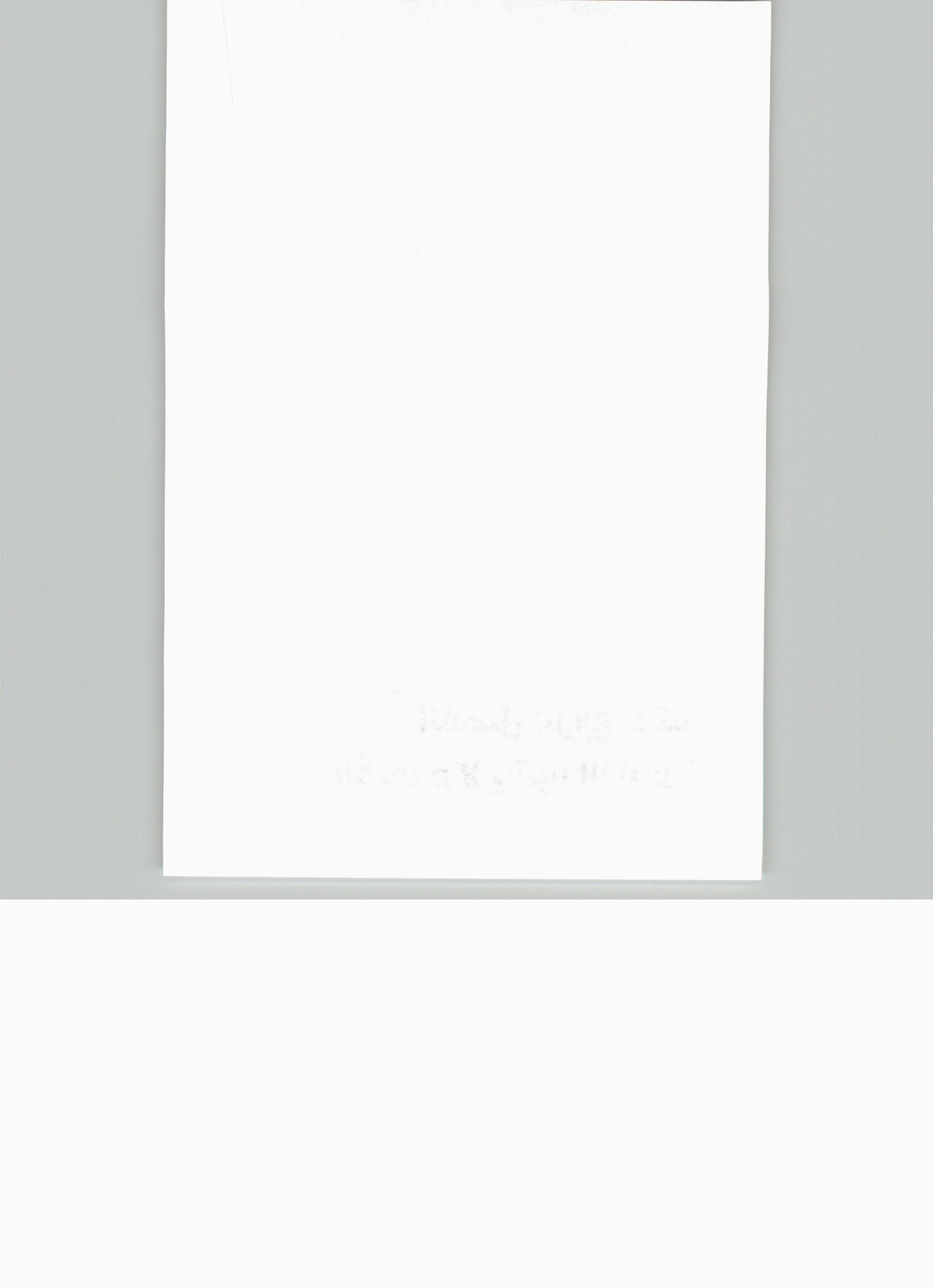
وهكذا أرى أن الانتكاسة الحالية أو الوجه الحقيقي للهزيمة هو استمرارنا في خط السادات مع بعض الرتوش لخداع البشر... فمثلا نص اتفاقية الكويز على تبعيتنا لإسرائيل اقتصاديا ولا تخفي خطورته على المنطقة وعلاقته بمخطط الشرق الأوسط الجديد الأمريكي.

أما بعد حرب سنة 1973 وصلحه المنفرد مع إسرائيل وجولات كيسنجر المكوكية في المنطقة فقد اختار السادات السيد: حسني مبارك نائبا له.. وذلك بعد أن بدأ يضرب يمينا وشمالا بشكل غير طبيعي.. وكان ما كان؟!.



الفصل الرابع عشر

المهرج لا يشبه الرئيس!



أخذت الحركة الشيوعية تنشط من جديد في تجميع فصائلها في حزب شيوعي مصري جديد بدأ يتشكل من عدة مجموعات منذ عام 1970، وأعلن رسميا عن وجوده في 1975، وأصدر الحزب وثيقة انتقد فيها تجربة الحل السابقة، وحدد آفاق حركته وبرنامجه. وفيما بعد حصل على اعتراف أممي. ولم نكن ندري أننا نحصل على اعتراف من جهة تعاني هي نفسها من مشكلات وأزمات وسلبيات ستؤدي لزوال أول تجربة للاشتراكية عام 1991. حينذاك لم نكن نرى في الاتحاد السوفيتي سوى الإيجابيات.

في تلك الفترة كانت المسألة الوطنية مجمدة بفعل وقف إطلاق النار الطويل، وذهبت كل وعود روجرز أدراج الرياح، بينما كان الضغط الشعبي على السادات يشتد ويلزمه بالبحث عن حل بعد ثلاث سنوات من الجهود الدبلوماسية الفاشلة. وكان لابد للسادات من القيام بحركة، تنقذه من مواجهة الحركة الشعبية، وتنقذه أيضا من حرب تحرير شاملة. وجاء خطاب السادات في 28 سبتمبر 1973 في ذكرى وفاة عبد الناصر، وأكد فيه أهمية معركة التحرير. وبعد مضي ثمانية أيام بالضبط دخلت مصر حرب السادس من أكتوبر. وعبرت جيوشنا القنال وسط ذهول الجميع، وكانت الفرحة غامرة، تفيض في كل بيت، وكان هناك أيضا خوف تاريخي من الانكسار قبل الوصول إلى النقطة الأخيرة. وسرعان ما تكشفت خطة الحرب المحدودة.

وتكشف أنه ليست هناك نية لتطوير الهجوم، وحين وصل الجيش المصري إلى منطقة ممرات شبه جزيرة سيناء دب الخلاف بين السادات

وبعض القادة ممن أرادوا الاستمرار في الحرب حتى تحرير كامل التراب، لكن السادات بعد عشرة أيام فقط من بدء القتال وجد في المساعدات الأمريكية المتدفقة على إسرائيل حجة لطلب وقف إطلاق النار في 16 أكتوبر 73، والحديث بعد ذلك عن أنه خطط لحرب «تحريك» وليس حرب «تحرير». وكتب الفريق الشاذلي يهاجم طلب وقف إطلاق النار باعتباره خطوة لم تراع، ولم تنسق مع سوريا التي شاركت منذ البداية في الحرب، وعليه ظلت هضبة الجولان محتلة إلى يومنا هذا. وكانت الحرب انتصارا جزئيا تحقق بتضحيات جسيمة، ثم استخدم من أجل تسوية غير عادلة. وهكذا صدر قرارا مجلس الأمن رقم 338، ورقم 339 عام 1973، وكان القراران استمرار للقرار القديم 242 وما لحقه. وبالرغم من كل ذلك فقد ألقت الحرب الضوء على قدرة الإنسان المصري على القتال والذود عن وطنه بكل أشكال البطولات والتضحيات وتحطيم أسطورة أن إسرائيل عدو لا يهزم.

سرعان ما كشفت السنوات الأربع اللاحقة على حرب أكتوبر، أي ما بين 73 حتى 1977 عند وقوع هبة يناير الشعبية عن أن الحرب انتزعت لمصر جزءا، لتخسر الكل. وكان البعض يسخرون بقولهم « نخشى أن نسترد سيناء ونخسر مصر كلها ». كانت تلك السنوات الأربع أعوام التحول الاقتصادي الكامل، واعتماد سياسة الانفتاح، رفعت خلالها الحراسات عن الأراضي الزراعية، وأخذ الملاك ينتزعون قطع الأرض من الفلاحين، وصدر قانون تنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر، وشهد عام 74 وحده - بعد سنة من الحرب - صدور 124 قانونا أدت إلى تغيير المسار الاقتصادي والاجتماعي العام للنظام، بفتحها الباب للامتيازات السياسية والجمركية والاقتصادية لرأس المال الأجنبي، وتحويل القطاع العام إلى قطاع خاص، والالتزام بتعليمات الصندوق والبنك الدوليين، وزيادة الضرائب غير المباشرة، وارتفاع معدل التضخم. وفي ظل الانفتاح الذي التهم خبز الناس، وحقهم في العمل الكريم، والعلاج، والتعليم، كان لابد من تغطية كل ذلك بتعددية سياسية حزبية يلهي بها الناس والمثقفين. فأعلن السادات في نهاية 1976 عن قيام ثلاثة منابر داخل الاتحاد

الاشتراكي، أحدها يساري، والثاني يميني، والثالث وسط! وتحولت المنابر إلى أحزاب تتلقى دعما رسميا من الحكومة. هي في الواقع صورة هزلية لما تسميه السلطة « الديمقراطية» التي لا تنمو طالما هناك أحكام عرفية أو ما شابهها.

وأعلن السادات الشعار حتى اليوم الممجوح؟!: "**أن أمريكا بيدها 99% من أوراق اللعبة؟!..**"

واستغلت كلمة «السلام» العظيمة في غير معناها فرفعنا. «شعار السلام خيارنا الاستراتيجي» لنستند عليه في عدم دعمنا للحركات المقاومة للاستعمار كما دعمنا الثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي فيما سبق؟!.

وفي المقابل كانت هناك مقاومة لكل تلك الأوضاع. وجرت انتفاضات وإضرابات عمالية في شبرا الخيمة، والمحلة، والإسكندرية، ومظاهرات في الجامعات، وفي مايو 74 ألقت المباحث القبض على الشاعر أحمد نجم، والشيخ إمام عيسى، وكانت المضبوطات عبارة عن عدة شرائط كاسيت بها الأغاني التي كتبها نجم ولحنها إمام، وقصائد بخط نجم يهاجم فيها أمريكا والنظام، منها قصيدته الشهيرة: "**شرفت يا نيكسون بابا.. يا بتاع الوتر جيت**".

وحوكم الاثنان بتهمة بث الدعايات المثيرة ضد النظام واعتبرت النيابة أن وصف الأحوال التي يعانيها الشعب بأنها أحوال «نيلة» يعد تنديدا وهجوما صارخا على السلطة!

ذات صباح أواخر عام 1974 قلت لثريا ونحن نستعيد طريق حياتنا:

- تصوري أنني حللت ضيفا على جميع سجون القاهرة، وأعرفها واحدا واحداً مثل غرف منزلي، ما عدا سجن أبي زعبل؟

ونهرتني ثريا قائلة: **فال الله ولا فالك، بناقص أبو زعبل يا سيدي!**

ولم تنقض سوى أيام قليلة على حديثنا حتى وجدت نفسي -في صباح 2 يناير -75 معتقلا في سجن أبي زعبل الذي ضايقني أنني لم أكن قد رأيته! وكما هي العادة طفت أولا بعدة أقسام للشرطة، ثم وضعت في معتقل القلعة، وأخيرا نقلت إلى أبي زعبل الذي أطلقنا عليه تهكما سجن «خمس نجوم» فقد أودع فيه أنور السادات من قبل من أسماهم «مراكز القوى» من وزراء وزملاء سابقين له في الحكم.



مع الرفاق فى القفص فى قضية عام 1975

جاء اعتقالي هذه المرة ضمن حملة شملت الكثيرين ممن شاركوا في إنشاء الحزب، وذلك بعد أن قام عمال حلوان بإضراب ومظاهرات انتشرت شرارتها إلى أنحاء مختلفة من القاهرة، وارتأت السلطة أن اليسار هو المحرك لتلك المظاهرات. ومع ذلك فقد أشاعت الصحف كعادتها في تشويه انتفاضات الشعب أن الأمر لا يعدو أن بعض الصبية والمشاغبين هاجموا فاترينات المحال بالحجارة، كما حدث حين أطلقت الحكومة فيما بعد على انتفاضة 19-18 يناير 1977 أنها "انتفاضة حرامية". والعجيب أن العديد يصدقون ما تردده الصحف ووسائل الإعلام حتى أن أخي الأكبر المهندس فؤاد حبشي قرأ في الصحف أن أحد المهندسين وبعض المحامين شاركوا في المظاهرات وحطموا واجهات المحال، ثم عرف بعد ذلك بأمر اعتقالي، فظن أنني ذلك المهندس! وعلى الفور قام بزيارة إلى ثريا زوجتي وأخذ يعاتبها مستنكرا:

«كيف يقوم فوزي وهو رجل مثقف بتكسير زجاج المحلات بالطوب؟. ونفت له ثريا بدورها وهي مندهشة ذلك وقالت له: أتصدق ما تكتبه الصحافة الحكومية؟!

شملت تلك الحبسة نوعين من السياسيين: القدامى الذين اعتادوا على السجون مثل حالتي، وكان منهم المحامي المناضل الراحل زكي مراد، والشاعر محمود توفيق، ومبارك عبده فضل، وعلى عامر، وأحمد شرف الدين، وعريان نصيف وغيرهم. كما ضمت شبابا من اليساريين الجدد أغلبهم من طلاب الجامعات أو حديثي التخرج كان منهم د. أسامة الغزالي حرب، وهاني الحسيني، والأستاذ ماهر بيومي وآخرون.

عرفت القضية التي اعتقلنا على أساسها بقضية «إحياء الحزب الشيوعي المصري»، وضمت تقارير المباحث العامة المقدمة للنيابة قولها عني: "**شيوعي قيادي سبق اعتقاله.. من قياديي التنظيم ويحضر اللقاءات التي تتخذ الصفة التنظيمية السرية، وقد تم تصوير إحدى هذه المقابلات**". وبالفعل كان دليل الإدانة في تلك القضية صورة فوتوغرافية لاجتماع عقدته اللجنة المركزية في كازينو الزهراء بالمنيل يوم 11 سبتمبر 1974، بحضوري مع محمود توفيق الشاعر، وأحمد سعد كامل، ومبارك عبده فضل، ود. رفعت السعيد. ولكن الغريب في الأمر أنني ظهرت في الصورة وظهري إلى الكاميرا، بينما ظهر الدكتور رفعت السعيد في مواجهة الكاميرا، ومع ذلك فقد استبعد اسمه من قرار الاتهام بدعوى أن الاسم في التحريات يختلف عن الاسم الحقيقي للدكتور رفعت!

خلال وجودنا في أبي زعبل، قام الشباب بإصدار مجلة أطلقوا عليها «الشرارة» لم يصدر منها سوى ثلاثة أعداد، كان الأخير منها في 25 مايو من نفس السنة. وفي العدد الأول من المجلة أجرى أحد الشباب حوارا معي جاء في مقدمته:

"إنه -كما يحب زملاؤه أن يداعبوه- الرجل القوي في الزنزانة رقم2 وبطل أشهر وأبشع قصة تعذيب في تاريخ

الحركة الاشتراكية المصرية. ذلك هو المهندس فوزي حبشي، واحد وخمسون عاما من العمر، وثلاثون عاما من النضال تحت الراية العظيمة للطبقة العاملة المصرية".

بعد تلك المقدمة سألني الشاب عدة أسئلة من بينها السؤال التالي:

- "ما هو الدرس الذي تهديه للشباب من واقع تجربتك النضالية؟

وقلت:

- أن الإنسان موقف. وموقف الإنسان هو كل ما يبقى له إذا فقد كل شيء. وأذكر على سبيل المثال أنني لاحظت بعد توقيع اتفاقية الجلاء عام 1954أن ما يكتبه الأستاذ أحمد بهاء الدين في مجلة "روز اليوسف" بتوقيع مواطن مصري عن هذه الاتفاقية يخالف آراءه التي يدلي بها في الندوات التي كانت تعقدها إحدى الحلقات الماركسية. وعندما سألته عن السر في ذلك قال: "إنني أكتب ما تريده السيدة روز اليوسف.. فالصحفي منا كتاجر في مقلة، اللي عاوز سوداني أديله سوداني، واللي عاوز لب أديله لب. وباختصار احنا بنبيع لب!".



مجلة الشرارة عام 1975

في أبو زعبل عاودتني رغبة لا تفارقني في تجميل الحياة، حتى لو كانت الحياة سجنا بغيضا. وتأملت حوش السجن الواسع، وفكرت: لماذا لا نبني هنا نافورة تحيطها عدة تماثيل صغيرة ترمز لمختلف نواحي الحياة؟ واقتنع بالفكرة ضابط كان مازال يتحلى ببعض صفات إنسانية، فقرر عمل وصلة مياه إلى منتصف الحوش. وفي إحدى زيارات ثريا لي طلبت منها أن تهرب لي في زياراتها الدورية جبس وأسمنت وبلاط قيشاني!.

سألتني: ليه؟ ح تعمل إيه؟

أجبتها: بصراحة ح أعمل نافورة هنا!

قالت غير مصدقة: نافورة إيه يا فوزي؟



الفسقية في حوش سجن "أبو زعبل"

وبالرغم من ذلك بدأت ثريا تنقل لي تلك المواد، وكان الضابط يغض النظر عنها حسب اتفاقنا. ورحت بتشجيع بعض الرفاق أضع تصميم النافورة الذي يقوم على تمثال لمهرج يطلق المياه من بوق فتغطي أربعة رموز للحياة قابعة على أركان فسقية: الرمز الأول للجمال وتجسده عروس البحر منكفئة على وجهها باكية لصعوبة الحياة داخل السجن،

والثاني للفرح وتجسده باقة من الزهور وقد بطشت بها يد عملاقة فسحقتها. والثالث رمز الثورة وتمثله شعلة انطفأت بفعل الزمن الميت داخل السجن. أما الرابع فكان كتابا مفتوحا يدوس عليه بفظاظة حذاء عسكري غليظ!

وقد قادنا ذلك التصميم الصريح إلى المتاعب. فقد أصرت إدارة السجن على عدم تثبيت الكتاب المفتوح وفوقه حذاء عسكري، واعتبرت أن ذلك إهانة واضحة لا لبس فيها للضباط. وجرت اتصالات بين المرحوم زكي مراد من قيادة الحزب والإدارة. ورجاني زكي مراد ألا أستمر في تشكيل قدم العسكري. فطالبت كحل وسط أن تسمح لي الإدارة بإخراج نموذج مصغر للعمل من السجن ليظل عندي في البيت. وبالفعل أعطيت التمثال وكان من الطين الأسواني إلى ثريا في أول زيارة. وفيما بعد عملت له قالبا وأخرجت منه العديد من النسخ للأصدقاء. وهو يعمل حاليا كشمعدان لطيف؟!..

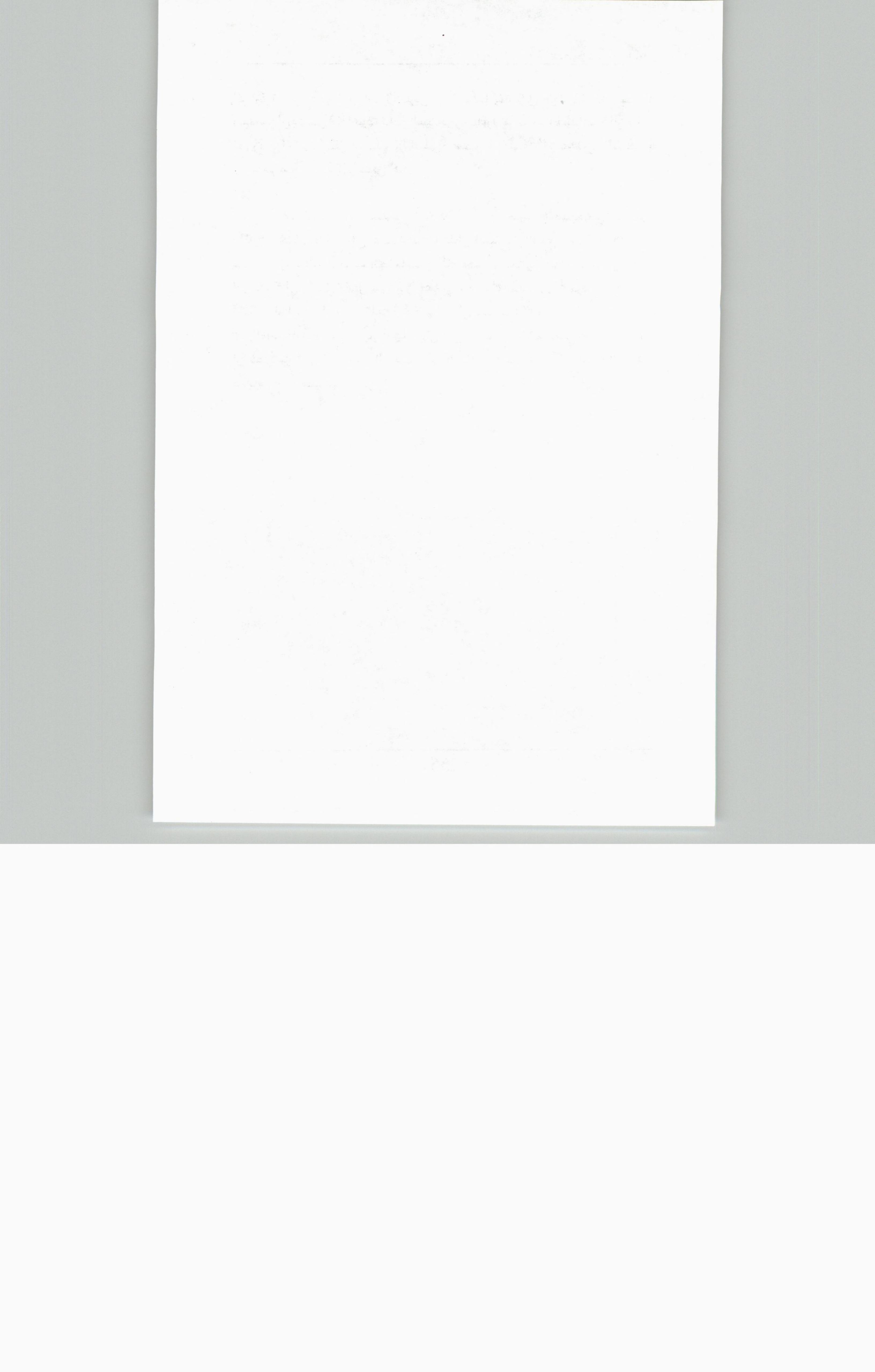


الرمز المرفوض من إدارة السجن

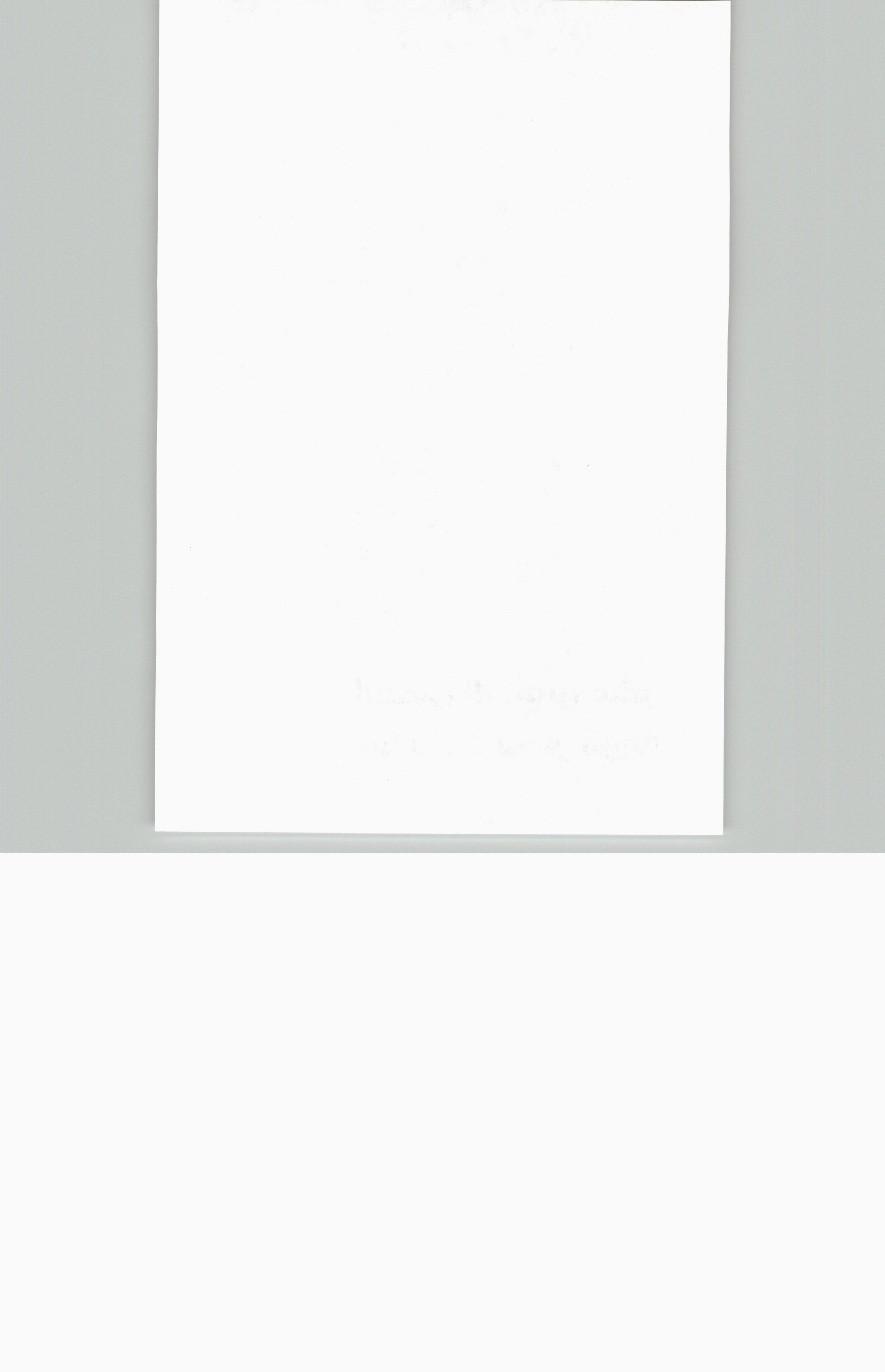
مرت قصة الحذاء والكتاب بسلام. أما موضوع المهرج فكان له دوي أكبر بكثير! ذلك أنه ما أن ارتفع تمثال المهرج وسط الفسقية بكرشه المدلاة وهو ينفخ في البوق حتى اكفهر الجو في السجن كله. وأخذت

الإدارة تغلق علينا أبواب الزنازين، وتعاملنا بشكل فظ لمدة أسبوع؟!.
وعلمنا أن بعض قادة مصلحة السجون جاءوا خصيصا لمشاهدة التمثال
ثم رفعوا تقريرا إلى مسئولين أعلى تضمن قولهم: "**إن مهرج النافورة
لا يشبه سيادة الرئيس**"!

عندما تمت محاكمتنا بتهمة «إحياء الحزب الشيوعي المصري
«قررت المحكمة الإفراج عنا جميعا. كان القاضي الذي يحاكمنا يدعى
عشماوي، فأثار اسمه القليل من الضحك والكثير من التشاؤم. إلا أن
الرجل كان والحق يقال من أبرز أعلام القضاء المصري المحترمين. كما أن
الحكم لنا بالبراءة في تلك القضية كان مفخرة للقضاء كله. وخرجت
في أواخر مايو من نفس العام من أبي زعبل تاركا خلفي النافورة بعد
أن تعرفت إلى السجن الوحيد في القاهرة الذي لم أكن قد نزلت في
ضيافته نصف عام تقريبا.



الفصل الخامس عشر
لما قامت مصر قومة



كشفت السنوات الأربع اللاحقة على حرب أكتوبر، أي ما بين 73 حتى 1977 عند وقوع هبة يناير الشعبية عن أن حرب أكتوبر انتزعت لمصر جزءا، لتنزع عنها الكثير. وقد عبر البعض عن ذلك المعنى ساخرين بقولهم «نخشى أن نسترد سيناء ونخسر مصر كلها». كانت تلك السنوات الأربع أعوام التحول الاقتصادي الكامل، واعتماد سياسة الانفتاح، رفعت خلالها الحراسات عن الأراضي الزراعية، وأخذ الملاك ينتزعون قطع الأرض من الفلاحين، وصدر قانون تنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر، وشهد عام 74 وحده - بعد سنة من الحرب - صدور 124 قانونا أدت إلى تغيير المسار الاقتصادي والاجتماعي العام للنظام، بفتحها الباب للامتيازات السياسية والجمركية والاقتصادية لرأس المال الأجنبي، وتحويل القطاع العام إلى قطاع خاص، والالتزام بتعليمات الصندوق والبنك الدوليين، وزيادة الضرائب غير المباشرة، وارتفاع معدل التضخم. وفي المقابل جرت انتفاضات وإضرابات عمالية في شبرا الخيمة، والمحلة، والإسكندرية، ومظاهرات في الجامعات. وكان لابد لهذا الانفتاح الذي التهم خبز الناس، وحقهم في العمل الكريم، والعلاج، والتعليم، أن يغطي نفسه بتعددية سياسية حزبية يلهي بها الناس والمثقفين. فأعلن السادات

في نهاية 1976 عن قيام ثلاثة منابر داخل الاتحاد الاشتراكي، أحدها يساري، والثاني يميني، والثالث وسط! وتحولت المنابر إلى أحزاب تتلقى دعما رسميا من الحكومة. وكان السخط يعم بين الناس وهم يشهدون هذا التراجع من العداء للاستعمار إلى قول السادات بأن 99 في المائة من الأوراق بيد أمريكا، ومن مساعي الثورة السابقة للتصنيع إلى بيع القطاع العام، ومن الضمانات التي وفرتها الثورة للشرائح الفقيرة إلى الجوع الصريح.

وفي مساء يوم 17 يناير 1977 أعلن عبد المنعم القيسوني رئيس المجموعة الاقتصادية بيان الموازنة العامة الذي تضمن قرارات برفع الدعم الحكومي عن أسعار بعض السلع الشعبية، وتم ذلك بحجة الارتفاع العالمي للأسعار، وعجز الميزانية الداخلي، وإن كان رفع الدعم قد تم في حقيقة الأمر استجابة لتوصيات صندوق النقد والبنك الدوليين. ونتيجة لذلك ارتفع سعر الشاي بنسبة 35 بالمائة، والسكر 25 في المائة، وارتفعت أسعار الخبز والبنزين وتعريفة التاكسي والمكرونة وأنبوبة البوتاجاز وغير ذلك. وبات الناس غير مصدقين، إلى أن صدرت صحف اليوم التالي 18 يناير تؤكد تلك القرارات.

وكانت البداية العفوية من عمال القطاع العام بشركة مصر للغزل والنسيج في حلوان، حين خرجوا حوالي الثامنة صباحا يحتجون، وخرج بعدهم طلاب الجامعات واتجهوا إلى مجلس الشعب، وانضم الناس إليهم في الشوارع، واندلعت الهتافات في كل ناحية في القاهرة:

- **بالطول بالعرض.. ح نجيب ممدوح الأرض**
- **مش كفاية لبسنا الخيش.. جايين ياخدوا رغيف العيش**
- **هو بيلبس آخر موضة.. واحنا بنسكن سبعة في أوضة**
- **فين الفطور.. يا بطل العبور؟**
- **الصهيوني على ترابي.. والمباحث على بابي.**
- **الإضراب مشروع.. ضد الفقر وضد الجوع!**

وانتقلت شرارة الهبة الشعبية من مدينة لأخرى، حتى عمت من الإسكندرية إلى أسوان. وهاجم المتظاهرون الغاضبون في مختلف المدن عددا من أقسام الشرطة واستراحات كبار المسئولين والملاهي الليلية، واشتبكوا مع قوات الشرطة في أكثر من مكان، ولم تتوقف المظاهرات

إلا حين أعلنت الحكومة إلغاء قرارات رفع الأسعار ظهر يوم 20يناير، وأعلنت حظر التجول لأول مرة منذ قيام ثورة يوليو، ونزلت قوات من الجيش والشرطة تسد شوارع المدن الكبرى بوجودها المكثف متأهبة لأي تحرك شعبي. وقال ممدوح سالم رئيس الوزراء أمام مجلس الشعب إن الهبة كانت "**مؤامرة سافرة للوثوب إلى الحكم عن طريق العنف وإنهاء ثورة 15مايو المجيدة.. ولعل خط سير الأحداث يكشف عن أن العناصر الشيوعية المنظمة..هدفها الانقضاض على الساحة الجماهيرية والسيطرة عليها**".

وهكذا وجدت الدولة في الشيوعيين مشجبا تعلق عليه كل أخطاء بل وجرائم ما سمي «تصحيح المسار الاقتصادي». وتقدمت مباحث أمن الدولة في 21يناير بمذكرة تحت عنوان:"**المخطط الشيوعي السري ومسئوليته عن أحداث الشغب الأخيرة**"

تتهم الحزب الشيوعي المصري، وحزب العمال الشيوعي، وحزب 8يناير، والتيار الثوري بالمسئولية عما جرى. واشتملت المذكرة على طلب بالقبض على المئات من اليساريين كان من بينهم نبيل الهلالي، وزكي مراد، ومحمود أمين العالم، ود. عبد المنعم تليمة، والشاعر أحمد فؤاد نجم، وغيرهم. وشملت حملة الاعتقال أربعمائة وخمسين اسما من الجنسين. وحين صدر الحكم في قضية هبة يناير الشعبية بتاريخ 19 أبريل 1980 جاء في نصه:

> "**إن المحكمة وقد سبق لها أن خلصت إلى أن أحداث 18-19يناير عام 1977 كانت نتيجة مباشرة لقرارات رفع الأسعار وحدثت بصورة تلقائية دون تحريض أو استغلال للموقف، كما أن أوراق الدعوى خلت تماما من أي دليل أو قرينة، بل إنه لم يضبط لدى أي منهم آلات أو أسلحة أو مفرقعات.. وترتيبا على كل ما سلف ذكره فإن الأساس**

الذي تقوم عليه كل من التهمتين الأولى والرابعة يكون قد انهار تماما".

ومرت هبة يناير لتؤكد شيئا واحدا: أن حركة الجماهير خلال تلك الهبة كانت انتفاضة عفوية من غير قيادة شعبية تلتحم بها، وتطورها، ولذلك لم يكن مستغربا وقد أحس النظام بضعف الحركة الجماهيرية مما دفع الرئيس أنور السادات بأن يقوم بزيارة للقدس في 9نوفمبر من نفس سنة 1977، بعد أن مهد للزيارة بحملة اعتقالات واسعة ليتمكن من الوقوف مطمئنا في الكنيست تحت الشعار الإسرائيلي الشهير «من النيل إلى الفرات». وأدت الزيارة المشئومة لتوقيع اتفاقيات كامب ديفيد في 17سبتمبر 1978 والمعاهدة المصرية الإسرائيلية في 26 مارس 1979. والآن بعد مرور أكثر من ربع القرن على اتفاقية ومعاهدة «السلام» لا نرى سوى المزيد من حرب الإبادة اليومية للشعب الفلسطيني، والتهديد المستمر لسوريا، واجتياح وغارات على لبنان، ومشاركة إسرائيلية بمختلف الصور في العدوان على العراق، هذا مع استمرار الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين ومناطق من جنوب لبنان ومرتفعات الجولان السورية. أما عن سيناء التي «رجعت كاملة لينا» في الأغاني الإذاعية فإن الاتفاقية والمعاهدة أجبرت مصر على القبول بمناطق مساحتها حوالي ربع سيناء منزوعة السلاح دون وجود مقابل مماثل في أرض إسرائيل، وأجبرتنا على القبول بقوات للأمم المتحدة (أمريكية في واقع الأمر) في سيناء لا نستطيع إخراجها من غير موافقة مجلس الأمن، ومناطق منزوعة السلاح تماما.

وأخرى بها حرس حدود فقط، من دون أي وجود لقوات مسلحة مصرية إلا على خط المضايق، وهي قوات محدودة لا يمكن زيادتها، بينما لا تنطبق إجراءات تقييد التسليح على الجانب الإسرائيلي سوى على شريط رمزي لا يتعدى عرضه ثلاثة كيلومترات. أيضا تحظر الاتفاقية على مصر استخدام مطارات سيناء إلا في الأغراض المدنية. وبذلك أصبح من العسير أن ندافع عن حدودنا، بينما يمكن لإسرائيل أن تجتاح

سيناء حتى المضايق دون مقاومة. وربطت المعاهدة والاتفاقية سيئة الصيت عملية السلام بإقامة علاقات دبلوماسية وتجارية واقتصادية وثقافية مشتركة! وهكذا أصبح علينا أن نقوم بتطبيع لعلاقات غير طبيعية تحت تهديد السلاح!

في هذه الفترة عقد الحزب الشيوعي المصري مؤتمره الأول. وكنت عضوا في المكتب السياسي، ومسئول المالية في ذات الوقت. وكنت أتردد في صرف أية مبالغ تضاف إلى قيمة راتب المحترف السياسي، إلا على ضوء واقع الاحتياجات، وتقدم العمل. وقد تسبب ذلك الحرص في إثارة بعض الرفاق ضدي. وفي المؤتمر الثاني للحزب عام 1984 وصل الأمر حد التآمر لنزعي من موقعي في الحزب. ووجدت نفسي مضطرا لتقديم تقرير مالي للقيادة عرض على المؤتمر، وضحت فيه الفرق الشاسع بين المصاريف الفعلية لرفاقنا من المحترفين، والمصاريف التي يطلبونها. حين أطلق المرحوم الأستاذ/ نبيل الهلالي تهكما عليهم اسم «المغترفين» ومع ذلك تشكلت لجنة مركزية جديدة من دوني، وفي اليوم التالي على تشكيلها جاءني الزميل مبارك عبده فضل ليستلم المالية مني، وسلمت للأستاذ/ رفعت السعيد الذي صعد وقتها للمكتب السياسي.

وحين سئل مبارك فيما بعد في تحقيق أجري معه عن سبب التآمر على شخصي قال صراحة: "**لأنه كان مقترا على المحترفين**"!

ومع ذلك فإن تلك المشكلات التي تبرز في سياق العمل لم تعرقل بلورة الحزب لمواقف نضالية للخروج بمصر من أزمتها. فقد أشارت وثائق المؤتمر الأول للحزب إلى أن حل أزمة المنطقة: «لن يتأتى من خلال النهج الاستسلامي الساداتي، أو بواسطة الصفقات الانفرادية المشبوهة، أو عبر الحلول الإمبريالية الصهيونية جزئية كانت أم شاملة.. أو بالتشبث بحلول عرجاء تجاوزتها الأحداث مثل القرار 242 الذي اعترفت غالبية المجتمع الدولي بقصوره». وكان موقفنا المتشدد من معاهدة السلام سببا لوفاة رفيقنا عضو المكتب السياسي زكي مراد بصورة مريبة.

فقد طلب الرئيس أنور السادات من الأستاذ أحمد حمروش أن يقوم بدور الوسيط فيرتب لعقد لقاء بين السادات وزكي مراد للحديث حول الموقف السياسي والمعاهدة. إلا أن زكي مراد رفض اللقاء، ووبخ الأستاذ أحمد حمروش بعنف على وساطة من هذا النوع. ولم يمض وقت على ذلك حتى فوجئنا في يوم 18 ديسمبر بوفاته في حادثة سيارة على الطريق الزراعي بالقرب من إيتاى البارود في 18 ديسمبر 1979.

وكلفني الحزب وقتها بمعاينة ظروف الحادث بعد أربع ساعات من وقوعه، وبعد أن عاينت المكان قدمت المذكرة التالية للحزب:

"ملاحظات على حادثة مقتل الرفيق زكي مراد.

ديسمبر 1979

في أواخر 1979 طلب الرئيس أنور السادات عن طريق الأستاذ أحمد حمروش عقد لقاء مع زكي مراد عضو المكتب السياسي في الحزب الشيوعي المصري لشرح الموقف من التفاهم مع إسرائيل وطلب تأييد الحزب الشيوعي لذلك.

لكن الرفيق زكي مراد رفض اللقاء، ووبخ بعنف الصديق المشترك لمحاولة الوساطة تلك، موضحا أن الاستسلام لإسرائيل أمر لا يحتمل الحوار. ولهذا أتصور أنه قد تم التخلص من زكي مراد في الظروف التالية:

- في يوم 18 ديسمبر 1979 استقل زكي مراد سيارته متجها إلى الإسكندرية، وكان يحمل في حافظة أوراقه الخاصة التقرير السياسي الصادر عن الحزب بشأن الموقف من معاهدة السلام.

- حسب رواية شهود عيان، فإن سيارة مجهولة على الطريق الزراعي بالقرب من إيتاى البارود أسرعت عن يمين سيارة زكي مراد ودفعتها دفعا للانحراف يسارا لكي

تتخطى الجزيرة الوسطى من الشارع وتصطدم بسيارة نقل قادمة من الاتجاه المضاد.

- وقد قمت بتكليف من الحزب بعد أقل من أربع ساعات من الحادث بمعاينة على الطبيعة فوجدت أنه قد عبث في حافظة أوراق الفقيد، ولاحظت أن كل ما بها سليم باستثناء ذلك التقرير السياسي الذي اختفى، وأتصور أن ركاب السيارة المجهولة قد أخذوه.

- اتضح لي كل ما سبق من المعاينة، وقياس آثار فرامل سيارة زكي مراد على أرض الطريق، والسيارة النقل التي اشتركت في الحادث.

- مرفق مع التقرير: صورة محضر البوليس عدد سبع أوراق

- توضيح كروكي لموقع الحادث من ورقة واحدة – عدد خمس صور فوتوغرافية حول الموقع.

وأظن أن هذا التقرير محفوظ في أوراق لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية حتى سنة 1965 «بمركز البحوث العربية».

ومن النوادر المضحكة ولكنه ضحك كالبكاء أنني كنت مع أسرتي في المصيف نفس العام، وحين رجعت إلى القاهرة وفتحت باب الشقة مع ثريا ونحن نجرجر حقائبنا، ألجمتنا المفاجأة، فقد شاهدنا كل شيء مبعثرا، كأن مجموعة من اللصوص قد سطت على المكان. تفحصنا الصالة والغرف، فلم نجد شيئا ناقصا. ماذا جرى؟. سرعان ما هبط أخي الأكبر فؤاد حبشي من شقته التي تعلو شقتنا مباشرة، وكنا عادة نترك له نسخة من مفتاح المسكن، ورحب فؤاد بسلامة عودتنا بلهوجة وهو يجول بعينيه في الشقة مرتبكا، ثم قال لا فض فوه: **"منذ أيام سمعت طرقا شديدا على باب شقتكم، ونزلت فوجدت حشدا من الضباط والمخبرين يريدون دخول الشقة لتفتيشها، وتفاديا للبهدلة.. فتحتها لهم"!**

وهنا فقط انتبهت إلى صفوف الكتب التي اختفت من أرفف المكتبة. عشرات من الكتب أخذوها دون تمييز. من باب الأنية لا أكثر.

فيما بعد علمت أن من بين المضبوطات التي وجدتها المباحث العامة عندي في البيت خطابا من ابني ممدوح حبشي وكان يدرس بألمانيا الغربية حينذاك مرفقا به مبلغ مائتي مارك ألماني - أي ما يعادل ثمانين جنيها مصريا في حينه- يتبرع به ممدوح للشيخ إمام الذي لم يكن له مصدر دخل ثابت سوى تبرعات المعجبين بأغنياته السياسية. المشكلة أن عريضة الاتهام التي وجهت إلي اعتبرت أن الثمانين جنيها تلك تمويل من الخارج للحزب الشيوعي المصري!

كان ابني حسام يقف معي في صالة الشقة التي بدت كأن عاصفة من التتار قد عبرتها. فقال لي:

- **لازم تتصرف بسرعة؟**

فكرت قليلا. وقررت أن أغادر المنزل بأسرع ما يمكن. واتجهت مع حسام إلى بيت أحد الأصدقاء الكرام الأستاذ: عماد عطية في الهرم. وشرحت له الوضع. فرحب الرجل بشهامة باستضافتي إلى أن تمر الأزمة. وأراني غرفة داخلية بالمنزل وقال لي: ستسكن هنا. سألني حسام: هل تحتاج شيئا آخر؟. قلت له: كلا. ونظرت لحسام. عانقته. وقلت له:

- **الحمد لله أنتم الآن كبار وتفهمون ما يحدث.**

خرج حسام. ولزمت الغرفة لا أغادرها إلا للضرورة القصوى. ولا أتحرك فيها إلا بهدوء. وكنت لا أطل حتى من نوافذها. هكذا أمضيت نحو شهر من الزمن لا أفعل شيئا سوى القراءة والتأمل محدقا في مستقبل مبهم.

في ذلك الوقت لم تكن البلاد محكومة عرفيا كما هي الحال الآن. وكانت النيابة تتمتع ببعض الحريات والصلاحيات. ولذلك أمرت حين عرضت قضيتنا أمامها بالإفراج عن جميع من قبض عليهم. وترددت في اتخاذ القرار

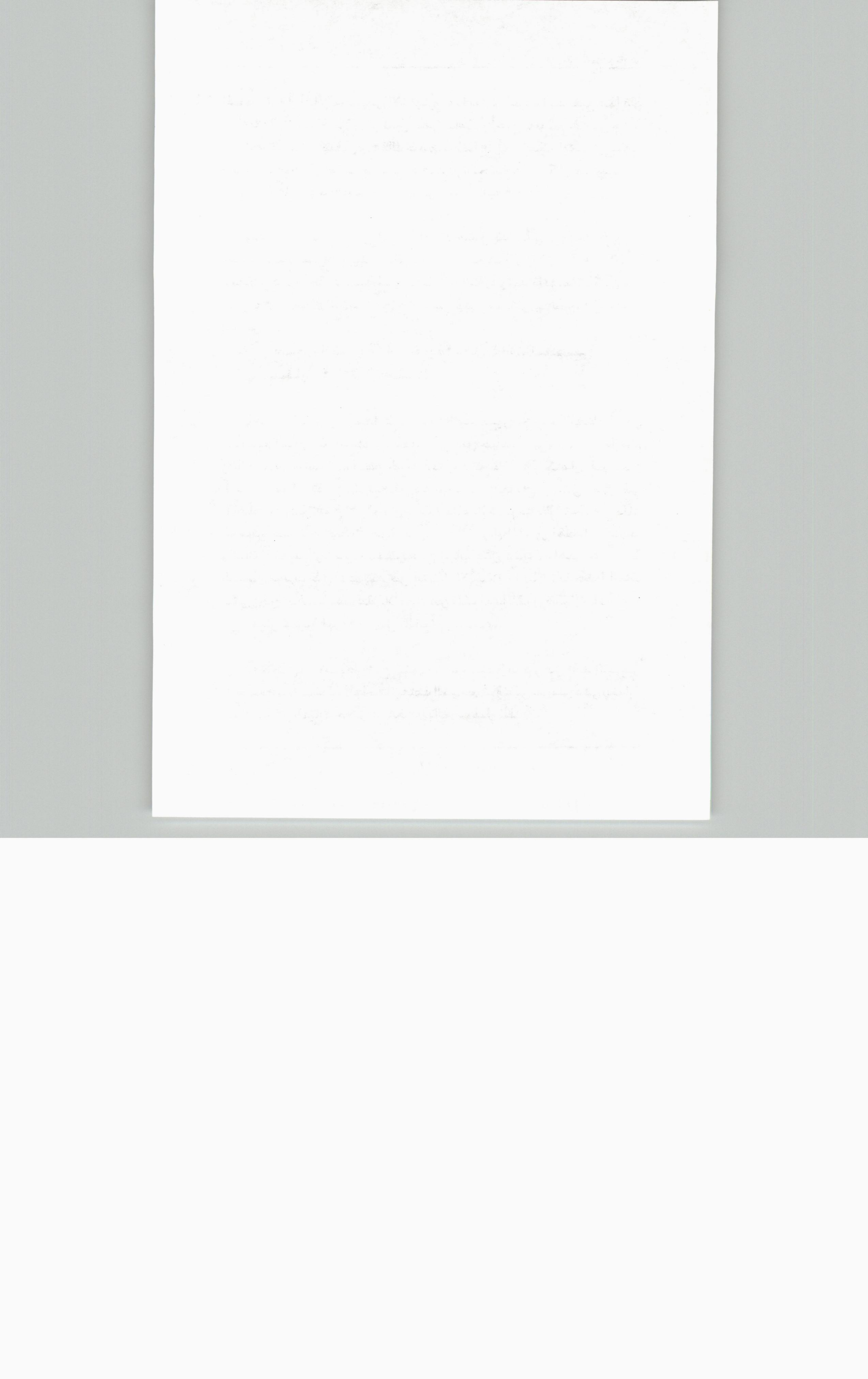
المناسب: هل أغادر محبسي الاختياري هذا دون أن أعبأ بما قد يتبع هذا من عواقب؟ أم أنتظر قليلا حتى تبين الأمور تماما؟ أو أخرج وأسلم نفسي لجهة الاختصاص على أساس أن هناك حكما بالإفراج؟. بعد تفكير ومشاورات مع الأصدقاء قررت أن أسلم نفسي خاصة أن شحاتة هارون كان قد سبقني لنفس الخطوة، وأفرج عنه مباشرة من مبني النيابة.

ودعت صديقي الذي استضافني، وشكرته على موقفه النبيل، وجمعت ملابسي القليلة وغادرت البيت متجها إلى مقر سلطات الأمن متصورا بسذاجة عجيبة أنني بعد إجراءات روتينية تافهة سأكون في بيتي مع ثريا والأولاد. لكنهم وضعوني فيما يسمى بـ«سجن التجربة بليمان طرة»!

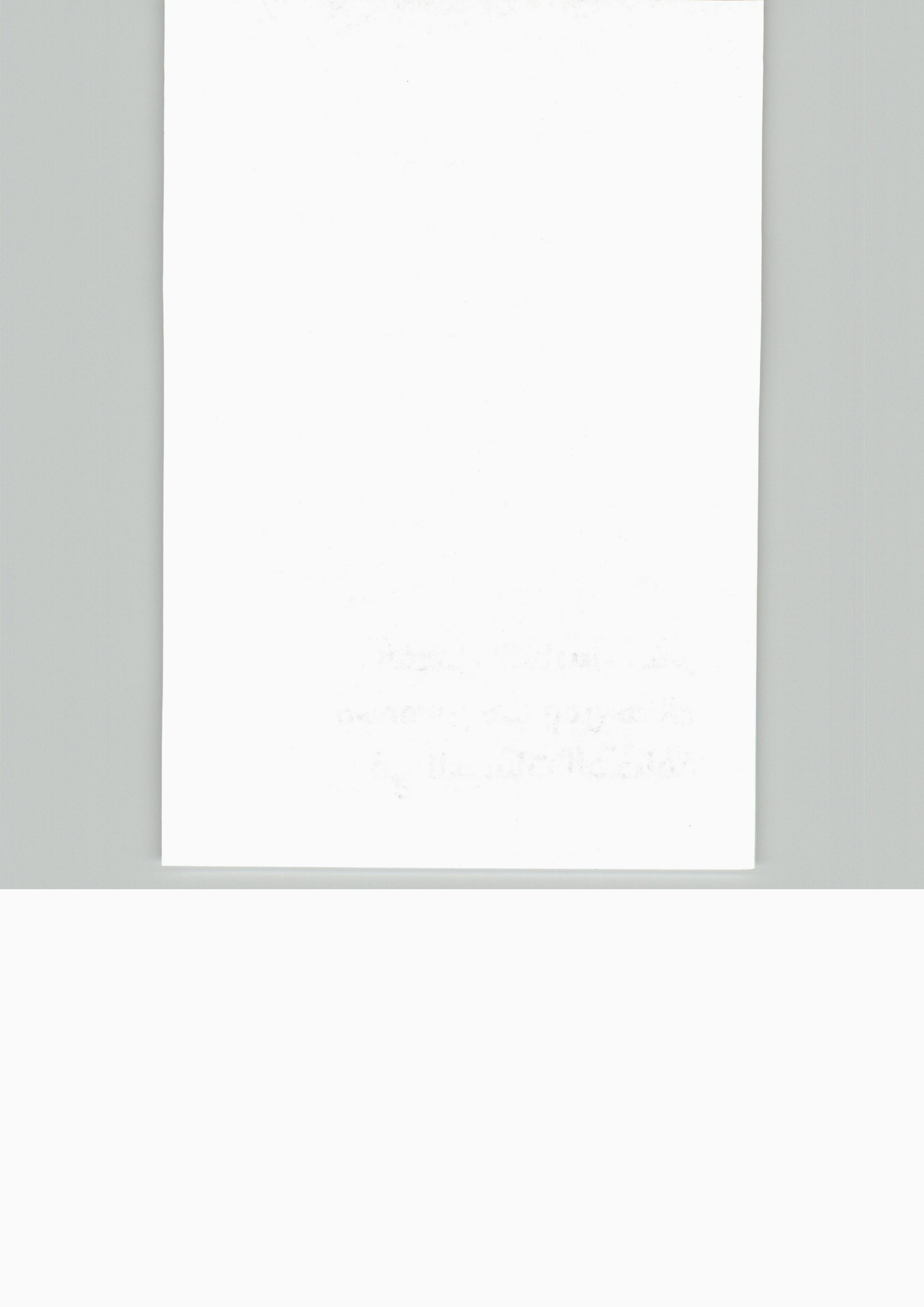
سجن التجربة؟ أية تجربة؟ وهل كانت تنقصني التجارب في مثل سني؟!

وجدت السجن بشعا لا يرسلون إليه سوى المجرمين العتاة الذين أصابهم اليأس من الحياة فأقدموا على قتل حراسهم، أو ذبحوا ضابطا، وما شابه. ووسط أولئك الجناة قضيت نحو شهر كامل، لم تكن الزنازين خلاله تفتح إلا لدقائق معدودة في الصباح ودقائق أخرى في المساء. وكيف تفتح لأكثر من ذلك لعتاة الإجرام وعمالقته؟. في تلك الدقائق كنا نجري لنفرغ جردل بول، أو نملأ جردل الماء، أو لقضاء الحاجة. وكنت أقبع في زنزانتي منتظرا فتح الباب مثل عداء متأهب على خط السباق توترت كل عضلاته في انتظار الانطلاق. فما أن يفتحوا الباب حتى أجري بأقصى سرعة للانتهاء من تلك المهام قبل صفارة التمام. و في أحيان كثيرة لم أكن ألحق بالقيام ببعضها.

بعد شهر بالضبط أفرج عني، وكانت مدة الشهر هي الحد الأقصى المسموح به لسلطة المباحث العامة التي لم تجرؤ على عرضي على النيابة حينذاك، لأن النيابة حكمت بالفعل بالبراءة قبل ذلك.



الفصل السادس عشر
وجوه من هنا ومن هناك
في الحبسات المختلفة



ثمة وجوه لا أنساها في فترات الحبس المختلفة من مدنيين فقدوا حريتهم معي أو عسكريين قاموا بحراستنا وسأبدأ بالمعتقلين أو المحبوسين ففي سجن القناطر كان من بينهما الفنان التشكيلي صفوت عباس الذي التقيت به خلال انتظاري لإعادة محاكمتي ولا أنساه. وكان محبوسا تحت ذمة التحقيق في إحدى القضايا الشيوعية بنفس السجن. التقيت به وتصادقنا أثناء قيامي بتصميم فيلا لمدير السجن أيامها العقيد عباس قطب. وطلبت منه تصميم رسم لشباك سلم الفيلا من الزجاج المعشق بالرصاص. فاستطاع بخيال الفنان وحرفية الصانع أن يقدم لي تصميما يصلح لسلم الفيلا وهي من طابقين. ويصلح امتداده لطابق ثالث دون إخلال بالتصميم الأصلي إذا تم تعلية الفيلا طابقا آخر. ومازلت أحتفظ إلى الآن بنموذج مصغر لذلك التصميم يجدد في نفسي ذكرى ذلك الفنان العظيم الذي يطيب لي أن أتابع معارضه الفنية من وقت لآخر.

ولا يفوتني هنا أن أذكر أخاه الأكبر محمد عباس أحد قادة "حدتو" الأوائل. وطالما اختلفت معه في آرائه السياسية. لكن ذلك لم يقف حجر عثرة في طريق صداقتنا حتى آخر أيام حياته حين اختطفه الموت مبكرا. وله أخ ثالث هو المحاسب مصطفى عباس وقد أعتقلوا ثلاثتهم في وقت واحد؟!..

وجه آخر من القناطر هو الرفيق صابر زايد. وهو عامل بسيط من أسرة فقيرة بمنطقة سيدي جابر بالإسكندرية. عام 1946 كان نقابيا بارزا في حركة عمال النسيج. أعتقل بعد إعلان الأحكام العرفية عقب حرب فلسطين سنة 48. ومر بسجون مصر بدءا من أبي قير.

والهايكستب، وجبل الطور، والنزهة. شارك في الكفاح المسلح في منطقة القناة، وشكل كتيبة مقاومة مع زملائه في الإسكندرية التي قدمت شهيدا في ذلك الوقت هو عباس الأعصر. وكان يحلو لصابر زايد أن ينادي الأصدقاء بلفظة «يا رفيق». وكان نموذجا في التفاني والشعور بالمسئولية وإنكار الذات. وكان يتقن العمل اليدوي الدقيق الذي يحتاج إلى صبر طويل. استعنت بعدد من الزملاء ومعهم عم صابر كما كنت أناديه في عمل نموذج خشبي لفيلا عباس قطب ونفذه من الخشب الأبلاكاش، وكان خلال ذلك يتقبل بصدر رحب كل ملاحظاتي وانتقاداتي المتواصلة دون أن يتذمر أو يبدي ضيقه. وخرج «النموذج» بشكل ممتاز، وقمنا بإضاءته من الداخل، فبهر به قائد السجن حتى أنه أرسله للعرض في مدخل مصلحة السجون ونال عنه التقدير والشكر (مع أننا نحن الذين صنعناه)!

كان معنا وجه آخر، شخص يدعى ضياء. ضياء ماذا؟ لا أذكر للأسف الشديد، رغم أنه كان عزيزا علي، وكان رساما فنانا من أولئك الذين جرفهم نهر الحلم بمجتمع عادل. وكان يحلو له أن يصعد إلى أعلى درجات العنبر في الطابق الثامن صارخا بأعلى صوته: «أنا مجنون.. مجنون»!. بالطبع لم يكن مجنونا، لكن تلك كانت وسيلته للدفاع عن نفسه بتخويف الآخرين منه. دعاني ذات ليلة لكي يرسم لي «بورتريه» على قطعة خشب أبلاكاش،مازلت أحتفظ بها.



صورة البورتريه على خشب الأبلاكاش ومكان تهريب الخطاب

وعندما انتهى ضياء من الرسم شكرته، وتناولت القطعة باعتزاز وتقدير. ولكني وأنا في طريقي إلى العنبر أخذت أفكر في ثريا والأولاد. كنت في ذلك الوقت قد أنجبت ابني الأول ممدوح عام 1951، والثاني حسام في 1953. وبطبيعة الحال كان الوضع يختلف عما كان عليه في فترة اعتقالي في جبل الطور.

فالأولاد يشغلون النفس والعقل بقوة. رحت أتذكر مداعباتهم وشقاواتهم، وكيف ينادي حسام عمه فهيم بقوله «عمي إيم» فيزداد شوقي لبراءة الطفولة. وقررت أن أكتب خطابا لثريا. كان بيدي «البورتريه» ففكرت في استغلاله في تهريب الرسالة. جلست في العنبر وعلى ورق لف السجائر (ورق البفرة) كتبت لثريا:

"حبيبتي ثريا..أكتب لك هذه الرسالة بشعور كبير بالحرية، وأن أحدا لن ينظر في مشاعري وعواطفي تجاهك. أود الآن أن أتكلم معك كثيرا. وأسألك لماذا لم تبدئي خطابك الأخير لي بلغتك الحلوة القديمة؟ بكلمتك التي طالما هزتني فيما مضى "حبيبي"؟ حيث يبدأ خطابك بعزيزي فقط؟ على أية حال لقد فرحت بعد السطر العاشر حين عادت كلمتك ترن في أذني من جديد وتسكن مكانها المحفوظ. وقد جرت الدموع من عيني وأنا أطالع مشاعرك الفياضة وعواطفك المرهفة. كتبت لك خطابا مطولا الأسبوع الماضي من اثنتي عشرة صفحة، ولكني اضطررت لإعدامه في حملة تفتيش طارئة. لكني أعدك بالكتابة كثيرا كلما توفرت لي الوسائل. فالحبر عندنا بالنقطة، والورق الأبيض في ندرة أوراق البنكنوت عندكم، فأرجوك إذا كتبتي لي أن ترفقي بكل خطاب ورقة أو اثنتين بيضاء لأكتب لك فيهما الرد. حبيبتي.. كيف صحة الأولاد؟ سأكتفي اليوم بوصف المنغصات الأساسية هنا وهي الناموس

والذباب الذي أصبحت مطاردته مشكلة، فأرجو أن ترسلي لي ثلاثة أو أربعة أمتار قماش لتغطية فتحة الشباك اللعين. قبلاتي لك وللأولاد. وأنا على ثقة أنك لست في حاجة لكي أوصيك بهم، فلا تعامليهم إلا بكل صدق وعرفيهم بكل ما يحيطهم من أمور لم يكن آباؤنا يهتمون بشرحها لنا. وتذكري دائما أننا هنا من أجلهم ومن أجل مستقبلهم. فوزي».

انتهيت من الخطاب وأمسكت بالبورتريه الأبلاكاش. كان خشب الأبلاكاش مكونا من ثلاث أو أربع طبقات ملتصقة ببعضها بالغراء المضغوط. ورحت أنزع طبقة كاملة من ظهر البورتريه، ثم حفرت في الطبقتين الأخريين تجويفا يتسع للرسائل. وأخيرا أعدت لصق الطبقة المنزوعة. واتجهت لأرسل البورتريه مع خطاب اعتيادي، ومرت عواطفي المهربة من تحت أعين إدارة المعتقل، كما يتسرب الضوء عبر القضبان. في الليل كنت أفكر في أنني نجحت في خداع الظلم والقسوة، وأنني مازلت حيا، ومازال حبي لأولادي وزوجتي والحياة قويا. جلست بهذا التفاؤل، وتناولت كتابا من مؤلفات لينين المهربة على ورق البفرة، وغمرت قطعة صغيرة من القطن في الزيت، وأشعلتها. ذلك كان نور السجون. وكنا نقتطع ساعات ذلك النور من طعامنا. فقد كان المصدر الوحيد للزيت هو وجبة الفول الصباحية، منها نوفر الزيت للقراءة.

كان الصمت يعم من حولي، وأنا أقرأ لينين. الآن أفكر أنني ربما لم أكن أقرأه هو، لكني على الأغلب كنت أقرأ أحلامي لبلادي، وأقرأ أمنية أجيال متوالية في أن تصبح مصر وطنا للحرية والكرامة والعدل. الأجيال التي لا ينقطع تطلعها إلى الغد: ها أنا معتقل عام 1954. وبعد نحو ثلاثين عاما سيعتقلون ابني المهندس ممدوح على ذات الطريق، وبعد خمسين عاما من اعتقالي ستجتاح إسرائيل جنين، فتقف حفيدتي نورا الرقيقة وترفع علم فلسطين في مسرحية طلابية بالجامعة الأمريكية، فأجلس

في الصفوف الأمامية أشاهدها وأحس كأنها تقول لي: يا جدي هناك نهر للأحلام يتدفق، تعبره سفن الآباء والأبناء والأحفاد المتمردين الباحثين عن الحرية. نهر يا جدي يمضي، موجة تدفع موجة، وفي كل موجة قطرات من روح الأولين.

يسود الصمت طوابق السجن إلا من سعلة هنا أو هناك، وصوت دبيب خطوات حارس. أفكر أن عمري لم يضع هباء. أنفخ في شعلة القطن المغمورة في الزيت وأطفئها، فتعم الظلمة حولي، ومع ذلك أحس أنني لست وحدي، هناك من بعدي أبنائي، وأبناء آخرين.

استيقظت صباح اليوم التالي، على صوت زاعق بأن العقيد عباس قطب يمر على العنابر. من المؤسف أن السجن ليس كله صابر زايد. في السجن أيضا كل هذا الناموس والذباب والبرد والجوع أحيانا. في القناطر كان هناك ثلاثة ضباط تولوا حراستنا وأداروا شئون المعتقل: أولهم العقيد قطب، نموذج حي للانتهازية الرخيصة التي لا تتعفف عن شيء. حين وقعت في دائرة اختصاصه وعلم أنني مهندس معماري، انقلب وجهه المترفع إلى بسمة متزلفة، وأخذ يتقرب مني ويتلاطف معي كلما وجد مناسبة لذلك.

في أبريل 1955 أبلغتني ثريا بوفاة أخي الأصغر فهيم حبشي. وطلبت من الإدارة أن تسمح لي بالاتصال الهاتفي بالنيابة لعلها تمكنني من تشييع جنازة أخي. لكنهم اعتذروا بأن التعليمات لا تسمح بإجراء أي اتصال. تمنيت لو كنت مع ثريا وعائلتي لأخفف عنهم وقع ذلك الموت الفاجع. قصف لنا غصنين اثنين في الأسرة وهما في عنفوان الشباب: أختي فيكتوريا التي توفيت عن ستة وعشرين عاما، وفهيم وهو في عامه التاسع والعشرين. ذهب فهيم وكان عندي في زيارة يوم الأحد السابق ممتلئا بالصحة. اختطفه الموت في 36 ساعة دون أن يتمكن العلم من إنقاذه، ليس لعجز العلم، ولكن لأننا بلد متخلف. وطنت في أذني كلمة «إيم» التي اخترعها صغيرنا حسام ينادي بها عمه وهو يجري نحوه فاتحا له ذراعيه، فوجدت دموعي تنهمر بلا توقف. وجاءني العقيد

عباس قطب وتقدم لي بأحر تعازيه كما ينبغي في تلك الحالات. ثم أمر بنقلي إلى زنزانة مستقلة ووضع فيها سريرا ومرتبة، بعد أن كنت أنام في زنزانة مشتركة مع سبعة أنفار على البرش. وبعد أيام فوجئت به يأمر بإدخال منضدة لي، وتوصيل الكهرباء إلى الزنزانة. كنت أنظر إلى ما حولي فأجدني مقارنة بوضعي السابق كأني في فندق خمسة نجوم. وداخلني الشك والريبة وتساءلت: وما الذي جعلهم يهتمون بي هكذا؟. ولم ينقض يوم إلا واتضح السبب. فقد جاءني العقيد عباس يطلب مني على استحياء (نعم على ذلك الاستحياء المصطنع) أن أضع له تصميم فيلا يريد بناءها على قطعة أرض يملكها في الدلتا. وهكذا سمح أن تأتيني من المنزل في إحدى الزيارات جميع أدوات الرسم الهندسي والأوراق والمراجع وغير ذلك! سبحان الله! قطعة ورق صغيرة لخطاب لزوجتي كانت ممنوعة منعا صارما، الآن الكهرباء والنور والكتب والأوراق وكل ما تريد! لقد انفصل السجان قليلا عن جدران السجن، حركته أطماعه، وسعى نحو مصلحته الشخصية. هذا العقيد ذاته، كشف عن نفسه في ظروف مختلفة بشكل آخر. إذ تشاء الصدف خلال اعتقالي عام 1959، واعتقال ثريا في سجن النساء أن يكون هو مدير المنطقة كلها بما فيها سجن النساء. في حينه أذاع الراديو تصريحا أدلى به الرئيس جمال عبد الناصر للصحفي الهندي كارانجيا. وجاء في تصريح عبد الناصر قوله:» ليس لدي أي معتقل سياسي». فقامت المعتقلات ومعهن ثريا شاكر زوجتي بالاعتصام في غرفة رئيس الحرس بالسجن يطالبن بالإفراج عنهن. ووجهن سؤالا إلى العقيد عباس مدير السجن: ما هو وضعنا مادام رئيس الدولة لا يعترف بوجود معتقلين سياسيين لديه؟ هل نحن في عداد الموتى؟. وكان رده الوحيد أن استدعى أضعاف عددهن من السجينات في قضايا المخدرات والبغاء فأشبعن المعتقلات السياسيات ضربا وحشيا، لدرجة أن إحداهن كسرت ذراعها ووضعت فيما بعد في الجبس!. كان هذا العقيد الذي تبسم لي متلطفا بأدب ذات يوم، هو ذاته الذي وقف يتشفى في سيدات مصر وبناتها وهن يضربن بوحشية لمجرد أنهن تجرأن على السؤال عن حياتهن!

الضابط الثاني في القناطر كان: **اليوزباشي حسن منير**. أبيض بدين. صوته ناعم كفحيح الأفعى، يضع على عينيه نظارة سوداء، ولا يخلع الكاب عن رأسه. في أعماقه كان هذا الشاب المخنث نموذجا للمرضى ممن يشفون غليلهم بالتعذيب والقسوة. كان نقيب سجن الرجال في القناطر. تودد للشيوعيين لأنه رأى فيهم أناسا أرفع منه ثقافة، وخلقا، ويتعاملون مع الجميع بندية واحترام سواء أكانوا من المساجين الاعتياديين أم من كبار الضباط. جاءني مرة يعرض خدماته، وكنت بحاجة لأن أوصل إلى البيت شيكا بنكيا يحمل توقيعي لصرف راتبي. فطلبت منه القيام بهذه المهمة. فنظر إلى الشيك بسخرية، قائلا: "**لكنك لم تشطب على لفظ لحامله، وإذن يحق لي الآن صرف الشيك**"

نظرت إليه وقلت لنفسي: الأوغاد فقط هم الذين يعتبرون هموم الآخرين مادة للسخرية. تذكرت بيت شعر لبابلو نيرودا يقول فيه: "**الخائن مكتوب في عينيه متى يخون**"

وقلت لنفسي: الوغد أيضا مكتوب في عينيه متى يكشف عن ذاته. وقد أثبتت الأيام ظني. وقد علمنا فيما بعد أنه أرسل في بعثة إلى أمريكا بين سنة 1954، 1959ترقى حسن منير وأصبح رائد مأمور عام 1959 وعمره خمس وثلاثون سنة، وصار مسئولا عن سجن أبي زعبل الذي نقلت إليه صفوة اليساريين وكبار المثقفين وأساتذة الجامعات ومنهم: د. لويس عوض، ود. عبد العظيم أنيس، ود. عبد الرازق حسن، والشاعر فؤاد حداد، والرسام زهدي، والفنان التشكيلي حسن فؤاد، وغيرهم. وهناك ظهرت من جديد دناءة تلك السخرية التي لازمته، فكان يكلف نخبة العقول والعلم بأعمال مذلة مثل تنظيف الباكابورتات، ونقل الأحجار الضخمة، بل وتنقية رمال أرض المعتقل من الحصى والحجارة! ويقول لهم في سخرية شامتة مخنثة: "**كل صنعة من دول ح تنفعكم بعدين يا أولاد**"!.

وهنا أذكر نقاشا دار بيني وبين رفعت السعيد أوائل السبعينيات حين تم تصعيد رفعت إلى المكتب السياسي للحزب الشيوعي المصري ولم يكن قد حصل بعد على درجة الدكتوراه من ألمانيا الشرقية. في ذلك الوقت جاءنا رفعت فخورا بأحد أعماله السياسية وهو كتيب أسماه» الجريمة» تناول فيه واقعة قتل الشهيد: شهدي عطية الشافعي على بوابة سجن أبي زعبل وقصة ذلك الضابط حسن منير. ولم يخرج الكتيب عن نص محضر البوليس الذي سجل فيه حسن منير كيف اعتدى المعتقلون الشيوعيون عليه فكسرت ذراعه ووضعت في الجبس(!). وتم تصوير الأمر وكأن المسألة مجرد معركة قامت بين الشيوعيين وحراس المعتقل، مات فيها شيوعي. وكسرت ذراع ضابط! وضاع من الموضوع أن الهدف السياسي من التعذيب الوحشي كان تصفية قوى النضال اليساري سياسيا وفكريا وتنظيميا بخطة متكاملة. وفي الكتيب جاء نص كلام النقيب يونس مرعي كالتالي: "**إحنا لم نعتدي عليهم إلا لما امتنعوا عن دخول السجن، وكانوا يهتفوا هتافات عدائية ضد الدولة وضد الرئيس عبد الناصر والمأمور نصحهم مرارا ما سمعوش كلامه، وعندما وصلنا بجوار الأوردي وقف المعتقلون وحاولنا إقناعهم بالسكوت، أما المأمور فسحبوه وسطهم واعتدوا عليه، واضطرينا إلى ضربهم علشان ننقذه ودفاعا عن أنفسنا**". وهاجمت هذا المنحى في الكتيب بشدة في اجتماع حزبي وقلت:**إنها جريمة أن تسجل هذه المأساة بالصورة التي جاءت بها في الكتيب.**

وكان الأحرى برفعت السعيد أن يسجل تاريخ حسن منير وتطوره من ضابط صغير سنة 1955، إلى قائد معتقل عام 1959، ثم إرساله في بعثة تدريب في أمريكا، ليعود مجرما قاتلا متعطشا للدماء. كان ينبغي أن يكون الكتيب محملا بروح الإدانة للتعذيب والقتل الذي خيم على مصر في تلك السنوات، إلى درجة أن أسرة شهدي عطية لجأت

في نعيها إلى التلميح إلى قصة مصرعه والرمز بذلك فنشرت في 20يونيو 1960: "**عطية الشافعي وأسرته ينعون عزيزهم فخر الشباب شهدي عطية الشافعي:**

فتى مات بعد الطعن والضرب ميتة..

تقوم مقام النصر إن فاته النصر" !

هذه قصة الضابط حسن منير، الأبيض البدين، ذي العينين اللامعتين بالقسوة، والقلب الذي لا يرتوي إلا من تعذيب البشر. كيف تتكون مثل هذه النماذج المريضة؟ وكيف تتربى؟ وفي أية بيئة تنشأ؟ وكيف يبررون لأنفسهم وهم في بيوتهم مع صغارهم ما فعلوه طيلة اليوم بالآخرين؟

الضابط الثالث في القناطر كان شابا برتبة ملازم يدعى سامي دويدار. وحين دعاني عباس قطب مدير السجن لتصميم الفيلا الخاصة به، أظهر لي سامي هذا مودته بل واهتمامه بالجوانب الفنية، وربما كان مكلفا من المدير بأن يوفر لي ما أحتاجه. فكان يعرض علي خدماته، فإذا طلبت أيا من أصدقاء الزنزانة لكي يساعدني في العمل أخرجه على الفور، إلى درجة أن عدد العاملين معي في تصميم وتنفيذ» الماكيت»الخاص بالفيلا بلغ عشرة أشخاص! وفي حينه طلبت من إدارة السجن أن تسمح لنا بعمل ورشة للنحت، ورغم أنه لا علاقة للنحت بالفيلا، إلا أن الإدارة وافقت على طلبي، وبدأت تصلنا من خلال الزيارات الأسرية كميات من الطين الأسواني المسمى «الطفل»، ومنه شرعنا في عمل التماثيل. ومازال عندي بعض تلك التماثيل سليما في بيتي إلى يومنا هذا. وكنا بعد أن ننتهي من صنع التماثيل نعطيها لأهلنا في الزيارة، لحرقها في أفران الفخار بمنطقة "أثر النبي" في مصر عتيقة.
يقولون إن القطة ترى العالم على هيئة فئران، وكل ما يتحرك بالنسبة إليها هو فأر أو لا، وكل صوت هو إشارة إلى فأر أو لا، وكل ما يجري أو يتعثر يحرك فيها صورة الفأر.

المعتقلون أيضا كل ما تقع عليه أبصارهم هو إمكانية للحرية أو لا. ثغرة لتهريب الرسائل أو لافرصة لتمرير بيان خارج المعتقل أو لا. السلطة تجعل من كل وجود الإنسان اعتقالا. والإنسان يرد على ذلك بسعيه لتحويل كل وجوده إلى إمكانية للحرية. الشوق إلى الحرية، والبحث عن منافذها ولو كانت ضئيلة، تأخذ في السريان مع الدم، بدون وعي، وترى هي قبل أن ترى أنت كل فرصة للتحقق. هذه الرغبة هي التي رأت في التماثيل فرصة لتهريب الرسائل إلى عائلاتنا. ثم نطق أحدنا بالفكرة! وأخذت أضع رسائلي السرية إلى ثريا داخل التماثيل، وراح الكثيرون يبعثون برسائلهم بذات الوسيلة. أصبح لنا بريد خاص. وصارت ورشة النحت فجأة تنتج الكثير من التماثيل بهمة ونشاط بغض النظر عن مستواها الفني، أو شكل التمثال. وداخل الشك إدارة المعتقل من وفرة الإنتاج وهبوط المستوى الفني بعد أن أصبح الكثيرون يمسكون في أياديهم بتماثيل خلال زيارات أسرهم لهم.

وذات يوم وقفت في الزيارة وناولت ثريا زوجتي بعضا من التماثيل، لحرقها في أفران الفخار. وفجأة افتعل الضابط سامي دويدار شجارا مع أحد المعتقلين. أسقط خلاله أحد التماثيل التي في يدي على الأرض ليكتشف إن كان بداخله شيء مهرب أم لا. وسقط قلبي إلى قدمي مع سقوط التمثال. وهبطت ببصري أنا وسامي دويدار في لحظة واحدة إلى شظايا التمثال المتناثرة. لكن التمثال المكسور كان لحسن الحظ خاليا من أية رسائل!. وكانت فرصة لجنازة حارة والميت تمثال! فثارت ثائرتي (أو جعلتها تثور)، ورحت أندب حظ الفن ومصير التمثال المحطم كما لو كان تحفة من إبداع ما يكل أنجلو حطمتها يد الجهل وعدم العناية بما أسميته« التحف». واستدرت بانتقادي إلى الضابط سامي دويدار منبها إلى أن من يدعي عشق الفن من دون أن يكون فنانا سينكشف أمره حتما. وارتبك سامي دويدار، وأخذ يعتذر ويتأسف مظهرا أن ما حدث لم يكن مقصودا، بينما أنا أنظر بأسف إلى شظايا التمثال على الأرض متنهدا عليه بحزن. وبطبيعة الحال فقد عرت الأيام جوهر سامي دويدار المدعي.

ففي عام 1959 تم اعتقالي وحبسي من جديد في سجن القناطر نفسه تحت التحقيق على ذمة قضية، وتم أيضا اعتقال زوجتي ثريا ووضعها في سجن النساء بالقناطر أيضا. في حينه تركت أنا وثريا من خلفنا ثلاثة أطفال ممدوح وكان عمره ثماني سنوات، وحسام ست سنوات، ثم نجوى وكان عمرها حوالي عام واحد ولم تفطم بعد. وكان من حق الأولاد زيارتي من وقت لآخر. وتصادف أن ثريا كانت تعالج عينيها فكانت تتردد على غرفة العلاج الموجودة في سجن الرجال. وكانت هذه الغرفة تقع مقابل غرفة الزيارات مباشرة. وتصادف أن جاءني الأولاد في زيارة في ذات اليوم الذي كانت ثريا فيه تعالج عينيها في الغرفة المقابلة، ولم يكن يفصل بين الغرفتين سوى حوش صغير. وقفت ثريا عند الناحية الأخرى من الباب لترى أولادها الثلاثة من ثقب النظارة الذي لا تزيد مساحته عن بوصة ونصف. ولم تكن ثريا قد رأت صغارها منذ اعتقالها. وكان سامي دويدار عاشق الفن في غرفة العلاج، فما كان منه إلا أن وقف ليسد الفتحة بالباب بجسمه ويمنع ثريا من رؤية أبنائها! ولم تعف الأيام في دورتها سامي دويدار من احتقار ثريا له. فقد كنا بعد ذلك بسنوات طوال نتمشى أنا وهي على كورنيش الإسكندرية، وإذا بنا نجد أمامنا الضابط سامي دويدار مع زوجته وأبنائه. أقبل على سامي يعانقني ويربت على كتفي مستعيدا بكلمات سريعة ذكرى الأيام الماضية، ثم مد يده إلى ثريا ليصافحها. فرفضت، وأخذت تذكره على مسمع من زوجته وأبنائه بحقيقته ودناءة موقفه فترة الاعتقال. وارتبك سامي، وتلعثم، ولم يجد ما يقوله، إلى أن تجاوزناه مواصلين سيرنا.

من المؤسف أن القناطر ارتبطت في أذهان الكثيرين من المثقفين والمكافحين فقط بسجن القناطر الذي اتسعت أبوابه للمعارضين جيلا بعد جيل. رغم أن القناطر الخيرية - حيث يقع السجن - من أعظم الآثار الهندسية في مصر الحديثة. وضع محمد علي حجر الأساس لها

عام 1847 وأنشأ تصميمها بحيث يسمح برفع مستوى النيل أمامها لكي يمكن فتحها زمن نضوب المياه وتزويد ثلاث ترع كبرى بالماء المخزون: الرياح التوفيقي، والمنوفي، ورياح البحيرة. ويرجع إنشاؤها إلى مجموعة من أعظم المهندسين الفرنسيين . لكن علامات الظلم تشوه معنى التقدم، حين تنشأ معه لصيقة به. فلا يبقى من القناطر ذلك الأثر المعماري الضخم سوى أنها «سجن»، ولا يبقى لي وأنا أستعيد ذكرياتها سوى الشعور بالجانب المظلم من التقدم. هل كان ينبغي لي أن أكون أكثر موضوعية فأرى في القناطر بناء معماريا ضخما فحسب؟.

أما في سجن الواحات فلن أعد الأصدقاء من الرفاق المعتقلين أو المحبوسين معي فهم كثر أمثال الأفذاذ من المثقفين وأساتذة الجامعات والقادة العماليين الذين أفادونا بتجاربهم وعلمهم ولكني سأعود لأذكر بالتحية بعض العسكريين الذين تولوا حراستنا وكان الجانب الإنساني يغلب على طباعهم.. أمثال **الصاغ جرجس شحاتة** في معتقل جبل الطور سنة 1949 **والعقيد: حسن الكردي** في سجن القناطر في أوائل الستينات، **والرائد: عبد العال سلومة** في سجن الواحات في فترة الإفراجات سنة 1964 حين صرخ في المعتقلين أن يعودوا إلى الداخل عندما أطلق أحد عساكر الحراسة النار صائحا إنها مؤامرة.. إنها مؤامرة».

إنني أذكر هؤلاء وأسجل مواقفهم لأني أثق في المستقبل وتغلب الطباع الإنسانية في البشر حتى بين العسكر.. أما المتوحشون منهم أمثال: **الصاغ: حسن منير، واللواء: إسماعيل همت** وآخرين فسأتركهم وألقي بهم إلى مزبلة التاريخ؟!..

بعد أن أفرج عنا من معتقلات الملك فاروق وبعد قيام ثورة سنة 1952 بلغنا أن **الصاغ: جرجس شحاتة** رقي إلى عميد وأسند إليه منصب حكمدار دمياط.. وتصادف أنني مع مجموعة غير قليلة من الأصدقاء

كنا في زيارة إلى تلك البلدة العريقة فقمنا حين علمنا بموقعه الجديد هذا أن بالمرور عليه للتهنئة.. فما كان منه إلى أن أقام لنا وليمة ضخمة بمنزله وأشاد باستفادته من معاشرته للشيوعيين ومثلهم العليا؟!.

أما أثناء اعتقال ثريا بسجن القناطر سنة 1959 فقد كان لأحد الضباط العظام **العقيد: حسن الكردي** موقفا مشرفا يسجل له في إنسانيته:

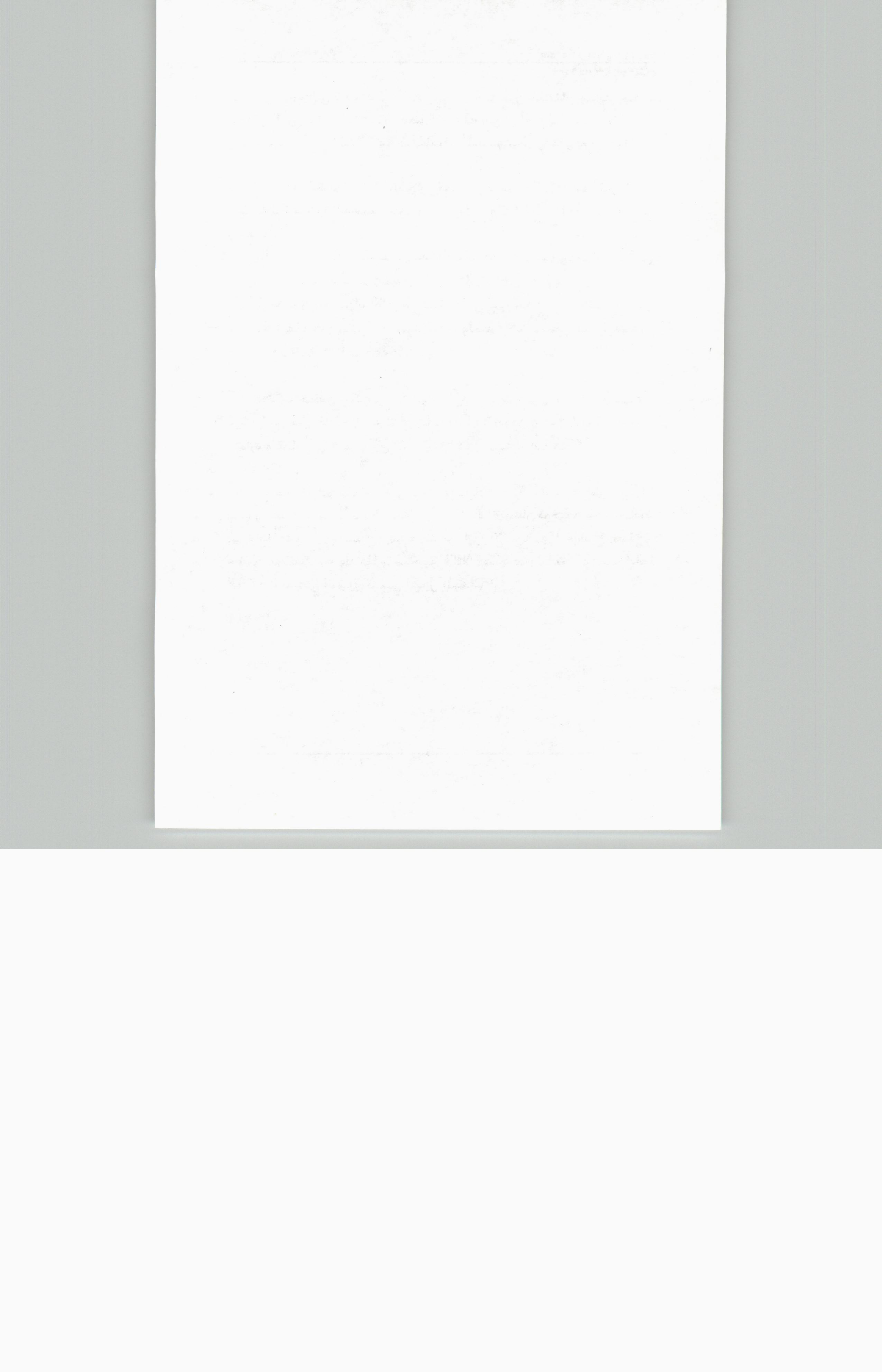
قالت ابنتنا نجوى حبشي وعمرها ثلاث سنوات لعمها فؤاد حبشي:

"أين أمي التي أسمع عنها الكثير؟!.."

فما كان من فؤاد إلا أن أخذها وطرق باب العقيد: حسن الكردي بسجن القناطر قائلا: "**أحدثك كأب وليس كضابط.. ما رأيك في قول هذه البنت الصغيرة؟!**"

فطلب حسن الكردي من فؤاد الخروج وترك نجوى معه.. واستدعى ثريا والتي هي عادة ما يستدعيها باعتبارها مندوبة عن المعتقلات لدى الإدارة وأشار إلى نجوى وقال لثريا: **أتعرفين هذه الطفلة؟!**..

ترددت ثريا لحظة.. ثم أجهشت بالبكاء محتضنة نجوى إلى صدرها بعد أن صرخ قلب الأمومة وهنا دار الضابط الإنسان بوجهه نحو الحائط مخرجا منديلا ليمسح دمعة تنادي أين الإنسانية؟! وأخرج قطعة حلوى من مكتبه وأعطاها لنجوى قائلا «هذه من ماما». مهدئا أياها التي صارت هي الأخرى تبكي لهول الموقف؟!..



الفصل السابع عشر
الحياة دائما تتجدد



حينما خرجت من معتقلات فاروق سنة 1948 سنة 1950 كانت الحياة قد بدأت تتغير كثيرا. فسمعنا عن صفقات أسلحة فاسدة وتذمرات هنا وهناك حتى عساكر البوليس فقد أضربوا وبدأ المسرح يستعد لاستقبال حركة «الضباط الأحرار» وفعلا قام البكباشي جمال عبد الناصر ومجموعته تحت قيادة اللواء محمد نجيب بالحركة داعيا للتغيير أو التجديد واستقبل بتأييد الجماهير نظرا لشدة سوء الأحوال المعيشية وكانت تتردد شعارات كثيرة ضد الفساد والملك مثل "**فاروق يا نور العين أمك مرافقة اتنين علي ماهر وأحمد حسنين**"

وفعلا مهد هذا الجو لتستقبل مصر حياة جديدة وسارت الأمور بشكل مغاير لما سبق.. إلى أن دب الخلاف في القيادة بين نجيب وعبد الناصر حول أسلوب الحكم.

وفي هذه الفترة دخلت السجون مرة أخرى في نوفمبر سنة 1954 لمدة عام في القضية التي تحدثت عنها سابقا.. وأخرج لأجد الحياة تتجدد مرة أخرى.. وعبد الناصر يذهب إلى باندونغ منضما إلى مجموعة دول «الحياد الإيجابي» وينبعث التفاؤل من جديد.. فالحياة يغلب على مسارها الصعود؟!

أما أثناء الحبسة الطويلة التي بدأت في مايو سنة 1959 وخرجت بعدها في أبريل سنة 1964 فقد اختلفت الحياة في مصر كثيرا. كانت الثورة قد أصدرت ميثاق العمل الوطني في مايو 1962 وهو الوثيقة السياسية للنظام. وكانت قد أعلنت وقوفها الصريح إلى جانب ثورة الشعب اليمني في سبتمبر 1962. واصطدمت بالرأسمالية المحلية، ووطدت علاقتها بالمعسكر الاشتراكي. وفي منتصف عام 1963

صرح عبد الناصر لمراسل جريدة» ليموند» الفرنسية بأنه سيفرج عن كافة المعتقلين. وأدى ظهور الميثاق مع تطور الثورة ومواقفها المناوئة للاستعمار إلى بروز اتجاه قوي بين الشيوعيين لتأييد عبد الناصر. فقد اشتمل الميثاق على تحليل لتاريخ نضال الشعب المصري منذ ما قبل الغزو العثماني ومرورا بالحملة الفرنسية وحكم محمد علي، وثورة أحمد عرابي وثورة 19 وصولا إلى ثورة يوليو. وتضمن الميثاق بابا سادسا يتحدث عن»حتمية الحل الاشتراكي» جاء فيه:» إن الحل الاشتراكي لمشكلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي في مصر وصولا ثوريا إلى التقدم.. كان حتمية تاريخية فرضها الواقع» لكن الميثاق الذي انتقد التجربة الرأسمالية في التنمية اشتمل في ذات الوقت على إشارات أخرى ترفض التجربة الاشتراكية منها:»إن هناك تجارب أخرى حققت أهدافها تحت ضغط تطبيقات مذهبية مضت إلى حد التضحية الكاملة بأجيال حية في سبيل أجيال لم تطرق بعد أبواب الحياة»، وكان المقصود بتلك الإشارة تجربة المعسكر الاشتراكي.

وسادت في تلك الفترة داخل السجون وفي الحزب الشيوعي ثلاثة تيارات:

التيار الأول: أقصى اليمين الذي دعا لإسقاط السلطة وتكون من تنظيمين منظمة طليعة العمال، وغلب على أعضائها الطابع العمالي، وكان اهتمامهم بالثقافة ضئيلا لدرجة أن بعضهم كان سمع عن الماركسية لأول مرة خلال المحاضرات التي ألقيت عليهم داخل السجن، والثاني منظمة الحزب الشيوعي المصري (الراية) - أقصى اليسار - التي وصفت النظام الناصري بأنه رأسمالية دولة احتكارية وأحيانا فاشية.

التيار الثاني: تألف أساسا من منظمة "حدتو" التي نادت بأن عبد الناصر اشتراكي رغم كل انتهاكاته للديمقراطية، حتى أننا أطلقنا عليهم

«المشتراكيين»، وكنا نتندر واصفين إياها بأنها مجموعة» حبيتك وبحبك.. وح حبك على طول» مع الاعتذار لأغنية محمد المطلب!

التيار الثالث: الذي كنت أنتمي إليه اعتبر نظام عبد الناصر

«رأسمالية غير تقليدية» فهي وطنية في بعض أعمالها وغير وطنية في أعمال أخرى. فقد أيدنا عبد الناصر حين اتجه بالبلاد إلى الصناعة، وشبه من يعتمد على الزراعة فقط بمن يسير على ساق واحدة. لكننا نادينا بالمزارع التعاونية وميكنة الزراعة، حين ضرب الإقطاع وقسم الأرض إلى قطع صغيرة. وأيدناه حين أمم بعض المصانع، لكننا وقفنا ضده حين جعل إدارتها في أيدي ملاكها السابقين، فسهل عليهم تهريب رؤوس أموالهم للخارج. ونادينا بالأسلوب العلمي للإدارة الجماعية والتأميم الكبير للصناعات الهامة.

وأدت هذه الاختلافات مع ظروف التكتل حسب الانتماء التنظيمي السابق إلى انهيار وحدة الحزب. ومن الناحية الشكلية فإن وحدة الحزب التي أقيمت من أعلى استمرت من يناير 1958 حتى أبريل 1964، لكنها من الناحية العملية كانت قد بدأت تتشقق منذ البداية. وأخذ الصراع على القيادة يطل برأسه، وحاولت كل منظمة الاحتفاظ بكيانها السابق مستقلا تقريبا، بينما اختفى الحوار السياسي بوسائله الديمقراطية.

وفي أبريل 1964 صدر تقرير عن الحزب بشأن «التطور اللارأسمالي» الذي تخطط له المجموعة الاشتراكية في السلطة، وراج الحديث عن ضرورة وحدة «كل القوى الاشتراكية» أي حل الحزب الشيوعي والاندماج في حزب السلطة «التنظيم الطليعي». وفي أبريل 1964 أصدر عبد الناصر أمراً بالإفراج الشامل عن الشيوعيين. ثم أعقبه بعفو عام عن كل الشيوعيين الذين صدرت بحقهم أحكام. وكان الإفراج مرتبطا بمناسبة هامة هي افتتاح السد العالي في 9 مايو 64, وكانت مصر قد وجهت دعوة لخروتشوف الزعيم السوفيتي للحضور أثناء افتتاح السد. لكنه رفض تلبية الدعوة إلا بعد إطلاق سراح كل الشيوعيين المصريين. وخرجت من المعتقل في 6 أبريل 64 مع آخر دفعة يفرج عنها من المعتقلين.

رحنا نودع الواحات ونتأمل حياتنا التي سنتركها خلفنا والتي انقضت هنا. كانت تلك نظرة وداع أخيرة للمنفى، وللصلابة الإنسانية، ولاقتسام الخبز في أحلك الظروف. أخذنا نخرج ونحن نحمل أمتعتنا ونسير متتابعين في طابور مسافة بين باب العنبر وجزء من مباني المسرح المكشوف. وفجأة دوى صوت الرصاص. ورفعنا أبصارنا فيما حولنا. كان هناك جندي في برج مراقبة عال يوجه مدفعه الرشاش نحونا.

وارتفع صوت أحد الضباط: «عودوا إلى العنبر..عودوا». ورجعنا بسرعة ونحن مرتبكين. لكن الرصاصة التي أطلقت كانت قد أصابت في مقتل زميلنا لويس إسحق الذي سقط مضرجا بدمائه قبل لحظات من خروجه إلى الحرية. وفارق الحياة على التو. كانت تلك لمسة أخيرة تضفي على لوحة المغادرة لونا قاتما. لقد كانت مؤامرة مقصودة لإفساد الاحتفال الذي تم بافتتاح السد العالي. ما الذي جرى للجندي الذي أطلق الرصاص؟ لا أدري.

خرجنا من المعتقل. وبعد شهور من خروجنا دعاني الأستاذ فاروق ثابت وهو من الزملاء لاجتماع في منزله حضره عشرات الحزبيين. وانصب النقاش حول الاشتراكية التي سوف يقيمها عبد الناصر. وأنه لم تعد هناك ضرورة لوجود حزب شيوعي مستقل. لأن هدفنا (نحن والسلطة) أصبح واحدا الآن. وأذكر أنني كنت مع الأقلية الضئيلة التي رفضت ذلك وتزعم رفضها الرفيق طاهر البدري. وعندما دار النقاش حول انضمام الشيوعيين إلى التنظيم الطليعي لم أجد في نفسي حماسا للمشاركة.

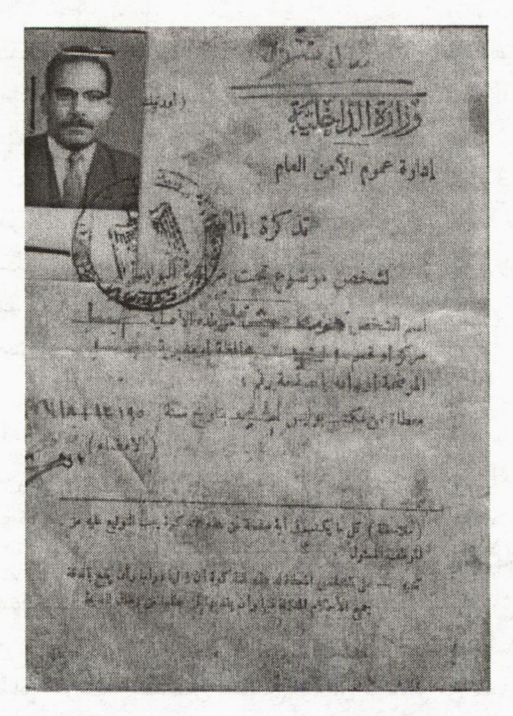
وفي أبريل عام 1965 تم حل الحزب. بعد الاتفاق على بقاء شخص فرد يكون رمزا للحزب هو كمال عبد الحليم الذي أنهى بدوره الوجود الرمزي الأخير لحزب الطبقة العاملة وأرسل برقية بذلك المعنى إلى عبد الناصر.

كانت هناك اعتبارات أخرى قامت بدورها في دفع الحزب نحو حل نفسه منها: العزلة التاريخية النسبية للحركة عن الجماهير. وظروف الاستبداد العامة التي حالت دائما دون أن تكون الحركة علنية قادرة في

ظروف ديمقراطية على إدارة أوسع حوار بينها وبين كوادرها من ناحية، وبينها وبين الجماهير من ناحية أخرى، وغياب الكثافة العمالية في عضوية المنظمات.

وبالرغم من كل شيء لابد من الإشارة إلى أن حل الحزب تم بعيدا عن موافقة بل وعن علم الكثيرين من أعضاء الحزب حسب مختلف الشهادات، كما أنه وجد معارضة من عدد كبير. المؤسف وربما المؤلم أن الحل تم تحت راية النظام الذي كان يفصله عن معركة الهزيمة العسكرية والسياسية سنة 1967 عامان اثنان فقط.

كانت ثريا قد خرجت من المعتقل قبلي ببضع شهور، في يوليو 1963 وأفرج عنها مع جميع المعتقلات من النساء، ووجدتها في استقبالي مع أبنائي ممدوح وحسام ونجوى. كانوا قد كبروا قليلا، واختلفت ملامحهم. وأذكر هنا أنني حين دخلت شقتنا وعانقت ثريا والأولاد ممدوح وحسام.. سألت عن نجوى فقيل لي أنها الطفلة الواقعة بالشارع في انتظار عربة المدرسة فقد مررت أمامها ولم ألحظها؟! يا للعجب؟!..فقد كان طبق علي نظام المراقبة بشكل سمج، وكان بوسع أي شاويش أن يأتي إلى منزلي في أي وقت حتى بعد منتصف الليل ليضع توقيعه الكريم على دفتر عندي يفيد أنني لم أهرب ولم أغادر المكان. واقترحت ثريا لتغيير الجو أن نقضي جزءا من الصيف في بلطيم وبها جهاز شرطة يستطيع أن يضعني تحت الرقابة. وكانت بلطيم في ذلك الوقت منطقة متواضعة كالأرياف، بها مأمور قسم شرطة لم يسمع في حياته من قبل عن معتقل سياسي! فكان يرتجف لمجرد وجودي في منطقته إلى درجة أنه قام بتوديعنا حين عدنا من هناك في موكب مثل كبار الزوار، تقدمته سيارة حراسة أمام أتوبيس السفر، وأخرى خلف الأتوبيس مما أثار دهشة الركاب جميعا.


وزارة الداخلية
إدارة عموم الأمن العام
لشخص موضوع تحت
(الإمضاء)

دفتر المراقبة لتوقيع العسكر عليه كل ليلة ؟!

خرجت وكان علي أن أبحث عن عمل مثل أي شاب في مطلع حياته أنهى تعليمه لتوه. وكان قرار جمهوري قد صدر بفصلي من هيئة السكك الحديدية فور اعتقالي. وتقدمت بطلب لوزارة الشئون الاجتماعية لتوفير فرصة عمل لي. وسمع الصديق الدكتور ميلاد حنا بالمسألة. فألحقني بالعمل في مكتب أحد أصدقائه المقاولين لأشرف على تنفيذ مباني مدينة السينما بشارع الهرم.

في تلك الفترة تكشف للجميع أن فكرة توحيد كل القوى الاشتراكية في الحزب الطليعي كانت مجرد سراب. فقد اتصل بي الدكتور فائق فريد ليؤكد لي أن عبد الناصر في طريقه لإنشاء التنظيم الطليعي الذي دار الحديث عنه من قبل ليصبح وعاء لكل

القوى الاشتراكية، وأنني مرشح للانضمام للقطاع الهندسي في التنظيم. وبالفعل حضرت بعض الاجتماعات، ثم أبلغوني بعد ذلك أنني سأنقل إلى مجموعة أخرى يشرف عليها الكاتب أحمد حمروش وأن علي أن أتصل به لتنظيم علاقتي بالمجموعة الجديدة. وواليت الاتصال بحمروش عدة شهور بمعدل مرتين أسبوعيا بلا جدوى إلى أن أصابني اليأس فتوقفت وأدركت أن هم الدولة الوحيد هو احتواء ما تبقى من شيوعيين فرادى بمختلف الطرق. وكان وزير الداخلية وقتها هو شعراوي جمعة الذي أخذ يستقبل أغلب القيادات الشيوعية والمثقفين المعروفين منهم، خاصة أولئك المرشحين للانضمام للتنظيم الطليعي. وحل الدور علي، فاستقبلني الوزير، وتحدث بنبرة معتذرة عن فترة الاعتقال، وقال إنه يعلم أن الشيوعيين مخلصون لمصر، وجادون في عملهم، وما إلى ذلك، وألحقني بقرار بإحدى شركات المقاولات الكبرى لأعمل كمهندس مقيم بمصنع بنها للإلكترونيات. وبقيت بهذا العمل أكثر من عامين ألحقت أثناءها بالعمل المهندس الفنان محمد حمام وحين عينت معي الأستاذ: مسعد رحمي وكان عاطلا رغم حصوله على ليسانس الآداب وصلت برقية لرئيسي في الشركة تفيد استحالة دخولي إلى المصنع، لأنه مصنع حربي ولا يجوز لي كشيوعي أن أدخله! علما بأن الشركة التي كانت تشرف على إنشاء هذا المصنع هي شركة تشيكوسلوفاكية شيوعية بالطبع! وبقيت مع رئيسي في مكتبه لا أباشر عملا إلى أن طلبت مقابلة شعراوي جمعة مرة أخرى، فنقلني لموقع جديد بالمؤسسة العامة للمرافق «إدارة المتابعة» في وزارة الإسكان. وتصورت أنني سأصبح مشغولا بعملي، وبمتابعة المواقع، فلم أجد سوى سكرتيرة ومكتب فاخر وجرائد ومجلات تصلني كل صباح لأسلي بها وقتي، مع سيارة حكومية تقلني من البيت إلى العمل والعكس.

وكان رئيسي المباشر ضابطا يصغرني سنا بحوالي عشر سنوات ويحدثني بكل احترام هو المقدم: حسين رمضان ولم يعطني أي اختصاص معتذرا بأدب؟!

فشغلت نفسي بأن كتبت ورقة عمل مطولة أشرح فيها أهمية إدارة المتابعة لتكون مفيدة وليست شكلية؟! أوجزها في الآتي:

المؤسسة المصرية العامة لأعمال المرافق

واجبات ومسؤوليات الإدارة العامة للمتابعة الميدانية:

تتولى دراسة ظروف العمل في مواقعه لدى الشركات التابعة للمؤسسة بقصد التعرف على احتمالات التنفيذ في المواعيد وأسباب التأخير إن وجدت

-1 مع التأكد من صحة البيانات الواردة في تقارير المتابعة التي تصل من الشركات

-2 متابعة العلاج الذي يوضع للمشاكل..

-3 تسهيل حصول الشركات على احتياجاتها عن طريق الاتصال بالشركات المنتجة أو المتسوردة للمواد أو المهمات..

وطبعا أخذه السيد المقدم ولم أعرف لهذا التقرير مصيرا؟.. ولم أناقش فيما جاء به؟!..

فعلمت أنني موجود بتلك الإدارة لمجرد شغل وقتي دون أي عمل مفيد؟!

كان الدكتور عبد الرازق حسن يشغل منصب رئيس شركة القاهرة للإنتاج السينمائي إحدى شركات مؤسسة السينما التي رئيسها الأستاذ: نجيب محفوظ أيام كان الأستاذ/ ثروت عكاشة وزيرا للثقافة..

وأعارني الدكتور عبد الرازق مديرا لإدارة الديكور خلفا لآخر مدير أجنبي لتلك الإدارة.. وفرحت بهذا الحل الذي سينتشلني من الفراغ إلى العمل الجاد؟...

وكنت أذهب إلى استديو مصر لمباشرة عملي وهناك التقيت بعدد من نجوم السينما منهم الأساتذة المخرج صلاح أبو سيف والمخرج يوسف

شاهين وصلاح ذو الفقار ونادية لطفي. وكانت تدور بيننا أحاديث حول أهمية القطاع العام فأجدهم من أشد المتحمسين له. وأذكر أن الأستاذ نجيب محفوظ جاءنا في زيارة لقسم الديكور وأثنى على ما بذلتاه من جهود. لكنه سرعان ماترك منصبه لعبد الحميد جودة السحار، بعد أن ترك ثروت عكاشة موقعه كوزير للثقافة لعبد القادر حاتم. فاختلفت سياسة مؤسسة السينما وتم إبعادي أنا الآخر بأدب واحترام عن موقعي. وانتدبت مديرا لإدراة المباني بالموسسة وهي إدارة لا تفعل شيئا. مكثت فيها شهورا أكتب التقارير للارتفاع بمستوى مباني السينما بلا جدوى. ووضعت مشاريع طموحه بشأن إقامة «دار عرض في كل قرية» بلا جدوى أيضا وها جزء من التغريد المطول الذي حتي لم أناقش فيه؟!.

دار عرض في كل قرية:

إن من أهم خصائص المجتمع الاشتراكي الاتجاه نحو تقريب الشقة بين المدينة والريف... وإذا عرفنا أن سكان ريفنا المصري حوالي 80% من مجموع السكان وأن غالبيتهم الساحقة غير قادرة على القراءة والكتابة نجد أهم كباري تضييق المسافة بين القرية والمدينة هي «السينما» والفيلم العربي على وجه التحديد.

وإذا كان عدد قرانا يقرب من الأربعة آلاف فلو فكرنا في «دار عرض لكل قرية» سنجد في ذلك فتحا لسوق ضخم للفيلم العربي ترتفع به نسبة التوزيع الداخلي له والتي هي حاليا لا تتعدى 40% مما يجعله معتمدا أساسا على التوزيع الخارجي.. ومن العجيب أن نسبة دور العرض إلى السكان بالجمهورية العربية تصل إلى أقل نسبة في العالم تقريبا فبينما في مصر 1:120000 (مائة وعشرين ألف نسمة) نجدها مثلا في السويد تصل إلى 1:355 نسمة فقط وبين يدي إحصائية اليونسكو منذ أربع سنوات توضح ذلك:

البلد	عدد السكان بالمليون	عدد دور العرض	نسبة دور العرض إلى عدد السكان تقريبا
الارجنتين	20	2000	10000:1
البرازيل	55	2850	22850:1
السويد	7	2489	355:1
المكسيك	20	2060	10000:1
إنجلترا	50	4772	10000:1
إيطاليا	45	7450	6000:1
فرنسا	40	5000	8000:1
فنزويلا	6	600	1000:1
كوريا	6	600	1000:1
مصر	30	255	120000:1

ولكن أين لنا بهذا الحلم الاشتراكي الضخم ..«دار عرض في كل قرية» ... سوف يتحقق الحلم ويصبح حقيقة في رأيي إذا وضعنا نصب أعيننا أن أهل القرية وهم أصحاب المصلحة المباشرة في هذا التحول الهام الذي سيدخل القرية في مرحلة جديدة نحو البناء الاشتراكي هم الذين سوف يأخذون على عاتقهم كل أعباء المشروع من إنشاء أو إدارة أو صيانة وإذا درسنا هذه الأعباء بالترتيب وهي في تصوري ليست أعباء إذا قورنت بما سوف تعود به على بيئة القرية مباشرة سنجد:

(1) الإنشاء:

يزداد النشاط في القرية صيفا فيفد إليها أبناؤها الطلبة من

معاهدهم ولذلك اقترح أن تكون دور العرض هذه مكشوفة وتوفر بذلك أغلى بند من تكاليفها وهو السقف ويمكنها أن تزداد رحابة فتتسع لخمسمائة نفس مثلا وليس من داع أن نزحمها أو نرهقها بثمن كراسي أو ما شابهها فلندع شباب القرية ـ وهنا يمكن لمنظمة الشباب أن تلعب الدور الرئيسي ـ أن ينفذ ما يخططه لهم أي جهاز هندسي بسيط من مصاطب متدرجة في شكل منسق يجعل قطعة الأرض التي تختارها القرية وقد تغير شكلها بالحفر والردم فقط مع بعض الحوائط السائدة القليلة إلى موقع تجمع جميل يعمل دار عرض حينا أو مسرحا حينا آخر... وهو مركز إشعاع للثقافة في كل الأحيان.

بقى بعد ذلك أجهزة العرض 16م الذي لن يتعدي ثمنه بالكابيه بضع مئات من الجنيهات ولا أظنه من الصعب أن تستردها وزارة الثقافة لتبيعها إلى القرى بالأجل.

(2) الإدارة:

لا يجب أن يتطرق إلى ذهننا أن ندير دور العرض هذه من بعيد أو من القاهرة فهي بذلك لن تنجح لصعوبة رقابتها وهنا لن يكون أنجح من الإدارة الذاتية وأظنه الآن وقد بدأنا فترة من التغيير الأساسي وبدأت الثورة تنقل السلطة إلى الشعب صاحب المصلحة المباشرة في التغيير فليس أقل من أن يقوم بالقرية من يدير هذه الدور.. لتكن وحدة الاتحاد الاشتراكي مثلا.. وهي في سبيلها لأن تنتخب.. فعليها أن تعمل كخير أداة للربط بين وزارة الثقافة وأهل القرية وأظنها قادرة على تقديم الضمان المادي لسعر جهاز العرض الذي ستتسلمه لرفع المستوى والترفيه على من انتخبوهم.

(3) الصيانة:

أما بند الصيانة فلا أظن هناك قرية في مصر تخلو اليوم من ماكينة للري أو وابور للطحين ما أو شابه ذلك وحين نفكر في تحقيق هذا الحلم تبدأ وزارة الثقافة في إنشاء فصول تدريب تدعو لها اثنين

أو ثلاثة من كل قرية من أبناء العاملين بماكينة الري أو وابور الطحين لتدريبهم على تشغيل وصيانة جهاز العرض 16م ولا مانع أن يكون هذا الفصل التدريبي في القاهرة ليعود الشاب بعد فترة التدريب الوجيزة إلى أهله حاملا معه هدية المدينة جهازا ثالثا يضم إلى معالم القرية بجوار ماكينة الري و وابور الطحين.

وهكذا لنكون قد حققنا أحد تعاليم ميثاقنا الوطني من مركزية التخطيط ولا مركزية التنفيذ وخطونا نحو تقريب الشقة بين القرية والمدينة.. نحو الاشتراكية.

مهندس فوزي حبشي
7مايو 1968

وظل الحال على ما هو عليه إلى أن توجهت ذات يوم كعادتي إلى مكتبي الفاخر في شارع سليمان باشا. وأمام باب العمارة فوجئت بالبواب يخبرني بأن الشقة التي أعمل فيها قد بيعت لأحد المحامين!. ومع ذهولي اتصلت برئيسي المباشر حينذاك وكان الممثل المعروف الراحل سيد بدير الذي قهقه بصوته الأجش وجلجلت ضحكته قائلا لي:

- حد لا قي يقعد في بيته ويأخذ مرتب كل شهر من غير شغل؟

وأجبته:

- أيوه. بس أنا مش من النوع ده!

وعملت على الانتقال إلى وزارة الكهرباء لتصبح رابع وزارة أعمل بها.

كان زميلي وصديقي الدكتور: فائق فريد يعمل وقتها وكيلا لوزارة الكهرباء وقدمني للسيد الوزير د. عزت سلامة الذي عينني في إدارة يرأسها مهندس شاب دفعة سنة 1956 من نفس الكلية التي تخرجت

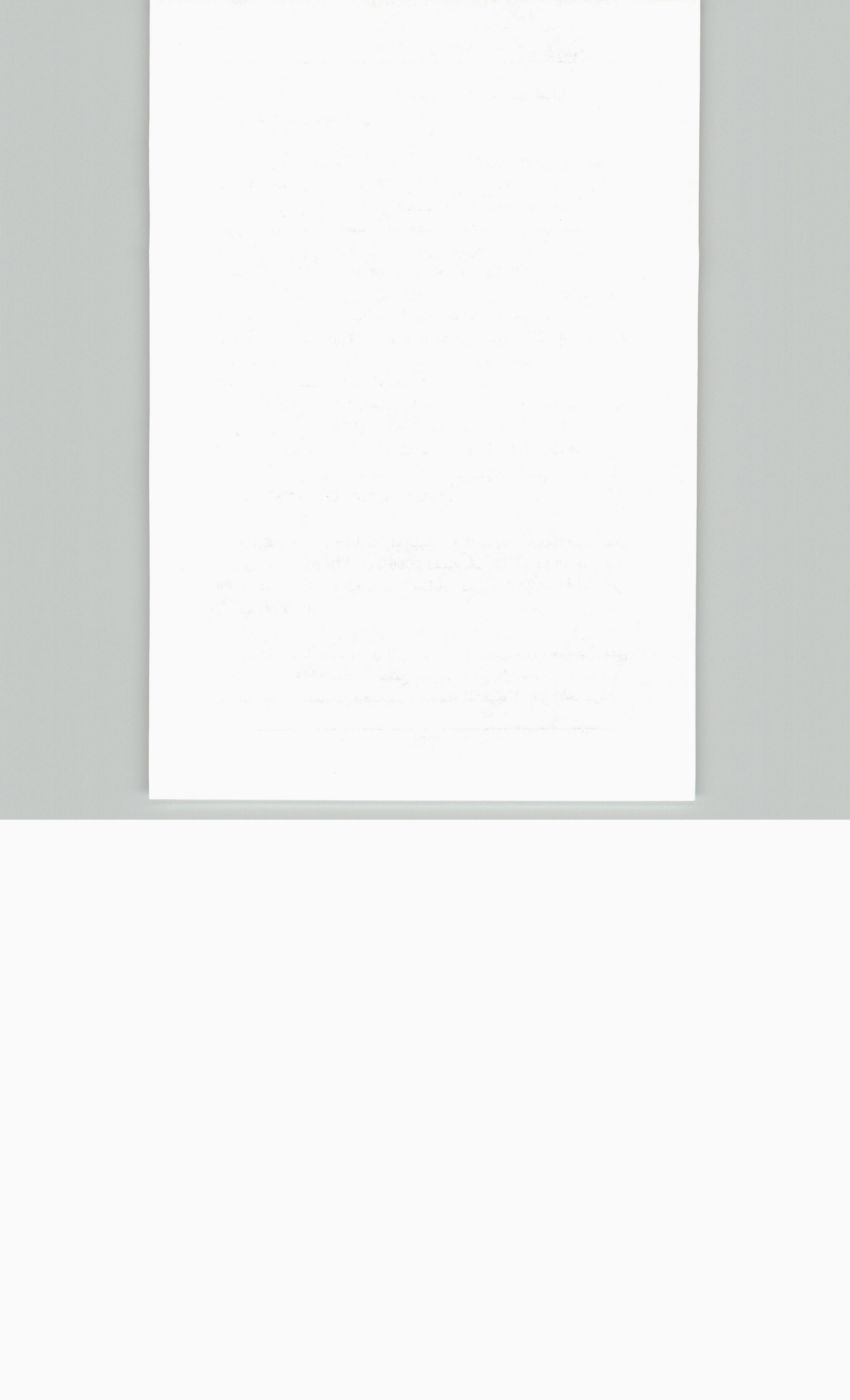
فيها سنة 1946 ولم يكن ليخاطبني إلا بلهجة كلها احترام..
ويخجل أن يطلب مني أي عمل؟!.

إلى أن جاء من إحدى البلاد العربية وزيرا للكهرباء مهندس صديق قديم كنا نعمل سويا في النشاط اليساري بنقابة المهندسين أثناء إنشائها في أربعينيات القرن الماضي هو المهندس: مصطفى كمال صبرى.. ورفضت أن أذهب إليه مهنئا باعتباري من المرؤوسين الأقل كثيرا في الموقع الوظيفي ولكن حين أبلغني د. فائق فريد بعتابه عليَّ واصطحبني إلى مكتبه كان الرجل من الشهامة حين اقتطع جزءاً كبيراً من وقته استرجع تاريخنا المشترك وإصدار قرارا بانتدابي مدير عام بهيئة كهربة الريف حيث قمت بنشاط جم حتى ترك المهندس: مصطفى صبري الوزارة إلى موقع جديد هو رئيس مجلس إدارة شركة المحولات وقد كان يمر على يوميا بحكم موقعي ملف خاص بجميع القرارات الوزارية.. وأفاجأ بأحدها يقرر إلغاء انتدابي هذا منذ حوالي شهرين؟!. فأخذت القرار ودخلت به على رئيس الهيئة ضاحكا: لماذا لم أبلغ به في حينه؟!.. فكان رد السيد المهندس رئيس الهيئة أن قال:

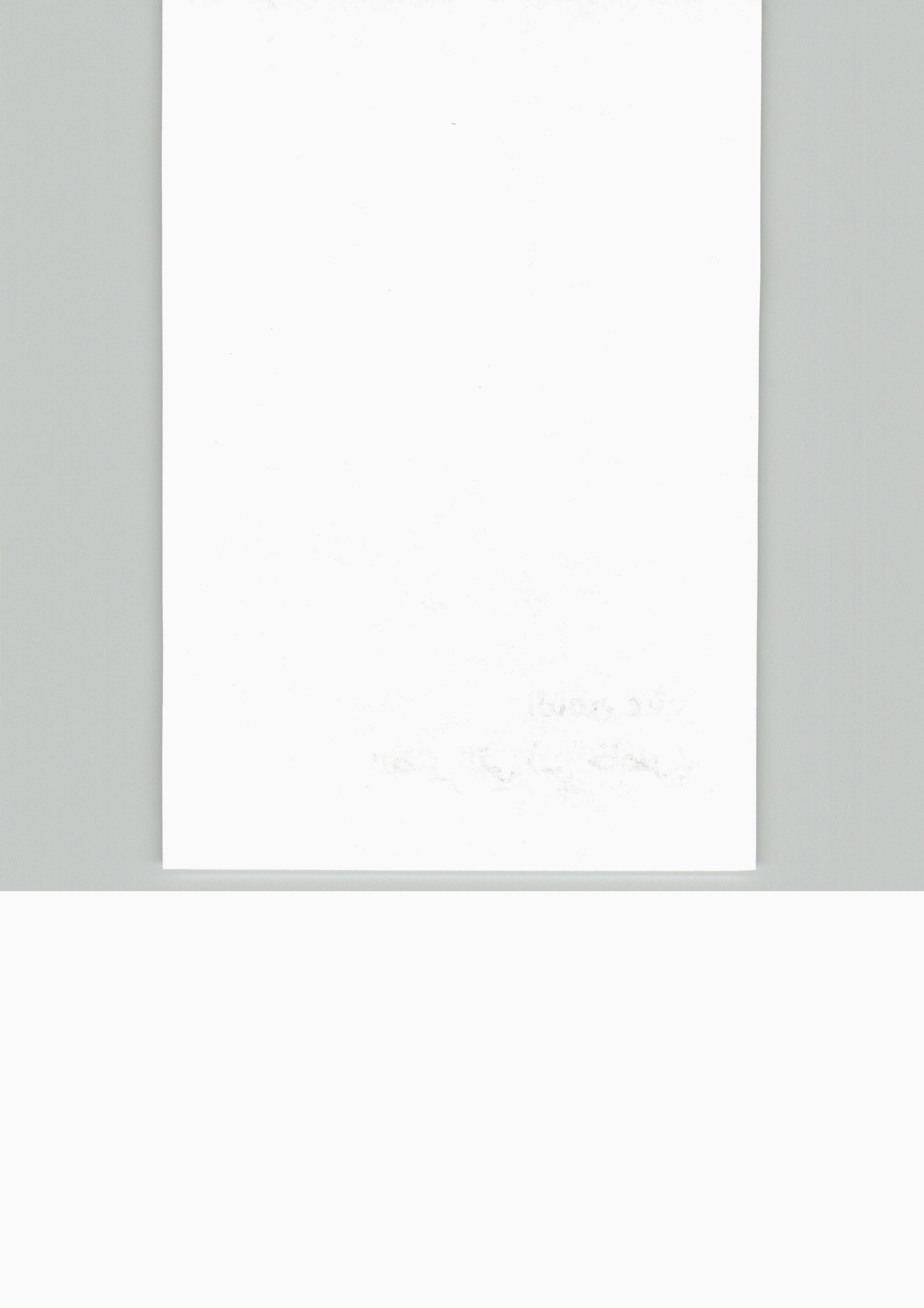
إن قبولك هذا الخبر بهذه البساطة والضحك قد أزاح من على صدري حجرا طالما آلمني لدرجة أنني لم أجد إلا هذه الطريقة لإبلاغك إلغاء الندب؟!

ولما كنا نتبادل الزيارات العائلية مع المهندس: مصطفى كمال صبري حتى توفاه الله سنة 2006 فقد حكى لي آسفا أنه وقع قرار إلغاء الندب المذكور بضغط من السادات حين اختاره رئيسا لمجلس إدارة شركة المحولات؟!..

وهكذا عدت مرة أخرى إلى المركن بلا عمل حتى خروجي على المعاش سنة 1984 ولكن بالطبع لم يخمد لي بال ولم أتوقف مطلقا عن نشاطي السياسي مستهدفا الهمم للتغيير؟!.. إلى الأحسن؟!..



الثامن عشر
مصر التي في خاطري



أفكر أحيانا في أنني ربما كنت أحد القلائل الذين اعتقلوا في عهد الملك فاروق، وعبد الناصر، والسادات، ثم مبارك.

هكذا كنت أتخيل أحيانا أنه ما من أحد زار السجون والمعتقلات مثلي. وكانت الدولة قد شنت حملات بوليسية متوالية بصورة دورية لإنهاك القوى السياسية المعارضة وقادتها بالزج بهم في السجون وتشريدهم. وأواخر عام 1981 كان السادات قد أصيب بما يشبه جنون العظمة، وكان يتفاخر بسلطاته غير المحدودة، حتى أنه ذكر مرة في أحد خطاباته: "**فلان مرمي في السجن زي الكلب**"! وهي عبارة أبعد ما تكون عن اللياقة التي ينبغي أن يتسم بها خطاب رسمي وخاصة لرئيس. وإلى جانب التفاخر، كان السادات مغرما بتبديل ملابسه، وتغيير أنواعها، فإذا قام بزيارة لسلاح الفرسان ارتدى زي سلاح الفرسان. وإذا قام بزيارة للبحرية وجد لنفسه زي البحرية، ونفس الشيء مع الطيران، والشرطة وهلم جرا. وأصبح الأمر مدعاة للضحك حتى شاعت نكتة تقول إنه سيرتدي «لولب» في زيارته لأحد مراكز تنظيم الأسرة ومنع الحمل! ولم تكن مصادفة أن تنتشر نكتة محمود السعدني الشهيرة عن عبد الناصر والسادات: "**رئيس يموتنا من الخوف، ورئيس يموتنا من الضحك**"!

في 30 مارس 1981 هاجم التتار بيتي من جديد. وهذه المرة فكرت أنه من الغريب أنني لم أغير مسكني منذ أن أقمت به، فكأني كنت أسهل عليهم مهمة اعتقالي. فعنواني ثابت ومعروف ولا أغيره. وألقي القبض على عدد كبير كان من بينهم الأستاذ نبيل الهلالي محامي الشعب المصري، مما دعا الشاعر أحمد نجم لكتابة قصيدته المعروفة

التي يقول فيها عن الهلالي:

"قلعوه روب المحامي..

لبسوه توب الاتهام"!



الأستاذ: نبيل الهلالى معنا فى قفص الاتهام عام 1981

وكانت التهم في القضية الجديدة تبدأ كالعادة من التحريض وإثارة الرأي العام وتنتهي بإنشاء تنظيم شيوعي ومحاولة قلب نظام الحكم، وضمت النيابة هذه القضية الجديدة إلى قضية 79 التي برأتني منها حينذاك. وظللت في المعتقل ثمانية أشهر كاملة، إلى أن أفرج عني قاضي معارضات في نوفمبر من نفس العام لحين صدور الحكم. هذه المرة ظلت القضية تنظر على مدى خمس سنوات، من تاريخ اعتقالي في مارس 1981 إلى صدور الحكم في نوفمبر 1986. خلال هذه الأعوام الخمسة سافرت ست مرات إلى خارج مصر بعد الحصول على تصريح من هيئة المحكمة.

عام 1981:

سافرت إلى المجر وكان السبب ظهور ورم في الغدة خلف الأذن تشكك الأطباء أن يكون مرضا خبيثا. وكان المفروض أن تلحق بي ثريا

في المجر حسب اتفاقنا. وانتظرتها في مطار بودابست الذي يبعد عن وسط المدينة بعشرات الكيلومترات. لكن المسافرين هبطوا جميعا ولم أجد ثريا بينهم. وعدت إلى المطار مرة أخرى في الفجر. فلم أر ثريا. وفي الصباح وصلت ثريا تبكي، وتحكي لي مغامراتها. واتضح أنه بعد جلوسها في الطائرة المتجهة إلى المجر فوجئت بالمضيفة تعلن أن مطار بودابست مغلق لسوء الأحوال الجوية، وأن الطائرة ستهبط في بلد صغيرة تدعى «براتسلافا» في تشيكوسلوفاكيا. كان الجو باردا والليل يغطي المدينة. واتجهت ثريا مع الآخرين حاملة حقائبها إلى محطة القطارات لتستقل القطار المتجه إلى المجر. وعندما وصل القطار إلى الحدود المجرية صعد الحراس المجريون يراجعون تأشيرات الدخول إلى المجر. وقلب الحارس جواز سفر ثريا، ثم قال لها كلاما لم تفهمه بالتشيكية. وأبدت اندهاشها وأخذت تلوح له بيديها أنها لا تفهم شيئا مما يقوله. وطلب منها الحارس بإشارة أن تهبط من القطار.وارتفعت أصوات الركاب الآخرين تحتج وتطالبني بالنزول، وتطالبه بأن يدع القطار يمر. قالت ثريا: **ساعتها شعرت بالخطر. فرفضت النزول.**

وظللنا هكذا إلى أن ظهر ضوء الفجر والقطار في محله. وبعد فترة ظهر أحد الحراس وناولني جواز سفري وعلى وجهه ما يشبه الاعتذار. وحين وصل القطار إلى المجر اكتشفت أنني لا أعرف شيئا هناك سوى اسمين اثنين: "ماجدة" زوجة ابني، و"كادار" سكرتير الحزب الشيوعي المجري! ولم أكن أعرف لماجدة هناك عنوانا. فاستوقفت تاكسي ووضعت فيه حقائبي وحين سألني الرجل بما معناه: إلى أين؟. قلت له:- إلى "كادار"! وكاد السائق لذهوله أن يخرجني من السيارة لولا أنني لوحت له بحفنة دولارات أسالت لعابه. وفي ميدان فسيح توقفت السيارة وأشار لي الرجل بيده إلى مبنى

ضخم عرفت فيما بعد أنه مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المجري. حملت حقائبي واتجهت إلى المبني. وأوقفني الحراس، وظللنا فترة نتبادل حوار الطرشان إلى أن جاءوني برجل يتقن الإنجليزية، ولشد ما كانت دهشتي حين حدثته فاتضح أنه هو نفسه الشخص الذي كان يرافق فوزي منتظرا إياي في المطار!

هدأت ثريا قليلا. وقام الأطباء فيما بعد بإجراء العملية الجراحية اللازمة لي، ومرت بسلام.

عام 1982 سافرت مع ثريا إلى ألمانيا وهناك اشترت سيارة «تويوتا» صغيرة، عدنا بها عبر جبال الألب الشهيرة. وضحكنا كثيرا من كثرة ما تهنا وسرنا مسافات طويلة في طرق غير المقصودة. وفي صيف 1984 اتجهت إلى باريس ونزلنا في فندق متواضع، وزارنا الأستاذ عبد السلام زكي مبارك، وعز عليه أن يرانا في هذا الفندق فأصر أن يحمل حقائبنا إلى منزله بالحي الصيني في الطابق السابع والعشرين! وكان يسكن في نفس المبنى الصديق أديب ديمتري. وظللنا في باريس ثلاثة شهور كاملة كانت من أجمل الأوقات التي عشناها.

في يناير 1986 استخرجت تصريح سفر من المحكمة قبل أن يتم تحديد موعد نظر القضية، وفي مارس من نفس العام قبل انتهاء صلاحية تصريح السفر أقلعت إلى المجر بعد أن اتفقت مع ثريا على أنني سأعود لمصر إذا برأتني المحكمة، فإذا صدر الحكم على بسنوات طوال تلحق بي ثريا إلى المجر.

وفي مايو 1986 صدر الحكم علي بالسجن لمدة عامين. ووجدتني مرغما على البقاء في المجر. ورغم أن المجر بلد جميلة وشعبها طيب، إلا أن الغربة تظل هي الغربة بكل قسوتها. وأذكر أن ابنتي نجوى جاءتني في زيارة هناك واصطحبت معها بناتها: حنان ونانسي، وقررت أن آخذ البنات الصغيرات في رحلة لركوب «التليفريك» المعلق في الهواء بين جبال «بودا» وهي من أجمل الأماكن السياحية. وفي «تليفريك» ونحن

في الهواء فوجئت بنانسي هاني سليم الطفلة تغني:

"الأقصر بلدنا بلد سواح..
فيها الأجانب تتفسح
وكل يوم ساعة المرواح
بتبقى مش عاوزه تروح" !

وزلزلت وجداني تلك الكلمات البسيطة من حفيدتي، وكادت أن تسيل دموعي وأنا أسأل نفسي: **أيها الوطن ما أنت؟ ولماذا أنت عزيز هكذا؟. حتى على الطفلة الصغيرة التي لم يتجاوز عمرها ثلاث سنوات.**

ولما كان النظر في قضيتنا قد تم قبل إعلان الأحكام العرفية، كان مسموحا لنا أن نرفع قضية نقض. وبالفعل تحددت جلسة في فبراير 1987 للنظر في دعوى النقض. وكان يتحتم على قانونا أن أحضر الجلسة، وإلا رفضت الدعوى شكلاً. هكذا عدت من جديد. ومن جديد سلمت نفسي للسلطات في 8 فبراير 87. وبقيت في سجن طرة إلى أن أفرج عني مع باقي الزملاء.

تلك كانت المرة الأخيرة التي اعتقلت فيها. أو هكذا آمل.

أنقضى أكثر من ستين عاما على المرة الأولى التي اعتقلت فيها في عهد الملك فاروق. ولا أستطيع الادعاء أن طريق حياتي كان سهلا. لكنني أجد أنني سعيد بعد ذلك العمر وتلك الرحلة، لأنني لم أغير شيئا من نقطة انطلاقي الأولى: البحث عن مجتمع عادل يوفر الكرامة والتعليم والصحة والثقافة لأبنائه من دون تمييز، أيا كانت الحلول المتخيلة. وسعيد لأن القوة لم تفلح في إجباري على القبول بالظلم حتى عندما دفعتني تلك القوة إلى حافة الموت. فلم يعد يفصلني عنه سوى لحظات.

أتذكر الآن أن عملي كمهندس قادني سنة 1953 لإنشاء مبنى

ملحق بسفارة المجر، وكانت تقع حينذاك في منطقة جاردن سيتي في الشارع الممتد خلف مجمع ميدان التحرير، وأظن اسمه كان وقتها «قصر الدوبارة». وكان مبنى فيلا السفارة يرتفع عن سطح الأرض بأكثر من مترين. واقترحت على السفير حينذاك أن نحفر في الأرض لنقيم فيها بدروم، وأعجب السفير بالفكرة، وكانت تلك الحادثة سببا في تعزيز علاقتي بالسفير، فأخذ يدعوني إلى الحفلات التي تقيمها السفارة. وفي أبريل 1954 دعاني إلى احتفال باستقلال المجر. وحين توجهت إلى هناك وجدتني مع قلة قليلة في غرفة واحدة مغلقة قبل بدء الاحتفال وجها لوجه مع الرئيس محمد نجيب. ودار بيننا حديث ودي وبسيط. أشار فيه الرئيس من بعيد إلى خلافه مع جمال عبد الناصر، وإلى ميوله الوفدية، وأضاف أنه لا يشعر بأنه يحكم البلد. كان يتحدث ببساطة شديدة، ولم يكن هناك حراس يحيطون به في الغرفة. أتذكر هذا الآن، بعد انقضاء نحو ستين عاما على ذلك اللقاء. وأتذكر أن محمد نجيب بعد موت عبد الناصر والسادات لعن الثورة وقادتها في مجلة «روز اليوسف»، وكان بذلك يلعن أفضل ما في تاريخه الشخصي. أقول إنني سعيد، وراض، لأن العمر والأحداث لم ترغمني على أن ألعن بداياتي أو أن أتخلى عن أحلامي لنفسي، ووطني. لأن التخلي عن الأحلام انتحار وموت.

الآن مازلت وأنا أخطو إلى العقد التاسع، أسعد حين أسمع أن هناك مظاهرة تأييدا للمقاومة العراقية، أو لكفاح الشعب الفلسطيني، فأرتدي ملابسي، وأتجه إلى هناك. أقف بين الشباب المتحمسين ويرتجف قلبي، وأسأل نفسي: ألا يجب علي أن أقول كلمتي؟ ألا ينبغي علي أن أقول لهم كيف أحب أن أرى مصر؟

- مصر التي في خاطري مصر ديمقراطية، لا تحكمها الطوارئ التي طالت لأكثر من ربع قرن واستخدمت دوما وفي الأساس لتصفية المعارضة السياسية.

- مصر التي في خاطري تحتاج إلى إلغاء دستور السادات أساسا ووضع دستور جديد، أتصور أن أهم ما يحويه من نصوص فصل الدين عن الدولة وتحويلنا إلى دولة برلمانية وليست دولة بوليسة أو رئاسية

وخلافه مما يستدعي اختيار نخبة من الصفوة المخلصة من كافة التيارات ليصيغوه صياغة واضحة تستبعد الحكم العرفي الدائم الذي يجثم على صدورنا منذ أكثر من نصف قرن، ويزداد قسوة يوما بعد يوم وينص على مختلف الحريات السياسية الخاصة بإنشاء الأحزاب وليست الأحزاب الديكور الممولة من الدولة، وحق الإضراب والتظاهر وإصدار الصحف وغير ذلك.

-مصر تحتاج إلى النص صراحة على حرية العقيدة، والفكر، والرأي، والتعبير.

-مصر بحاجة من جديد إلى التصنيع، والتخطيط، والتعليم المجاني، والثقافة المستقلة، والبحث العلمي ، وجامعات، والعودة عن اتفاقيات السادات واتفاقيات الكويز حتى نستعيد سينا كاملة غير منقوصة كما هي الآن ليس بها جيش في حوالي ثلث مساحتها؟!

هذه مقدمات يستحيل من دونها أن نتطور، أو نتحدث عن آفاق مفتوحة للعمل الوطني.

يقول لي قلمي: كفى، لا تكتب أكثر من ذلك. انظر حولك وكن سعيدا لأنك ترى ثريا، وترى أولادك: ممدوح وحسام ونجوى، وقد زادتهم محنة الطفولة قوة وصلابة. انظر إلى أحفادك: نورا وطارق وحنان وسلمى وماجد ونانسي وحفيدة ابني حسام «أنّا»، واشرب قدح الشاي في شرفة البيت الذي لم تبدله منذ نصف قرن. أكثر وتمنى لمصر الخير، كل الخير. لقد فعلت كل ما في وسعك من أجلها.

وما الذي يريده المرء أكثر من ذلك؟



العائلة الصغيرة

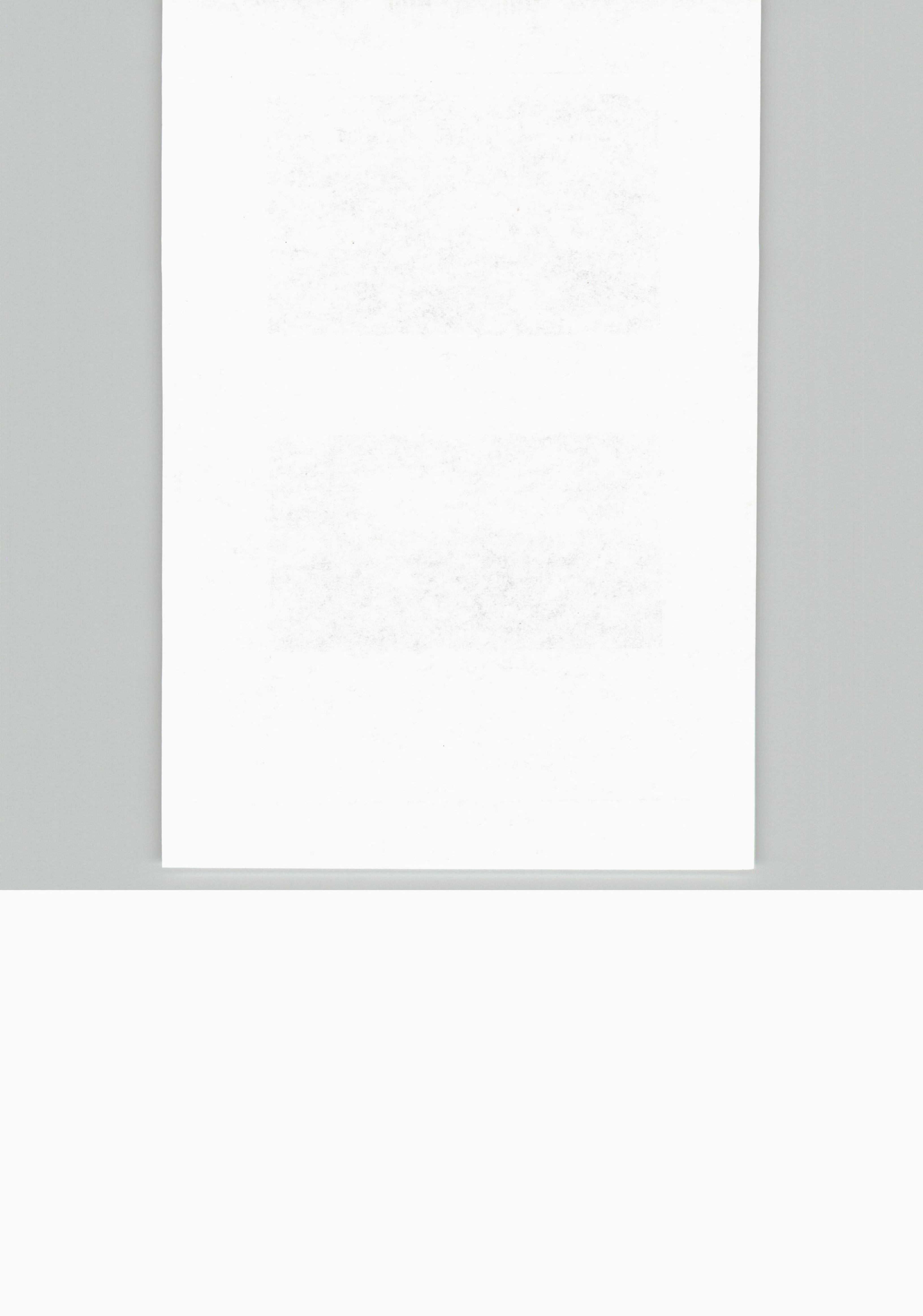


مع بعض الأصدقاء





مع بعض الأصدقاء



التاسع عشر
شهادات

فوزي حبشي
«مهندسا معماريا لإنسانية الإنسان»

فجأة انتشر في زنازين المعتقلين المسجونين الشيوعيين في سجن الواحات الخارجة خبر هام:

وارد جديد من سجن الفيوم يا زملا..!

ولم يطل الانتظار لمعرفة هذا الوارد الجديد..

إنه مجرد رفيق واحد...! من؟!

وبرغم مهارة مندوبنا في إدارة السجن, لم يصل منه إلا معلومة واحدة غامضة.. هي: "**رفيق ملفوف في طبقة كثيفة من القطن**"!

وسرعان ما حملت هذه المومياء القطنية بعد الإجراءات الإدارية إلى أحد الزنازين.. وأخذت تبرز منه العينات وبقية الملامح لوجه مبتسم رغم سجنه القطني, الذي كان يخفى جسدا مليئا بالجراح الغائرة.. وكان وجه الرفيق العزيز فوزي حبشي.. البالغ الرقة والعذوبة والسماحة والجدية والتفتح والعطاء الإنساني. ولم تكن ابتسامة وجهه غريبة على الرفاق الذين كان لهم شرف استقبالها.. فهكذا كان فوزي حبشي دائما طوال تاريخه السياسي النضالي. على أن ابتسامة وجهه عبر سجنه القطني وجسده الممزق كانت أعمق ابتساماته جمالا وصفاء وشرفا وكرامة وإنسانية وبطولة. على أن هذه الابتسامة سرعان ما خرجت من قضبانها القطنية السجينة, بفضل رعاية وعناية طائفة من الرفاق الأطباء. أذكر منهم حمزة البسيونى, وعبد المنعم عبيد, وشكري عازر, وصلاح حافظ, ورؤوف نظمى, ومختار السيد, وممدوح الجندي, وغيرهم.

خرج فوزي حبشي من سجنه القطني ومن بقايا الجراح الغائرة في جسده ليشارك في تحويل سجن الواحات الخارجة, سجن المحاريق, إلى شعلة من العمل والبناء, والحوار الديمقراطي. شارك وهو المسيحي مع الفنان حسن فؤاد وزملاء آخرين في بناء مسجد أطلق عليه مسجد

الشيوعيين, وفى بناء مسرح طليعي وفى تحويل الصحراء إلى أرض خضراء يانعة.

وكما كان دائما مهندسا بارعا, وبَنَّاءً عبقريا في أرض الحرية, كان كذلك في أرض القيود والسدود والسجن.

على أن خبرته الهندسية لم تكن خبرة معمارية فحسب بل كانت كذلك بل أساسا خبرة إنسانية, أخلاقية, كان مهندسا إنسانيا قبل أن يكون مهندسا معماريا, ولهذا كانت كفاءته الهندسية المعمارية كفاءة تطل دائما على الإنسان ومن أجل الإنسان, إنسان الحرية والتقدم, والإبداع الإنساني إلى غير حد..

ولعل معماريته, أو كفاءته الهندسية الإنسانية كانت نقطة لقائنا الأولى والتي استمرت واستدامت وتعمقت إلى هذه اللحظة, التقينا في أوائل الخمسينيات وكل منا يمثل تيارا معينا من تيارات الحركة الشيوعية, التي كانت تتعدد تياراتها وتتناحر برغم وحدة الرؤية والمنهج. التقينا في مهمة صعبة ولكنها جليلة, هي أن نسعى لتوحيد الحركة الشيوعية المصرية في تنظيم نضالي واحد, وكان من حظنا وحظ هذه المهمة الجليلة أن أغلب القيادات الكبرى المتنازعة لمختلف التنظيمات الشيوعية كانت في السجن آنذاك, وهكذا أتيح لنا نحن الصغار أن نلتقي وأن نعمل معا من أجل هذه المهمة الجليلة مهمة توحيد الحركة الشيوعية المصرية. وكان لفوزي حبشي بأفقه الفكري والإنساني والأخلاقي الرحب أن يكون مع عدد آخر من الرفاق داخل بعض التنظيمات الأخرى الفضل في تحقيق قيام أول وحدة بين ما يقرب من خمس منظمات ما كان أكثر ما بينها من تناقضات فكرية وتطبيقية. وأزعم أنه بفضل شخصية فوزي حبشي وفضائله الفكرية والأخلاقية إلى جانب شخصيات أخرى قام الحزب الشيوعي الموحد, الذي كان بداية ومدخلا للحزب الشيوعي المتحد فالحزب الشيوعي المصري الذي انتهت به في عام 1958 كل الانقسامات التاريخية بين الشيوعيين المصريين, وإن عاد مرة أخرى إلى الانقسامية رغم كل الجهود لتدعيم الوحدة الوليدة! على أنه برغم هذا الانقسام فإن التقارب بين الشيوعيين

المصريين بفضل الرفيق فوزي حبشي خاصة وأمثاله من الرفاق ذوى الرؤية الموضوعية والدأب النضالي، وتغليب الحوار والتجربة الحية على المفاهيم الجامدة والصياغات الشكلية, أصبحت الحركة الشيوعية المصرية رغم ضعفها وانحصار دورها النضالي آنيا, مصدر إلهام وخبرة للأجيال الجديدة.

إن السيرة النضالية والإنسانية لفوزي حبشي تعد نموذجا إنسانيا مشرفا للمواطن والمناضل المصري في معركة الحرية والديمقراطية والعدالة والتقدم، وبناء وطن اشتراكي في عالم إنساني جديد ومتجدد دائما.

تحية محبة وتقدير وإعزاز واعتزاز بالرفيق الحبيب فوزي حبشي في عيد ميلاده الثمانين وبزوجته الرائعة المناضلة شريكة حياته السيدة ثريا وتمنياتي لهما بحياة مديدة سعيدة ولأبنائهما وأحفادهما.

محمود أمين العالم

تهنئة قلبية لصديق العمر المهندس فوزي حبشي

فى عيد ميلاده الثمانين

قابلت المهندس فوزي حبشي لأول مرة في معتقل الهايكستب في أوائل عام 1949, وكنت معتقلا فى معتقل«أبي قير» منذ يونيو 1948 مع العديد من الشيوعيين وشباب الطليعة الوفدية. ثم قررت سلطات الإسكندرية تصفية معتقل» أبي قير» بالإفراج عن البعض وترحيل الباقين إلى معتقل الهايكستب . وفى هذا المعتقل قابلت المهندس فوزي لأول مرة, ولم تلبث حكومة ذلك الوقت أن قررت نقلنا إلى معتقل الطور على ساحل البحر الأحمر, وهكذا ذهبنا فوزي وأنا إلى معتقل الطور. ولا أزال أتذكر حتى اليوم أنني عندما مرضت في أواخر 1949 وتقرر نقلى إلى معتقل الهايكستب تمهيدا لنقلي إلى مستشفى الدمرداش, أقول لا أزال أتذكر قيام فوزي بحمل حقائبي ومرافقتي حتى السيارة الجيب المعدة لنقلي برا إلى السويس, ومن السويس إلى الهايكستب وتعانقنا طويلا عند باب السيارة شاكرا له إنسانيته وكرمه.

وأفرج عنا جميعا في يناير عام 1950 عند عودة حكومة الوفد, ثم سافرت إلى الخارج ومكثت سنين هناك إلى أن عدت عام 1952 , وكنت مدرسا بكلية العلوم بجامعة القاهرة, وفى أزمة نجيب عام 1954 وقفنا نحن أساتذة الجامعة في صف خالد محيي الدين ونجيب, وهكذا فقد قرر مجلس قيادة الثورة فصل 42 من الأساتذة كنت من بينهم , فسافرت مرة أخرى إلى بريطانيا حيث عينت مدرسا بجامعة لندن إلى أن تم تأميم القناة فاستقلت وعدت إلى مصر, حيث عينني خالد محيي الدين في صحيفة «المساء» محررا للشئون العربية.

وهكذا عادت صلتي من جديد بالمهندس فوزي حبشي. وقد اعتقلنا نحن الاثنين عام 1959. أنا في يناير عام 1959 وهو في مارس 1959. ومع أنه ظل في معتقل الفيوم بينما كنت في معتقل الواحات. حيث بقينا هناك حتى أبريل 1964. عندما أفرج عنا بمناسبة زيارة «خروتشوف».

وكانت أنباء معتقل الفيوم تصل إلينا وتحكي عن صلابة المهندس فوزي حبشي أمام أعمال التعذيب التي كانت السلطات تمارسها هناك على المعتقلين الذين يحتجون على المعاملة السيئة والأحوال المعيشية غير الإنسانية التي كان المعتقلون الشيوعيون يواجهونها هناك. ولم يكن في ذلك غرابة عندي فعهدي بفوزي أنه مناضل صلب قادر على تحمل المكاره والتعذيب في رجولة رجل الصعيد المصري.

وفى الواحات قام المهندس فوزي حبشي بأعمال إيجابية عديدة, من بينها بناء المسرح الذي قدمت عليه العديد من المسرحيات مثل «عائلة الدوغرى» لنعمان عاشور,«حلاق بغداد» لألفريد فرج. كما أنه لعب دورا أساسيا في إنشاء مشروع «الجامعة الأهلية» الذي نظمناه في الواحات, وفى إنشاء الأرض الخضراء لمزرعة الوادي الجديد.

ومنذ الإفراج عنا عام 1964 حتى اليوم اتصلت صداقتي للمهندس فوزي حبشي لأنه كان نعم الصديق, ولأنني ظللت أحمل له قدرا كبيرا من الاحترام, والثقة بأنه لم يتخل عن الفكر الاشتراكي حتى لو كنا قد وصلنا إلى حاجة هذا الفكر إلى التعديل والتطوير على ضوء التجارب المأساوية التي انتهى إليها المعسكر الاشتراكي.

تحية تقدير عظيمة للمهندس فوزي حبشي بمناسبة عيد ميلاده الثمانين وتمنياتي له بالصحة والعافية والعمر الطويل.

د.عبد العظيم أنيس

صفحة من تاريخ مصر

فوزي حبشي إنسان من نسيج خاص، وتلك ليست جملة إنشائية. ففي هذا العالم المليئ بالخير والشر والذي يفرض على الإنسان أن يتلفت حوله، يعيش فوزي حبشي بلا خباثة . هو كإنسان متأثر للغاية بمهنته كمهندس وبأن أقرب مسافة بين نقطتين هي الخط المستقيم. مما يضفي عليه أحيانا بعض الحدة وأحيانا بعض العناد. ودائما الكثير من الجدية فالمبادئ عنده غير قابلة للتجزئة أو المساومة. فوزي حبشي فى منزله مضياف وكريم. وأنت في منزله تشعرك الأسرة كلها أنك في منزلك. وأنك على الرحب والسعة.

وفوزي حبشي مهندس مبدع. مجدد لا يقف عند حد الأشكال التقليدية، بل يخترقها ويهندس فيها ليقدم دعائم جديدة وقواعد جديدة وأسقف جديدة. وتقف محطات للسكك الحديدية شاهدة تقول نحن من إبداع فوزي حبشي. أو أن فوزي حبشي مر من هنا. ومن أجمل ما أبدعه فوزي فى الهندسة ممدوح وحسام. ولنجوى قصة أيضا. قصة موضوعية دولية، فقد تناقش فوزي وثريا. إحصائيا وهندسيا إنهما اثنان وقد أنجبا اثنين فقط وبالتالي لم يضيفا لتعداد مصر العظيم جديدا. وبعد دراسة متأنية ومتفحصة للحجج المختلفة أنجبا نجوى، التي انطلقت يوم إطلاق أول قمر صناعي روسي. وهذا يدل على دقة الحساب والبراعة الرياضية.

ومن إبداعات فوزي حبشي الهندسية الفنية، تصميم مسرح روماني فى منفى المحاريق والإشراف على بنائه. وهو مسرح مثلت عليه مسرحيات لأول مرة. وأخرج عباقرة فى الإخراج والمكياج والإضاءة والديكور والتمثيل والتأليف، وهو أثر مازال باقيا في الواحات بل وأصبح أحد المزارات هناك.

وشيد فوزي حمام سباحة ـ كان شيئا رائعا ـ في قلب هذا الجحيم، غير أننا عندما طلبنا من أسرنا أن يحضروا لنا مايوهات لنعيش الوهم حقيقة نظروا لنا فى اندهاش، لما يمكن ان يكون قد أصاب عقولنا من

ضرب الشمس الذي لا يتوقف, غير أنهم يتفقوا أن أمرنا قد انتهى أو أن عقولنا قد تجاوزت الخط الأحمر,عندما أعطيناهم عينات من المياه وطالبناهم بتحليلها لأننا سنقيم مزارع سمكية.

وفوزي حبشي فنان أبدع قطع منحوتة من الطين غاية فى الجمال, وكان ذلك فى سجن القناطر رجال عام 1954. وكان يخرجها من أجل حرقها وتلميعها, وتحويلها إلى تحف جمالية.

وفى عام 1955 كنا نحاكم معا فى قفص واحد وقضايا مختلفة, وكانت ثريا حبشي زوجة فوزي حبشي والدليل على ذوقه الرفيع فى الاختيار تمدنا هي وأم نسيم يوسف ـ وكان معنا فى قضية ثالثة ـ بما لذ وطاب وبما أحال سجن الاستئناف حتى غدت أيام الاحتجاز طعمة ولذيذة, واختتمناها بيوم صدور الحكم وهتافاتنا المدوية. ليرد علينا حشد هائل من الأهل والأصدقاء, وليحكم على كل منا بثلاث سنوات فيزغرد أهلنا ويوزعون الجاتوه والمشروبات المثلجة.

هل تصدق يا فوزي أن أيام السجن تلك تبدو أيام جميلة وعذبة, وأنه كان فى وسعنا أن نقول رأينا بحرية حتى وراء القضبان.

غير أن كل أيام السجن لم تكن لذيذة كتلك فى سجن الاستئناف بباب الخلق.

جاء عام 1959 عاصفة وهوجاء سوداء ووقع فوزي وثريا فى يد الزبانية فوزي إلى معتقل العزب فى الفيوم وثريا إلى سجن القناطر للنساء وترك الثلاثة الصغار فى الخلاء.

وفى معتقل العزب بالفيوم هو سجن نازي بكل المقاييس, سقط أحد الشبان فى العنبر الذي كان مسئوله فوزي حبشي. كان فوزي عضو منطقة المعتقل ومسئول هذا العنبر. وعذب هذا الشاب عذابا دنيئا بربريا يتسم بكل الحقارات فاعترف أن فوزي حبشي مسئول العنبر. فجيء بفوزي حبشي حتى يعترف على قيادة المعتقل. وقبل ان يبدأ حفل التعذيب خلع فوزي دبلته وساعته وقام بتسليمها للضابط حتى ترسل إلى زوجته بسجن النساء وكان ذلك إعلانا بأن فوزي قرر الموت وألا ينالوا منه شيئا. كان قرارا بسيطا وحاسما. هكذا كان فوزي وتمزقت

السياط فوق جسده العاري. وتحول فوزي إلى كتلة دامية وكنا قد دخلنا امتناعا عن الطعام فرآه وفد المعتقلين المتجه إلى الإدارة مكوما يكاد لا يندلق فهاج الزملاء وثاروا. كان لابد لنا من إنقاذ فوزي. وفى اليوم التالي رحلونا إلى الواحات, ولم يكن معنا فوزي, فأعلنا أننا سوف نعتصم ما لم يكن فوزي معنا. وأعطونا فوزي. غطينا جسد البطل العاري بالقطن فما كان فى وسعه أن يرتدي الملابس وقد تحول جسده إلى شقوق وأخاديد وارتدى فوق القطن»روب دى ديشمبر» وأخذتنا السيارات إلى بنى سويف. واقترح بعض الزملاء أن نهتف لكننا قررنا ألا نهتف وأن يتقدمنا فوزي علما أحمر. فرأت الجماهير الدماء القانية وبلغتها الرسالة ورددت هتافات صاخبة وتحول الموكب إلى مظاهرة لنا.

وفى الواحات على بوابة المنفى أصر قائد المعتقل على كتابة تقرير بحالتنا سجل فيه كل الإصابات, لا إنقاذا لفوزي ولكن إنقاذا لنفسه من المسئولية.

واليوم يمكنك أن تستأذن فوزي حبشي ليخلع لك ملابسه لتقرأ على ظهره صفحة من تاريخ مصر, صفحة سجلها مناضل وبطل عظيم. رفض أن يخضع لسطوة الجلاد وكان على استعداد تام أن يدفع حياته ثمنا لشرفه وشرف أسرته وشرف وطنه.

تحية لفوزي لمذكراته التي لا بد أن تكون سيرة عطرة. سيرة تحتذى سيرة قدوة لأجيال لا بد قادمة.

د. فخري لبيب

أحدثت بهجته أجمل الصدى في نفسي!

في مارس 1959 نقلت مع مجموعة كبيرة من المعتقلين اليساريين من معتقل القلعة إلى سجن مصر المجاور وأنهي هذا الانتقال حرمانا مطلقا من الصحف والكتب والراديو استمر لثلاثة أشهر. فقد كان سجن مصر مكدسا بالنزلاء من الجنائيين العاديين، مما سهل الاختلاط بهم والحصول على الصحف منهم. كما كانت به مكتبة ضخمة ساهم النزلاء أنفسهم في تكوينها على مدى السنين. وعندما هددنا بالإضراب عن الطعام إذا لم يسمح لنا باستخدامها، وافقت الإدارة على أن يذهب مندوب واحد عنا إليها ويقترض بضعة كتب توزع على الزنازين ويتم تبادلها بيننا ثم تستبدل بمجموعة غيرها، بالطبع لم يكن من الممكن التحكم في اختيارات المندوب، التي يحاول بها إرضاء الأذواق المختلفة. هكذا أتيحت لي الفرصة لأن أقرأ كتبا لم يكن من الممكن أن أختارها بنفسي. وقضيت أروع الأوقات مع كتب في التاريخ والجغرافيا وعلم الأحياء وروايات ضخمة منها واحدة بالإنجليزية لمؤلفة أمريكية تدعى«آني راند» وتحمل اسم«النافورة». لم تخف المؤلفة ميولها الفاشية ودفاعها عن الفردية المطلقة والتميز الشخصي لكنى شغفت بالموضوع الرئيسي لها وهو فن العمارة والتاريخ الشخصي للمعماري الأمريكي العظيم «فرانك لويد رايت».

ولأول مرة أدركت أن العمارة فن، وفن خطير يرتبط مباشرة بحياة الناس وبالتصورات الفلسفية عن سبل تنظيمها ويجسد قيمة الربط بين الشكل والوظيفة.

كنا نسكن في زنازين من ثلاثة أشخاص. وتفتح هذه الزنازين مرتين في اليوم لفسحة قصيرة يتاح خلالها الالتقاء مع نزلاء الزنازين الأخرى.

كنت في الواحد والعشرين من عمري وقد نذرت نفسي للثورة وأهملت دراستي الجامعية، لكن رأسي الصغير امتلأ بأسئلة كثيرة

لم ترد إجاباتها بالكتب السياسية. عن الحب والجنس والأسلوب الأمثل للحياة. وكنت أسعى للحديث مع رفاقي وخاصة الكبار منهم لأستوعب تجربتهم الشخصية ولم يكن أغلبهم يتحمسون للحديث بانطلاق• ربما لحياء ما لديهم أو لصغر سني أو لانشغالهم بأمور أهم وربما أزعجهم فضولي وأثار خوفهم. كان فوزي حبشي واحدا من قلة لم تجد غضاضة في الحديث معي بانطلاق. كان - ومازال- يتميز بحيوية بالغة تنطق بها حركته السريعة. وبوجه تؤكد ملامحه أن صاحبه لا يخفي عنك شيئا• تميز أيضا بالتواضع وإنكار الذات وعدم الاستعداد للتنازل عن المبادئ مما جعله موضع ثقة الجميع. وحمامة سلام وسط نزاعات سياسية غذتها في أغلب الأحيان ذوات متورمة. وكان فن العمارة مدخلا لأحاديث عديدة معه تفرعت في اتجاهات متعددة. وفوجئت به يحدثني ببساطة شديدة عن تفاصيل دقيقة تتعلق بعلاقته بالمرأة. وسرعان ما فرقتنا السجون العديدة التي تنقلنا بينها إلى أن استقر بنا المقام في سجن المحاريق بالواحات الخارجة. كنا في عنبرين مختلفين منعزلين عن بعضهما البعض. وبعد أكثر من سنة بدأت قيود السجن تخف بالتدريج وصار اختلاط النزلاء ممكنا.

وسعيت إلى الحديث معه لكنه كان قد وجد الفرصة لممارسة مهنته ولم يعد لديه الوقت للصغار من أمثالي. كان الطعام الذي يقدم إلينا بالغ السوء فسعينا إلى الاشتراك في العمل بالمطبخ وأحدثنا تحسنا في نوعية الطعام أدى إلى نقص كميته. وهنا ظهرت فكرة عمل مزرعة تزودنا بما نحتاج إليه من خضراوات من ناحية وتمتص طاقتنا أيضا. كما تقدم مثالا على ما نستطيع إنجازه في أصعب الظروف. واحتاجت هذه المزرعة إلى شيئين:الأول هو سماد عضوي أمكن توفيره من خلال «الترانش» وهو مجمع الصرف الصحي. والثاني خزان مياه تولى المهندس فوزي حبشي إنشاءه. فجري حفر حوض كبير وتبليطه بالحجارة. وصار لدينا خزان كبير للمياه تعلمت فيه السباحة. نجح مشروع المزرعة وظهر إنتاجها من الخضراوات التي كانت توزع على الزنازين بالدور فيسهر نزلاؤها في إعداد وجبة جيدة على

نيران «التوتو» وهو مصباح بدائي يعمل بالزيت. وعندما ارتفعت قامة الفول الأخضر أغرى منظر الحبوب السمينة الطرية البعض بمحاولة تخطي الدور. تعددت حالات الاعتداء على الحق الجماعي فتكونت فرقة لحراسة الحقل على رأسها محمد عمارة (الدكتور والمفكر الإسلامي الآن). وكان ذا وجه متجهم بالغ الصرامة مما دفعنا- أنا واثنين من الأشقياء هما كمال القلش وإبراهيم هاجوج -إلى محاولة خداعه. فتسللنا إلى الحقل ورقدنا بين العيدان العالية ثم بدأنا في التهام حباتها الطرية اللذيذة ونحن نتابع جولة قدميه حول الحقل. زاد إنتاج المزرعة بالتدريج وأصبح يلبي احتياجات السجن كله لا زنزانة واحدة. ولأول مرة بدأنا نشعر بالشبع. وعندما تشبع البطن تبدأ مطالب العقل، فولدت مهمة جديدة للباشمهندس. فقد وافق مأمور السجن على إقامة مسرح في الهواء الطلق من مدرجات حجرية. وتولى فوزي حبشي وضع التصميم والإشراف على تنفيذه. وتوزعنا بين فرق الحفر والنقل والردم إلى أن اكتمل البناء. وبدأت تجري عليه بروفات مسرحية «عيلة الدوغري» لنعمان عاشور. وفي الموعد المحدد للعرض سمحت إدارة السجن للمعتقلين والمسجونين بالخروج ليلا لأول مرة. وازدحمت بهم مدرجات المسرح الصخري. بينما جلس كبار المدعوين وهم مأمور السجن وعدد من الشخصيات الرسمية للمحافظة على مقاعد في المقدمة. ووقف الممثلون في الكواليس بقيادة «حسن فؤاد». وكانت ليلة لا تنسى.

لم تسمح مشروعات الباشمهندس ومشغولياته السياسية بمزيد من الجلسات الحميمية. ولا حتى بعد الإفراج عنا في العفو العام. حقا إننا التقينا في عدة مناسبات. بعضها في مصر وبعضها خارج مصر. لكنها كانت لقاءات خاطفة. مثل لقاء سريع في موسكو عام 1972 على ما أذكر. ولقاء آخر في القاهرة في 1975ولقاءات تالية في مناسبات اجتماعية منها احتفال بالعيد الذهبي لزواجه. وفصلت سنوات طويلة بين كل لقاء وآخر. لكني كنت أشعر دائما أننا على

تواصل مستمر. وكانت نظرة واحدة مني إلى وجهه الصريح عندما نلتقي تنبئني بأحواله المعنوية دون حديث. وأجد صداها على الفور في نفسي. رأيته مبتسما متفائلا في السبعينيات ومكتئبا في الثمانينيات والتسعينيات. ومبتهجا باسما مرة أخرى. في المؤتمرات المضادة للعولمة الرأسمالية التي شهدتها الألفية الجديدة. وأحدثت بهجته أجمل صدى في نفي.

صنع الله إبراهيم

فوزي حبشي
الصمود في وجه التصفية ... رجل

لم يسعدني الحظ.. بالتعرف عن قرب .. على الصديق المناضل فوزي حبشي.. إلا عندما جمعنا سجن الوادي الجديد.. القابع فى جوف صحراء الواحات.. فى أوائل الستينيات وكنت قد رحلت إلى هذا السجن من أوردي أبى زعبل .. بينما نقل إليه فوزي من معتقل العزب بالفيوم.. وهو بين الحياة والموت.. بعد أن خاض بكل بسالة وبطولة محنة تعذيب بربري لم يسبق لها مثيل.

ومع ذلك.. فيوم تصافحنا لأول مرة.. كنت أعرف من هو فوزي حبشي كل المعرفة.. لأن سيرته أو بتعبير أدق أسطورته كانت تتناقلها ألسنة المعتقلين الشيوعيين فى أوردي أبى زعبل .

فرغم تشتيت الشيوعيين بين مجموعة من المعتقلات والسجون بهدف تفريق صفوفنا .. وعزلنا عن بعضنا ..نجحنا فى تحدي إرادة السجان.. واختراق الأسوار والقضبان.. وتوصيل وتبادل أخبارنا بين مختلف هذه السجون.. ومن هنا.. عرفت فوزي حبشي قبل أن ألقاه.. أو أراه.. باعتباره رجلا.. بطلا.. يجسد الصمود تجسيدا حيا.

كان فوزي حبشي.. يعي جيدا.. أن «حبسة» 1959 كان لها طبيعتها الخاصة التي تميزها كيفيا عن كل الحبسات السابقة . فى هذه المرة كان حبس الشيوعيين يستهدف قهر الشيوعية بتصفية الشيوعيين سياسيا وجسديا ومعنويا ونفسيا. لذلك آل فوزي حبشي على نفسه أن يجعل شغله الشاغل طوال وجوده في السجن هو مقاومة أشكال وأساليب التصفية .

اكتشفت إدارة معتقل العزب يوما, أنه المسئول السياسي للحزب الشيوعي المصري فى أحد العنابر.. فجن جنونها.. واعتبرت مباحث أمن الدولة.. أن تمسك الشيوعيين بتشكيلاتهم الحزبية داخل المعتقل، رغم

كل أساليب القهر والترويع والتعذيب الجماعي التي تمارس ضدهم.. بمثابة نكسة مروعة لمخطط التصفية. وارتأت عدم الاكتفاء بالتعذيب الجماعي الذي يمارس ضد كل المعتقلين.. وقررت أن يقترن هذا التعذيب.. بتعذيب فردي وحشي تصبه على فوزي حبشي لتجعل منه عبرة لمن يعتبر. ولتحطم من خلاله معنويات المعتقلين.. توطئة لجولات العقيد المصيلحي مدير عام مباحث أمن الدولة التي طاف فيها المعتقلات لاصطياد أية عناصر ضعفت أو انهارت لانتزاع توقيعاتهم على استنكارات للشيوعية.. تحت تأثير الرعب والترويع.

وصدرت الأوامر لعصابة من الجلادين المتجردين من الآدمية أو أية نوازع إنسانية ليتولوا تعذيب فوزي حبشي حتى الاعتراف على رفاقه فى التنظيم وعلى نفسه أو الموت.. وانهالت على جسد فوزي حبشي ما يزيد على ألف ضربة وضربة كرباج سوداني وشومة.. تلقاها على كل جزء من جسمه الذي تحول إلى جسد ممزق مشوه مدمم.. ومع ذلك أبى فوزي أن يستسلم.. أو أن يخضع.. أو أن يركع.. تكسرت قبضات الكرابيج فى أيدي الجلادين ولم تلن قناة فوزي أو تنكسر... وهكذا أنقلب السحر على الساحر.

كان فوزي يحس بأنه بحكم مسئوليته التنظيمية مطالب بأن يقدم لزملائه المعتقلين قدوة يقتدي بها.. ومثلا يحتذي به. الجلادون.. مثلوا بجسده.. ليحولوه إلى أمثولة.. ولكن صموده حوله إلى نموذج فذ للرجولة والبطولة. الجلادون أرادوا بتعذيبه تحطيم معنويات زملائه.. ولكن صمود فوزي حبشي تحول إلى رافعة لهذه المعنويات.. ليس داخل معتقل العزب فحسب بل فى سائر السجون والمعتقلات.. لأن صمود فوزي وشموخه .. وتحديه لأساليب التعذيب مهما بلغت وحشيته.. فى مقدور المناضل أن يتحمله.. لو توافرت لديه الإرادة والعزيمة. وأن إرادة الثوار.. غير قابلة للانكسار.. وأن معنوياتهم غير قابلة للانهيار.. إن فوزي بصموده الأسطوري أصدر حكما بإشهار إفلاس نهج التعذيب الجماعي والفردي.

عندما توقفت ساقية التعذيب عن الدوران.. على إثر اغتيال الشهيد شهدي عطية الشافعي.. وسلسلة الإضرابات عن الطعام.. التي اجتاحت السجون والمعتقلات والتي أدت إلى قدر محدد من الانفراج فى أوضاع المعتقلين, ظل فوزي على قناعة.. بأن مخطط التصفية لم يقهر بعد , وأنه سوف يستمر بأساليب أخرى.. ولذلك واصل فوزي دوره المتميز فى مقاومة هذا المخطط حتى الإفراج عنه.

كانت خطة التصفية.. تستهدف قتل معنويات المعتقلين ببث اليأس فى نفوسهم وإيهامهم بأنهم مخلدون فى السجون.. ولن يستنشقوا نسيم الحرية أبدا... وسوف يظلون فى المنافي حتى تأكلهم رمال الصحراء.. وتبتلعهم فى جوفها. وكانت قناعة فوزي أن إحباط هذا المخطط يستوجب كسر عزلة المعتقلين عن العالم الخارجي وتبديد الإحساس بالوحشة للحياة خلف الأسوار .

وآمن فوزي بأن إقامة مسرح داخل سجن الواحات من شأنه التخفيف من وطأة السجن.. والإسهام فى تثقيف المعتقلين والترفيه عنهم ورفع معنوياتهم. وسخر فوزي خبرته كمهندس فى بناء مسرح روماني كبير.. بالجهود الذاتية للمعتقلين وكان يرى أنه بهذا الإنجاز يضرب مخطط التصفية المعنوية فى مقتل أو كما عبر فى مذكراته:

(أنا من المؤمنين بأن الفن للحياة.. وبأن الحياة تسير حتى داخل السجون ولو أن سيرها هناك أعرج, فعلينا أن نخفف من وطأتها حتى تمر السحابة دون إحناء الرأس).

وقد لعب مسرح سجن الوادي الجديد بالفعل وما قدمت عليه من مسرحيات دورا رئيسيا فى إفشال مخطط تحويل المعتقلين إلى كائنات معزولة عن الحضارة فى جوف الصحراء وتجميد قدراتهم الفكرية والذهنية والثقافية .

وكان فوزي أيضا يدرك أن أحد أبعاد مخطط التصفية هو قتل المعتقلين بالتجويع... وتصفيتهم جسديا عن طريق القتل البطيء ..

ولعب فوزي ورفاق عديدون معه دورا بارزا فى التصدي لهذا البعد من أبعاد المخطط بإنشاء مزرعة فى سجن الوادي الجديد توفر للمعتقلين بالجهود الذاتية الحد الأدنى من احتياجاتهم من الخضراوات والفواكه . وبذلك أسهم فوزي إسهاما ملحوظا فى الحفاظ على حياة الرفاق .

إن سجل التاريخ سوف يشهد بأن فوزي حبشي اجتاز تجربة السجن وخرج إلى الحرية من جديد (دون إحناء الرأس) هو والأغلبية الساحقة من المعتقلين الشيوعيين الذين أبوا الوقوع فى شباك العقيد المصيلحي ورفضوا شراء حريتهم ... بالتوقيع على صكوك استنكار الشيوعية.

وخرج فوزي حبشي.. من محنة السجن والتعذيب وهو أصلب من الصلب... ودلل بذلك على صحة مقولته البليغة التي أوردها فى مذكراته و التي تقول:

(النار التي لا تحرق تقوي .. فهي تحرق الألياف الخشبية الضعيفة لكنها تزيد من تقوية الحديد إلى صلب)

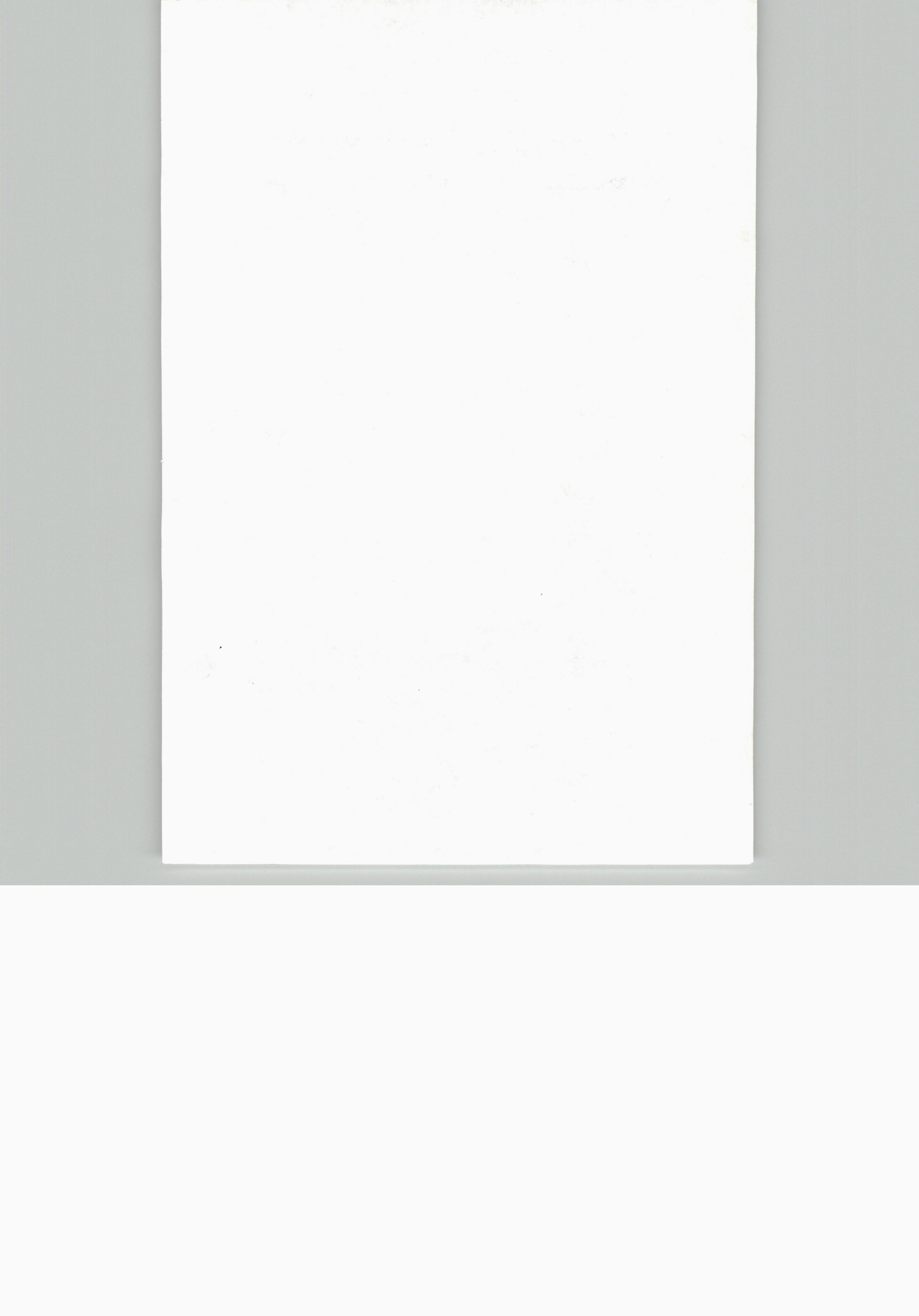
إن (مذكرات معتقل سياسي) التي سطرها فوزي حبشي تقدم لنا .. وللأجيال القادمة من بعدنا دروسا ثمينة . وهي تؤكد المعنى الذي اخترته عنوانا لهذه الكلمة عندما قلت أن فوزي حبشي هو (الصمود فى وجه التصفية... رجل) وبفضل هذا الصمود حفر فوزي حبشي اسمه بمكانة رفيعة فى نفوس الشيوعيين والتقدميين المصريين ويكفيه فخرا ... ما سطره واحد من زاملوه في معتقل العزب في شهادته المكتوبة وهو يصف ترحيلة فوزي حبشي إلى الوادي الجديد.. حيث قال:

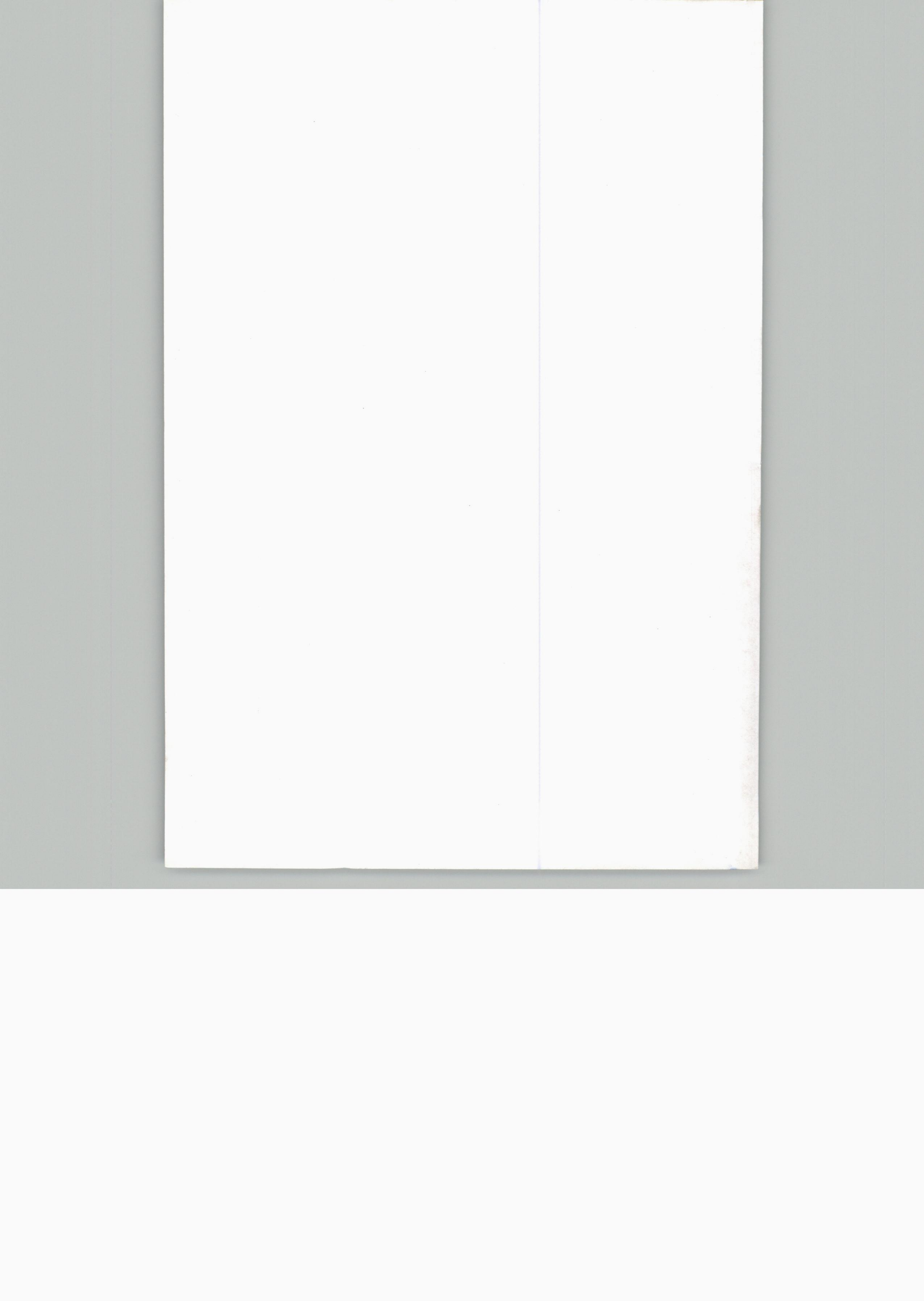
(فتح باب السيارة فطلبت من الرفاق ان يفسحوا الطريق ليسير فوزي حبشي فى المقدمة... كانت إدارة معتقل العزب والمباحث العامة قد مزقوا جسده بالسياط حتى أشرف على الموت.. فكسينا جسده العاري بالقطن.. ووضعنا فوقه "روب"..

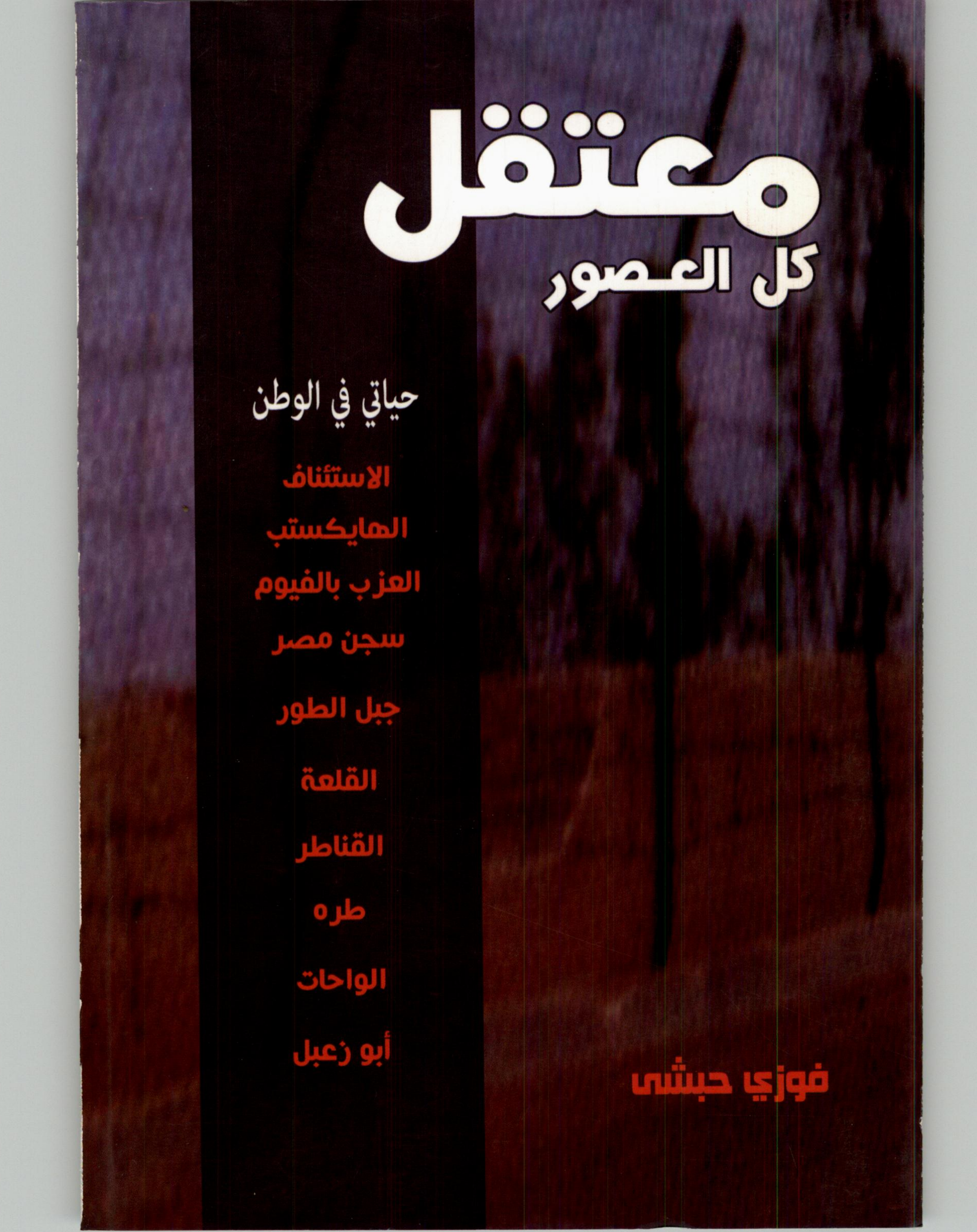
استعرناه من الدكتور لويس عوض.. كان ضيقا
عليه.. فبرز القطن الدامي بألوانه الحمراء
من تحته.. وسار فى المقدمة.. ونحن وراءه فى
الحجلات كعلم أحمر يتقدم الموكب.. نحن
جميعا نسير مرفوعي الرأس)

أحمد نبيل الهلالي

فهـــرس






معتقل
كل العصور
حياتي في الوطن
الاستئناف
الهايكستب
العزب بالفيوم
سجن مصر
جبل الطور
القلعة
القناطر
طره
الواحات
أبو زعبل
فوزي حبشي